# المقاومة

قراءة في: التاريخ والواقع والآفاق

البريد الالكتروني: E-mailnet.sy@Vunecri
aru@net.sy
موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.org

الإخراج: سنديا عثمان

❑❑

أ. د. حسين جمعة

# المقاومة

## قراءة في:

### التاريخ والواقع والآفاق

دراسة

دمشق - ٢٠٠٧

# بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

*" كُتب عليكم القتال وهو كره لكم؛ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون".*

*(البقرة ٢/٢١٦)*

*صدق الله العظيم*

# المقدمة

لا مراء في أن الحياة الثقافية ــ بما فيها من الإنجازات الفكرية والأدبية والفنية... قد أخذت تتراجع في المنتصف الثاني للقرن العشرين لصالح الحياة السياسية، ثم الاقتصادية والتقنية، والإيديولوجية الخالصة... ومن ثم جاءت الحياة الاجتماعية ملبية لذلك فتغيرت المفاهيم؛ وتبدلت القيم، وربما حكم عليها بالتخلف... وكانت الأعمال الأدبية ــ على الدوام ــ تمثّل روح الأمة، وشفافية ألقها النفسي في التعبير عن القيم الموروثة وقد رَصَد قسم منها مثل هذه الحال. فالجهاد ــ وفي ظل التأثير الثقافي السياسي الغربي ــ غدا عبئاً على حياة عدد غير قليل من الأفراد، بل إن حكومات عربية عدّة طفقت تغيّر رؤيتها له، وكذا يتجه التغيير إلى مفاهيم أخرى كالعدالة والصدق...

وفي ضوء هذا الوعي كانت المفاهيم الثقافية للأمة العربية والإسلامية تقع تحت ضغط التأثر والتأثير المتبادل؛ فتغنى، وتثرى، وتتطور تارة، وتضطرب ويشوبها القلق والضبابية، ثم الانحراف والتراجع إلى الوراء تارات أخرى؛ إن لم نقل إنها ثقافة أخذت تذوي وتتهاوى أمام نظريات الآخر الغربي وقوته التقنية والإعلامية.... فالثقافة العربية الإسلامية ــ اليوم ــ ابتليت بمفهوم انزياح القيم الأصيلة والمبادئ الثابتة.

وهذا يشي بأن الغرب ــ جعل الثقافة مظهراً من أهم مظاهر الصراع بين الأمم، وسعى إلى إثبات ثقافته المستندة إلى مفاهيمه الفكرية والفلسفية، وطبيعة حياته المادية، ومن ثم فرْضها على الآخر وفق قانون (الغالب والمغلوب)... على اعتبار أن من ملك الثقافة ملك عقول الناس جميعاً قبل عواطفهم؛ وفي صميم هذا التصور تقع ثقافة العولمة. المستفيدة من قابلية الرضا لدينا، ومن شعورنا بالضعف والتقصير...

وبناء على ما تقدم خصصنا ***الفصل الأول*** لتناول ***فكرة الجهاد بين الآباء والأبناء*** منذ أن كانت غزواً إلى أن غدت كفاحاً تحررياً إنسانياً.. كما

تتمثل عند الآباء الأجداد الأوائل على امتداد العصور، وكذا هي عند الأبناء حتى يومنا هذا... دون أن نتغافل عن ذكر فكرة الجهاد بين الآباء والأبناء في الزمن الواحد باعتبارها وجهاً من وجوه الحفاظ على الذات...

ولما كانت مادة البحث في شأن الجهاد متنوعة ومتشعبة الاتجاهات فقد اجتزأنا منها بالأصول الأولى التي بُني عليها مفهوم الجهاد... لأن هذه الأصول تؤكد أنه مفهوم إنساني راقٍ اعتمده العرب في سياق الدفاع عن النفس ومقاومة كل معتدٍ أثيم على الأرض والشرف، وكذا كان على الدوام عند المسلمين دفاعاً عن الذات وكينونة الوجود وتحرير الأرض ما جعل علماء الدين يصدرون فتاواهم بشرعية المقاومة والعمليات الاستشهادية... على حين يسعى الآخر الغربي الأمريكي الصهيوني ــ اليوم ــ إلى دمغ نضال العرب بالإرهاب، وإدانة كفاحه بمثل ما يُدين موته...

ثم لما كانت الأصول التاريخية الأولى لفكرة الغزو/ الجهاد ذات رؤية كونية وثقافية ثم دينية عقيدية، وذات أشكال كثيرة اخترنا منها ما يلبي غرضنا، وشفعنا ذلك بصورة أدبية وفنية من التراث العربي القديم بوصفها نماذج روحية ومادية تجسد قيمة تفاعل الأدباء آنذاك ــ شعراء وناثرين ــ بأحداث الأمة، وتعبر عنها بشفافية رفيعة ما زلنا نستلهم دلالتها حتى الساعة... وأردنا لهذه النماذج المختارة أن تستوعب تعدد الرؤى الفكرية قبل الأدبية والفنية على اعتبار أن الأدب يعدّ وثيقة تاريخية مساعدة للوثيقة التاريخية الزمانية والمكانية والسكانية...

لهذا كله من يتأمل الوجود التاريخي والإنساني والكوني يدرك ضخامة أحداث الدورة الزمانية التي لحقت بهذا الوجود من خلال صميم الصراع حول فكرة الحياة والموت.. وفي ضوء تأمل هذا الصراع الوجودي يرى المرء أن المخلوقات أياً كان نوعها تحقق ذاتها والدفاع عنها بحركة تلقائية داخلية لإقامة توازنها الوجودي في إطار نظامها الخاص. وهذا التصور هو الذي فرض علينا أن نتحدث في ***الفصل الثاني*** عن ( ***المقاومة الفكر والجدوى***) وفق منهج المنطق التاريخي المعانق لمبدأ التحليل والبعيد عن المنطق الإنشائي.

وعليه نجد أن عالم النبات يجدد ذاته في ضوء عملية الإنتاش والإنبات مع الطبيعة الجامدة والمتحركة دون أن يقصد إلى أذية الآخر.. في الوقت الذي نجد أن بعض النباتات لا تقوم حياتها إلا على أساس التغلب على الآخر.

أما عالم الحيوان ـــ وبما يستند إليه وجوده بما فُطر عليه ـــ فإن حالة التوازن تعتمد على مبدأ صراع الأقوى، علماً أن بعض الحيوان لا يعتدي على بني جنسه إلا في حال تهديد الآخر لوجوده.. أما الحيوان المعتدى عليه ـــ وإن كان الأضعف ـــ فلا يمكنه أن يسلّم بالموت المحتوم ولكنه يلجأ فطرة وغريزة إلى فعل المقاومة للدفاع عن وجوده؛ ما يعني أن المقاومة، أو الممانعة، بما فيها القتال المادي إنما هي في طبيعتها الأصلية فعل غريزي مقاوم للدفاع عن الحياة والوجود في إطار قانون القوة الطبيعي.

أما مبدأ المقاومة لدى الإنسان فإنه يأخذ اتجاهات شتى في الدفاع عن الوجود وأنواعاً عدة من المقاومة الجسدية إلى المقاومة المعنوية الروحية والمعرفية، علماً بأن فلسفة مقاومة القوة المادية لدى بعض الأجناس البشرية تتخذ مفاهيم الاندفاع العشوائي الذي يجعل أصحابه يحطمون كل نمط من الأنماط الحضارية والإنسانية لغلبة الخشونة عليها، أو لغلبة البداوة غير المتحضرة كما انتهى إليه ابن خلدون (٧٣٢ ـــ ٨٠٨هـ /١٣٣٢ ـــ ١٤٠٦م) في حديثه عن أعمار الدول.

فإذا تملكت قوة البدن والعناصر المادية من النفس وانتصرت على حكمة العقل غلب عليها قانون القوة الطبيعي، من أجل الحصول على المنافع الخاصة بأصحابها. ومن ثم قادنا هذا المفهوم إلى الحديث عن مقومات المقاومة وأركانها، وبيان حقيقة المشروع الأمريكي الصهيوني الساعي إلى الهيمنة على العالم عامة والوطن العربي خاصة.... ولعل هذا كله فرض علينا إبراز ثقافة المقاومة والوعي بالوجود الوطني القومي من خلال المقاومة الوطنية اللبنانية.

ولما كانت القضية الفلسطينية قضية العرب الأولى ولما مثلت انتفاضة الأقصى حالة نوعية في الحياة العربية فقد حاول ***الفصل الثالث*** من كتابنا إثبات ماهية الانتفاضة / المقاومة الفلسطينية؛ لكونها غدت طقساً يتجدد مادام الاحتلال قائماً للأرض والحياة والوجود ... وفي إطار التجربة التاريخية، واستناداً إلى

المبادئ الدينية والإنسانية والشرائع الدولية ومبادئ الحق الطبيعي في الوجود ...

ومن ثم فهو يقف عند أبعادها ونتائجها ... فمن أبعادها أن انتفاضة الأقصى التي تفجرت في (٢٠٠٠/٩/٢٨م) أعادت باندلاعها الزمن النضالي العربي كله إلى الظهور وظهرت معها صحوة سياسية ونضالية، حين استندت إلى مفاهيم الشهادة الراقية باعتبارها دفاعاً عن الوجود ضد محتل صهيوني غاصب للأرض والحياة ... مما جعلها تسقط مزاعم الكيان الصهيوني حين صور نفسه للعالم بأنه المعتدى عليه، وبأن المقاومة تنشر الإرهاب ضد أبنائه ... ولهذا فمن حق الكيان الصهيوني – كما يزعم قادته – أن يقوم باجراءات أمنية مهما بلغت وحشيتها للدفاع عن نفسه ...

وقد أخذت انتفاضة الأقصى في عامها الخامس سنة (٢٠٠٤م) توضح بأن إسرائيل إنما هي دولة إجرامية تتحايل على القانون الدولي وعلى اتفاقية ( جنيف الرابعة) المؤرخة في (١٩٤٩/٨/١٢م) الخاصة بحماية المدنيين. ومن ثم فهي التي تصنع الإرهاب وتزرع الرعب الذي أثَّر في أبنائها أنفسهم؛ فأخذوا يفكرون بالهجرة المعاكسة بعد أن أصيب كثير منهم بالأمراض والشذوذ، بل شرع بعضهم يقدم على الانتحار ... ولا سيما بعد تراجع التنمية لدى الكيان، وازدياد الفقر، وسقوط مفهوم الأمن القومي (الإسرائيلي) ... واختلال البنية الديمغرافية للسكان حيث أثبتت المرأة الفلسطينية أنها أهم عنصر في معادلة الصراع.

وبهذا كله انتصرت الانتفاضة / المقاومة، وإن استطاعت قوى داخلية وخارجية أن توقفها إلى حين. ولا شيء أدل على هذا من الفتنة المأساة التي حدثت في الاقتتال الدامي بين الأخوة الفلسطينيين (حماس وفتح). وهو اقتتال حدث غير مرة؛ وقد أدى إلى انقسام حاد بين المقاومين، في شهر حزيران (١٠ –٢٠٠٧/٦/١٦م)؛ في الوقت الذي كان عليهم أن يقفوا في الذكرى الأربعين لهزيمة (١٩٦٧/٦/٥م) يداً واحدة... كان ينبغي عليهم ألا يقعوا في قابلية الفتنة التي خطط لها الصهاينة برعاية الإدارة الأمريكية المحافظة بقيادة بوش الابن. ولعل ما وقع بين الأخوة الفلسطينيين يعد هزيمة أخرى لا يقل تأثيرها في النفس العربية عن هزيمة حزيران، فالقضية الفلسطينية تكاد تضيع برمتها... وعلى

الرغم من هذا الواقع البائس فإننا نرى أن المقاومة ستبقى الطقس المختزن في داخل كل فرد فلسطيني وعربي وسيظل ألقها متأججاً، تراجعها الذاكرة العربية في أزمات الشدة منذ اليبوسيين إلى ثورة البراق ثم انتفاضة الحجارة .... حتى اليوم. إنها المعادل الوجودي للحياة في الرَّدّ على كل حيل الصهاينة وغدرهم ووحشيتهم في قتل الآخر واغتصابهم للأرض ... فالضحية العربية لا تعيش مع المفترس الصهيوني.

وفي ضوء ذلك كله ينبغي أن نؤسس لثقافة المقاومة بكل أشكالها المادية والمعنوية، من أجل تحقيق مشروع ثقافة السلام المتسامحة التي نشأت عليها الأمة، على اعتبار أن ثقافة المقاومة استجابة إنسانية تظهر بتجليات متعددة تعبر عن وعي الإنسان بالتاريخ وبالواقع المعيش، والموضوعي فضلاً عن وعيه بالذات الإنسانية. وهذا ما يعالجه ***الفصل الرابع*** بعنوان ( ***ثقافة المقاومة بين السلام والاستسلام***)؛ وأول ما يظهر لنا من تجليات الثقافة الوطنية والقومية والإنسانية أن ثقافة المقاومة هي التي تستجيب للتحديات المفروضة على الشعوب والدول. وهي مقاومة تستند إلى الإرادة والوعي والصدق والقوة، ما يجعلها تقف في وجه كل من يستبيح قيم الحق والعدالة ويستهين بالإنسان وحقوقه وكرامته باعتبارها موقفاً نضالياً وأسلوباً دفاعياً عن الذات والوجود والهوية والثقافة. ومن ثم فهي تجسد رسالة الإنسان في تأسيس مبدأ الحق والخير والسّيادة لمحاربة الاغتصاب والاعتداء والقهر والإهانة؛ أي إنها ثقافة أمة تعبر عن مصالح أبنائها وتستند إلى الثقة بالذات في الوقت الذي تنفتح على المثاقفة مع الآخر دون أن تصاب بالاستلاب، والاستنساخ والتبعية.... وهنا يكمن القصد، وإليه يتجه البحث، لنعرف أين تقع ثقافة السلام والاستسلام من ثقافة المقاومة بوجوهها السلمية أو المدنية، ولاسيما أن كثيراً من أبناء الأمة لم يعد يحتفي بمفاهيم الجهاد والنضال والتضحية بالنفس والشهادة؟!!. فقد أصبح الحديث عن المثل العربي المشهور (اطلب الموت توهب لك الحياة) مدعاة للتندّر، وأضحى الشهيد والفدائي في زعم عدد من الناس انتحارياً إرهابياً لا يريد إلا قتل الأبرياء.

ولعل ذلك كله فرض علينا أن نتحدث عن عملية السلام في المنطقة؛ ثم أتبعناه بالكلام على مفهوم السلام الاستسلام والفرق بينهما في ضوء ما يجري

من أحداث ورؤى تجتاح الأمة العربية، ليستقر الفصل الرابع عند شرح حقيقة (سقوط الأسطورة الصهيونية) على يد المقاومة الوطنية اللبنانية البطلة بقيادة حزب الله.

وإذا كنا قد اعتمدنا المنهج التاريخي الموضوعي في معالجة موضوعاتنا فإننا ذهبنا إلى قراءة (المقاومة: التاريخ والواقع والمستقبل) محللين الحدث؛ طبيعة ووظيفة وغاية، داخلياً وخارجياً، ساعين إلى تحقيق الوعي بما يحيط بنا، مستشرفين كيفية بناء الرؤى الشاملة والصادقة لبناء مستقبل أمتنا؛ سيدة كريمة موحدة.

ولست أشك لحظة واحدة في أننا أفدنا من الدراسات الكثيرة التي تناولت موضوع المقاومة، بيد أنها لم تقل الكلمة الأخيرة فيه؛ ما يشي بأن محاولتنا ستنضم إلى تلك الدراسات لتقول كلمتها، ولعلها تحقق الهدف المرجو لها، وإذا وقعنا في الزيغ أو النقص، فلنا من إرشاداتك ــ أخي القارئ ــ ما يقوّم ذلك.

**والله من وراء القصد**

**حسين جمعة**

ـــ

# الفصل الأول:

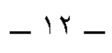
## فكرة الجهاد بين الآباء والأبناء

١ ـ مدخل.

٢ ـ تأثيل فكرة القتال عند العرب.

٣ ـ فكرة الجهاد في العقيدة الإسلامية.

٤ ـ نماذج من الأدب والتاريخ الإسلامي.



# فكرة الجهاد بين الآباء والأبناء

## ـ قراءة موضوعية لصور من التاريخ والأدب القديم ـ

### ١ ـ مدخل:

لما كانت الأمة العربية قد عاشت حالة التحرر من الأجنبي نحو منتصف القرن العشرين، ثم عاشت مرحلة الاستقلال بعده..فإننا نرى أنها تعيش اليوم ــ وهي على مشارف نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وبخاصة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول لعام ٢٠٠١م ــ حالة من الضياع في الهوية والمفاهيم والثوابت الأصيلة في القيم والعادات.... فالمفاهيم الفكرية والثقافية تعاني أزمة حقيقية على مستوى أبناء الأمة جميعاً، ولا سيما مفكريها ومثقفيها وقادتها... بعد أن مرّت بحالات من النهوض الحيوي للقضاء على التجزئة والتخلف والفقر والقهر...

ولعل أشدّ أزمة تحيق بنا ما يتعلق بمفاهيم الكفاح الوطني والقومي للتحرر من ذلّ القيد، واستعباد الآخر الغربي والصهيوني للنفس والأرض والشجر...

ويبدو أن دعوى الغرب الأمريكي الصهيوني، وغير قليل من الأوروبيين شرعت تلاقي قبولاً في نفوس بعض أبناء العرب والمسلمين... ولا سيما ذوي النفوذ والفكر... ومن ثم طفقوا يغيرون في طبيعة مناهج التربية والتعليم بزعم قبول الآخر الغربي والانفتاح عليه، والانسجام مع الحضارة الحديثة... ثم وصل الأمر إلى مادة التربية الإسلامية ومناهجها ومفرداتها، فوجهت نحو ذلك الهدف في عدد من الأقطار العربية كما هو حال الجزائر التي أصدرت القوانين لذلك.

ومن ثم بدأنا نغير أنفسنا ومناهجنا وتاريخنا استجابة لرغبة الآخر الغربي أو لضغوطه؛ بل شرعنا نحاكم عقيدتنا ومفاهيمنا وثوابتنا.... من دون وعي ــ وربما بوعي وتصميم ــ وصرنا نبدل معطيات الفكر الثقافي وأصوله التاريخية

الإنسانية... فالجهاد ــ عقيدة ومبدأ ــ لم يكن عند العرب يوماً وسيلة للقتل والاعتداء على الآخر وقهره وإذلاله واستعباده؛ وكل مثقف منصف يدرك أن فكرة الجهاد اتجهت اتجاهاً إنسانياً حين اتسعت دلالاتها في العصر الإسلامي، وغدت دعوة خَيِّرة للآخر؛ لانتشاله من وهدة الشرك والكفر وعبادة الأصنام إلى رحابة الوحدانية والإيمان والتعبد لله الواحد القهَّار... إنها دعوة قائمة على الحوار، ومن ثم القبول أو الرفض الطوعي بعكس ما نجده في التوراة والتلمود وعند الغرب القديم والحديث...

لهذا كان لا بد من تأثيل فكرة القتال عند العرب منذ أن وجد الجنس العربي، بكل تصنيفاته أو تسمياته، ولابد من الإشارة السريعة إلى منازله التي نزل بها، وتكثيف معرفة تفاعله مع الآخر الفُرْسي أو الرومي... وتقبله له على الرغم من مجيئه في العصر الجاهلي غازياً معتدياً قاتلاً للعربي غاصباً لأرضه؛ منشئاً عليها إمبراطوريته... ومن ثم لابدّ من معرفة حقيقة مفهوم الجهاد بالنفس والمال في العقيدة الإسلامية وتقديم عدد من صوره الأدبية في إطار من الأحداث التاريخية.

**٢ ـ تأثيل فكرة القتال عند العرب:**

لم يستعمل مصطلح (الجهاد) في العصور التاريخية القديمة أو في العصر الجاهلي وفق مفهومه الإسلامي، ولكن الأحداث التاريخية للمجتمع العربي القديم أصّلت للحقل الدلالي لمفهوم القتال بنزوعه الإنساني الوجودي. ولذا ليس من مهمات هذا الفصل أن يستفيض بالحديث عن المجتمع العربي القديم والمواطن التي استقر بها منذ فجر التاريخ باعتبارها مواطن عربية من اليمن إلى ديار بكر في تركيا ــ اليوم ــ فهناك عدد غير قليل من المؤلفات القديمة والحديثة قد تصدت لهذه المسألة...

ومن يرجع إلى تاريخ حلب أو حمص أو حماة أو أريحا أو دمشق ــ مثلاً ــ[1]، يدرك اتصال الجنس العربي في الأراضي التي سكن فيها على اختلاف التسميات. فأرضه أرض أولئك الأجداد الأوائل من البابليين والسومريين والأكاديين والآراميين والفينيقيين، والكنعانيين والأنباط والحثيين و... ثم جُرْهُم والعَمَاليق الذين نزلوها قبيل العصر الجاهلي، إلى أن نزلتها القبائل العربية من

---

[1] *انظر: معجم البلدان (تبعاً لكل بلد).*

إياد والغساسنة والمناذرة وقيس وبكر وتغلب وكلب وتنوخ و... وفي أسفار التوراة ما يوضح أن يوشع بن نون غزا بعض العرب وانتزعهم من مدنهم الجنوبية مثل أريحا في فلسطين. وقد زور الأحبار كثيراً من الأخبار في سفر يوشع من الكتاب المقدس، فذهبوا إلى أن يوشع بن نون (ت ١١٨٦ ق.م) غزا جنوب بلاد الشام وما حولها وطرد أهلها منها تحت مظلة دعوة الأمر الإلهي لقومه... حيث يقول: "بهذا تعلمون أن الله الحي في وسطكم وطراداً يطرد من أمامكم الكنعانيين والحثيين والحوريين والفرزيين والجرْجاشيين والآموريين واليبوسيين"[١]،... ولما هاجم مدينة أريحا مفاجئاً إياها احتلها واستباحها لسبعة أيام؛ بعد أن "هدمها وقتل أهلها جميعهم لم يترك شيخاً ولا طفلاً رضيعاً ولا شاباً ولا امرأة؛ فسالت الدماء أنهاراً. ثم تابع زحفه على بقية مدن فلسطين يعمل السيف والقتل والتدمير"[٢]. وعلى شكنا في صحة الخبر وصاحبه أصلاً، لكن من لفّقه يثبت أن قتل اليهود للعرب مباح ومشروع، ولا يعيب اليهود أن يوصفوا بالوحشية والهمجية من أجل سرقة أرض الآخر المغاير؛ وقتله. وهذا مؤيد في الإصحاح السادس من سفر يشوع؛ إذ كانت المدينة كلها مستباحة لرّب يشوع ما عدا (راحاب) الزانية التي ساعدت جواسيسه على احتلالها. فهي وحدها التي تستحق الحياة[٣]، مكافأة لها على خيانة بني جنسها العماليق الذين أبيدوا في مجازر همجية... وهي مجازر مقصودة لإرهاب الجنس العربي، ولذلك اجتمع العرب كما يثبت السفر نفسه لرد بطش يشوع عنهم حيث جاء فيه: "ولما سمع جميع الملوك في الجبل وفي السهل وفي كل ساحل البحر الكبير إلى جهة لبنان: الحثيون والآموريون والكنعانيون والفرزّيون والحوريون واليبوسيون اجتمعوا معاً لمحاربة يشوع وإسرائيل بصوت واحد"[٤]. فهذا الخبر يثبت أن القبائل العربية القديمة تنادت إلى الوحدة ولمّ الشمل لدرء الموت عن أنفسها. وما أشبه الليلة بالبارحة فالصهاينة اليوم يمارسون الفعل نفسه مع العرب.

---

[1] *الكتاب المقدس: سفر يشوع، إصحاح ٣ ــ ص ٢٤٠.*
[2] *تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ٢٠؛ وانظر المصدر السابق، إصحاح ٦، ص ٢٤٥.*
[3] *انظر المصدر السابق، إصحاح ٦، ص ٢٤٥. ومعجم البلدان (أريحا ــ حلب).*
[4] *المصدر السابق، إصحاح ٩، ص ٢٥٠.*

ثم يزعم الإصحاح الثاني عشر من سفر يشوع تغلّب بني إسرائيل على تلك القبائل، إذ امتد نفوذ بني إسرائيل إلى كل أرض عربية، فاحتلوها بالقوة؛ ذاكراً (العربة) تصريحاً، وهو جمع آخر للعرب. "وهؤلاء هم ملوك الأرض الذين ضربهم بنو إسرائيل وامتلكوا أرضهم نحو شروق الشمس من وادي أرنون إلى جبل حرمون وكل العربة نحو الشروق"[١]. وإذا كنا نشك في صحة ذلك كله؛ على اعتبار أن التاريخ الموثّق ينفيه؛ فإننا نستدل من تزوير الأحبار له على بشاعة فعلهم؛ حين يفضّلون تصوير قادتهم بهذه الوحشية. وهذا عكس ما بنيت عليه الثقافة العربية منذ القديم، فكلنا نقرأ في شريعة (حمورابي) أن العين بالعين والسن بالسن، وكذلك نقرأ في تراث العرب الجاهليين أن القتل أنفى للقتل... ومن ثم تبنى الإسلام ذلك وشجَّع على العفو والتسامح مع الآخر المغاير لقوله تعالى: (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدّق به فهو كفّارة له) (المائدة ٥/٤٥)...

فالعرب منذ فجر تاريخهم جعلوا مبدأ قتال الآخر دفاعاً عن الذات وكينونة الأرض والوجود بينما اليهود ــ ومن يساندهم، قديماً وحديثاً ــ امتهنوا مهنة القتل وغزو الشعوب واحتلال أراضيها؛ وكانوا يمارسون قتل الأغيار أو ما يعرف بالغوييم بكل بشاعة و حقد... والأعجب من هذه الممارسة الوحشية أنهم يعتقدون بأن فعلهم مبارك من إلههم إله الحرب المتعطش إلى الدماء دائماً وأبداً... وهم ما زالوا يعمدون إلى هذه المفاهيم لتأصيلها بين أبنائهم من جهة؛ ولجعلها فعلاً استباقياً ذا أهداف عديدة من جهة أخرى...

وكيفما كان بطش بني إسرائيل وهمجيتهم، وأياً كان الزمن الذي مكث فيه الفرس أو الروم في الأرض العربية في الزمن القديم فإن أبناء العرب ظلوا فيها لم يفكروا لحظة واحدة في مغادرتها وإن سامهم الغازي أشد أنواع القهر والذل والعبودية... ثم أثبت التاريخ أن ديار بكر لم يتغير اسمها[٢]، ولا تغير اسم حلب والجزيرة العليا أو السفلى، وظل للحرمون شرفه وكبرياؤه وللبنان ألقه... فكنا نجد قبائل بكر وإياد وعبد القيس وآل نصر وطيء وقضاعة... وتغلب وبني مُرَّة ولخم وتنوخ والغساسنة وغيرهم في العراق وبلاد الشام... بينما تمتد عاملة إلى مصر

---

[1] *المصدر السابق، إصحاح ١٢، ص ٢٥٧.*

[2] *أنظر معجم البلدان، (ديار بكر).*

وإفريقية... ثم تتوالى الموجات العربية إليها على مرّ الزمان ساكنة فيها، متشبثة بالدفاع عنها...

ولهذا لم يستطع سابور الجنود بن أَرْدَشير ولا أكاسرة الفرس أن يغيروا هوية الأرض العربية في العراق والبحرين... على الرغم من أن سابوراً قد استطاع قتل ملك قُضاعة (الضَّيْزن) مع مئة ألف منها، وهدّم قصر (الحَضْر)، ثم أفنى قبائل كثيرة...

وفي ذلك يقول الجديُّ بن الدلهاث[1]:

| | |
|---|---|
| ألم يحزنك والأنباء تَنْمي | بما لاقت سَراةُ بني العبيد |
| ومقتل ضَيْزن وبني أبيه | وإخلاء القبائل من تزيد؟! |

فالقبائل العربية منذ القديم كانت تعرف بمنازلها الخاصة بها، لا تبرحها إلا طلباً للماء والكلأ، ولكنها سرعان ما تعود إليها، كما نستشفه من قصيدة الأخنس بن شهاب، ومطلعها[2]:

| | |
|---|---|
| لكل أُناسٍ من مَعَدّ عمارةٌ | عَرُوضٌ إليها يَلجؤونَ وجانِبُ |
| لكَيْزٌ لها البَحْرَانِ والسِّيفُ كُلُّهُ | وإنْ يأتِهَا بأسٌ منَ الهنْدِ كارِبُ |
| وبكْرٌ لها ظَهْرُ العِرَاقِ وإنْ تَشَأْ | يَحُلْ دُونَها منَ اليمامَةِ حاجبُ |
| وصارتْ تَميمٌ بينَ قُفٍّ ورَمْلَة | لها منْ حبالٍ مُنْتَأًى ومذَاهِبُ |
| وكَلْبٌ لها خَبْتٌ فَرَمْلَةُ عَالجٍ | إلى الْحَرَّةِ الرَّجْلاَءِ حَيثُ تُحارِبُ |
| وغَسَّانُ حَيٌّ عِزُّهُمْ في سِواهُمُ | يُجَالِدُ عَنْهمْ مِقْنَبٌ وكتَائبُ |
| وبَهْرَاءُ حَيٌّ قد عَلِمْنا مكانَهمْ | لهم شَرَكٌ حَوْلَ الرُّصافَةِ لاَحِبُ |
| وغارتْ إيَادٌ في السَّوَادِ ودُونَها | بَرَازِيقُ عُجْمٌ تَبْتَغي مَنْ تُضَارِبُ |
| ولَخْمٌ مُلُوكُ النَّاسِ يُجْبَى إلَيْهُمُ | إذَا قالَ منهم قائلٌ فَهْوَ واجِبُ |

فديار مضر تمتد إلى شرقي الفرات نحو حرّان والرقة وشمشاط[3]، أما ديار مذحج فهي في اليمن، والأزد في عمان... وإذا ما انتقلت قبيلة ونزلت

---

[1] *انظر معجم البلدان، (حضر).*

[2] *انظر القصيدة كاملة في المفضليات ١٩٣ ــ ١٩٤، وراجع الحيوان في الشعر الجاهلي ٢١.*

[3] *انظر معجم البلدان، (ديار مضر).*

بجوار الأخرى اختلط أبناء القبائل وتعرف كل واحد إلى الآخر، فشاعت لديها ظاهرة الخليط التي عبّر عنها الشعر الجاهلي بكثرة، كما نجده في قول زهير(١):

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزودوك اشتياقاً أية سلكوا

ولما قوَّت حياة التبدي مفهوم العصبية القبلية فقد عززت في الوقت نفسه قيم الشرف والحرية والشجاعة والمروءة والنجدة والتسامح والكرم... ولا مكان للجبان الضعيف والبخيل اللئيم... لهذا نفرَ العرب من الظلم والقهر، وكرهوهما وتنادوا إلى حماية الذات القبلية الجماعية، ولو كان لأحدهم رأي مخالف للجماعة؛ كما نفهمه من قول دريد بن الصمة(٢):

وما أنا إلا من غَزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشُدِ

فالقبيلة بكل أبنائها رجالاً ونساءً، شيوخاً وشباناً يشبون على حب القبيلة والتمسك بقيمها، ويتدرب الفرسان منهم لملاقاة كل معتدٍ يفكر بالنيل منهم؛ كما نستشفه من قول طفيل الغنوي(٣):

وفينا ترى الطُّولى وكل سَمَيْدعٍ مدرّب حرب وابن كل مدّرب

فكل من تسول له نفسه بالاعتداء على القبيلة، والجهل عليها سيلقى العقاب الذي يستحقه كما يقول عمرو بن كلثوم(٤):

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فالعربي في ذاته كاره للذل والقهر والاستبداد، وهو يرى أن القبيلة ملاذ للحرية والانعتاق، ولكنها لم تكن ــ يوماً ــ مسلطة على القبائل الأخرى مهما كانت قوتها... والدفاع عنها شرف للآباء والأبناء، ولا يرضى بالذل إلا الأذلان (الوتد والحمار الأهلي) كما يقول الشاعر المُتلمّس(٥):

ولن يقيم على خسفٍ يُسام به إلا الأذلاّن عَيْرُ الأهل والوتد

---

(1) *شعر زهير بن أبي سلمى ٧٨.*
(2) *ديوان دريد بن الصمة، ٦٢.*
(3) *ديوان طفيل الغنوي ٢٠، وانظر الحيوان في الشعر الجاهلي ٣٢.*
(4) *ديوان عمرو بن كلثوم، ١٠١.*
(5) *ديوان المتلمس، ٢٠٣ ــ ٢١١، وانظر الحيوان في الشعر الجاهلي ٣٢.*

هذا على الخسف مربوط برمّته وذا يشجُّ فما يرثي لــه أحد

فالعربي أياً كان انتماؤه القبلي، ومهما كانت قوة قومه وكثرة عددهم لم يجعل قدرته سبباً لغزو الآخر المغاير والاعتداء عليه، وإيذاء البريء وترويع الآمنين والأبرياء؛ إذا استثنينا اللصوص وشذاذ الآفاق من الصعاليك والخُلَعاء... بل إن من تمام شرف العربي وكمال مروءته أن يغفر عمن أساء إليه وظلمه كما نلمسه في قول ذي الأُصبع العدواني[1]:

قوم إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زُرافاتٍ ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

لكن قومي وإن كانوا ذوي عددٍ ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً ومن إساءة أهل السوء إحسانا

فالجاهلية ــ بكل ما فيها من أنظمة قبلية وصراعات طبيعية فرضها مفهوم البقاء في أرض قليلة الموارد، شحيحة الأمطار، حتى سمي المطر غيثاً، لأنه يغيث الأرض والحجر والشجر والحيوان والبشر ــ لم تكن لتلغي من نفوس أبنائها الروح الإنسانية في التعامل وتقديس حرية الآخر والمحافظة على حياته إذا ما هددها مَوْتور أو خارج عن القانون... لهذا اتفقوا جميعاً على عدم قبول الخليع الذي تخلعه قبيلته لجرائره الكثيرة عليها[2]. وكان لهم موقف مشابه من الصعاليك اللصوص، وهو موقف يختلف عمّا نشأ عندهم من مفاهيم الإغاثة وإنشاء الأحلاف لدفع الأذى والظلم عن الذات... وإذا ما هددهم عدو خارجي تسارعوا إلى جمع الصفوف لردّ عدوانه عنهم كما كان أجدادهم من قبل... وقد يكون الأعشى من أفضل من عبّر عن ذلك في قصيدة له يذكر فيها غزو جنود كسرى للعرب في يوم ذي قار، ومما جاء فيها[3]:

وجُندُ كسرى غداة الحِنْو صبحهم منا كتائب تزجي الموت فانصرفوا

وخيلُ بكر فما تنفك تطحنهم حتى تولّوا وكاد اليوم ينتصفُ

---

[1] ديوان الحماسة، لأبي تمام، ٤ ــ ٥.

[2] انظر: الأغاني ١٣/٣ وبعدها، وديوان الشنفرى، ٥٧ ــ ٦٨ ولسان العرب ــ خلع ــ.

[3] ديوان الأعشى، ٢٤٠ ــ ٢٤١.

لو أن كُلَّ معدٍّ كان شاركنا        في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف

وبهذا كله أقام الأدب حواراً نوعياً متميزاً ودقيقاً عَبَّر عن النزوع الإنساني الحرّ في نفس العربي وقيمه... وأكد دعمه للوثائق التاريخية التي تعزز مفهوم التضحية والبطولة السامية والنبيلة باعتبارها دفاعاً عن الذات وحماية لكينونة الوجود؛ وتطلعاً إلى عيش حر كريم... فقتال العرب للآخر المناقض لهم أياً كان جنسه لم يكن هدفاً لهم؛ وإنما وقع في كل مرة رداً على عدوان مستفحل جاء ليستأصلهم من أرضهم ويذل شرفهم. فالعرب ما كانوا يقاتلون الآخر حباً في القتال ولكنهم كانوا يدفعون القتل عنهم.

وإذا كانت كل صورة أدبية قد نقلتنا إلى رحاب الرفعة والسمو في إطار تعزيز الوجود والتفاعل الإنساني المشترك عند العرب فإنها أكدت في آن معاً أن ملامح التغيير الفكري والاجتماعي لمفهوم الغزو أو القتال كانت تميل إلى احترام الآخر؛ وإنصافه. ولهذا ولد عند العرب الجاهليين شعر فريد ومتميز قيل لــه: "شعر المنصفات" أنصفوا فيه خصومهم أحياء وقتلى ووصفهم الشعراء بمثل ما وصفوا قومهم في نزوع إنساني راقٍ[1].

ولهذا كله فإن فكرة الغزو/ الاقتتال منذ الأزل عند العرب لم تكن لتلغي من نفوسهم قيم الخير، والشهامة والمحبة؛ إذ لم يكن قتالهم تهديداً للآخر المغاير واستئصالاً لــه ــ وإن كان من أجل البقاء وإنما كان دفاعاً عن الذات... ثم إن الخطاب الأدبي ظل يرسي في النفس البشرية توجهاً اجتماعياً متحضراً، ونزوعاً أخلاقياً سامياً... وقد برز هذا ــ مثلاً ــ في قول عمرو بن كلثوم في خطابه لتلك المرأة التي فارقته بسبب قتال قومها لقومه... حين نشبت الخلافات بينهم على الماء والكلأ. فقد ظل متمسكاً بها محباً لها، معترفاً بقدرة فرسان قومها؛ فعرضَ لهم منصفاً لشجاعتهم في معركة شديدة اختلطت فيها السيوف والرماح... فهو على شدة عصبيته لقومه لم يكن ليستخف بالآخر، لهذا يقول[2]:

قفي قبل التفرّق يا ظعينا        نخبرك اليقين وتخبرينا

بيوم كريهةٍ طعناً وضرباً        أقرَّ به مواليك العيونا

---

[1] *انظر: قصيدة الرثاء، جذور وأطوار، ٢٣٧ وما بعدها.*

[2] *ديوان عمرو بن كلثوم، ٧٨، مواليك: أراد أبناء قبيلتها وعمها.*

فالقتال في العصور الجاهلية القديمة والمتأخرة عند العرب لم يكن نيلاً من حرية الآخر وانتمائه وشرفه... على الأغلب، وإنما كان وسيلة لا بد منها للدفاع عن الذات والقبيلة... وكان الشعراء يعمقون هذه الرؤية وينقلونها إلى الأجيال المتعاقبة لتشكيل رؤاهم الفكرية والإنسانية الثابتة لقيم القتال والغزو عندهم... فقيم الغزو تستند إلى روح إنسانية عالية؛ وإن شابها قلق وتشويه في ممارسة بعض الخارجين عن القانون المتعارف إليه بين القبائل؛ لكن هذا الفعل لم يكن عاماً فيهم... ولو كان عاماً لما بقي وجود لأكثر أبنائها، ولمَّا جاء الإسلام غدا القتال فضيلة يثاب عليها المرء في الدنيا والآخرة باعتباره تحقيقاً للوجود الإنساني ومنافحة عن العقيدة.

ولعل هذا كله ينقلنا إلى فكرة الجهاد في العقيدة الإسلامية؛ وهي فكرة تستمد كثيراً من اتجاهاتها الإنسانية مما كان عند العرب من قبل...

**٣ ـ فكرة الجهاد في العقيدة الإسلامية:**

تكثفت فكرة قتال الآخر بالنفس في العقيدة الإسلامية بمفاهيم روحية جديدة ولاسيما حين اتسعت صورها ودلالتها، وأصبحت جزءاً من فكرة الجهاد. وظل الفرع الأعلى فيها تحرير النفس والإنسان من وهدة الشرك والجهل والتخلف والقهر والظلم... والأخذ به إلى رحاب الوحدانية الإلهية وعبودية الله تعالى لا عبودية الأفراد والأصنام... وبخاصة حين ارتبطت بقيم الشهادة والمروءة...

وبهذا التصور لم تعد فكرة الجهاد مجرّد رؤية كونية وجودية كما كانت من قبل، بل ارتفعت لتصبح فعلاً سامياً روحياً خلّاقاً، ونزوعاً إنسانياً تحريرياً على الصعيد الفردي والجماعي... فالجهاد ــ المشتق من الجَهْد ــ والذي يعني القتال بالنفس والتضحية بها أخذ يقترن ببذل المال؛ ثم صار الجهاد بالمال نظير الجهاد بالنفس؛ وكلاهما أصبح فرعاً من الجهاد في سبيل الله... ولذا ***فالجهاد "محاربة الأعداء... واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل"[1] مثل بذل المال دون أن يسأل عنه الناس؛ وإخلاص النية في ذلك كله، أي أن يكون عمله لله.***

وهذا التعريف يشمل القتال بالنفس والمال في سبيل المبدأ أو العقيدة، وهو ما أُطلق عليه الجهاد الأصغر؛ أما الجهاد الأكبر فإنما هو جهاد النفس لتخليصها

---

[1] *لسان العرب، (جهد).*

من أوزارها وآثامها، وتحريرها من ظلمها وشهواتها، ومن ثم علينا استكمال الحديث عن شروط الجهاد كلها؛ نية وإعداداً في القول والفعل.

ولا بد لنا ــ قبل أن نتحدث عن أنواع الجهاد في الإسلام، لنبرز فيها مفهوم الجهاد بالنفس في ذهن المفكرين والأدباء ــ من أن نتوقف عند مفهومه التاريخي في العقيدة ذاتها.

فالإسلام لم يفرض الجهاد حباً بالقتل وإراقة الدماء وترويعاً للآمنين كما وجدناه عند يوشع بن نون وغيره من الرموز التي وردت في التوراة وإنما فرضه الإسلام لإعلاء كرامة الإنسان وإرساء حريته في الأرض. ومن ثم كرّم الإنسان لقولـــه تعالى:(ولقد كرّمنا بني آدم) (الإسراء ٧٠/١٧). فهو مكرّم بأمر إلهي مهما كان جنسه ودينه، لأن الناس متساوون في الخلق والطبيعة الآدمية (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة) (النساء ١/٤). وفي الحديث الشريف: [كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب][١].

فالله خلق الإنسان، علمه البيان، وميّزه بالعقيدة والتقوى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات ١٣/٤٩). وقال النبي الكريم في حجة الوداع: [أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب؛ أكرمكم عند الله أتقاكم؛ وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلّغت؟ اللهم أشهد قالوا: نعم. قال فليبلغ الشاهد الغائب][٢].

فالإسلام آمن بالمساواة، ودعا إلى الحق والعدل واحترام الإنسان في كل زمان ومكان، إذ وهبه الله ــ سبحانه ــ العقل ليميز به الخير من الشر ويختار بينهما ليكون مسؤولاً عن عمله، وترك له حرية الاعتقاد (لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي) (البقرة ٢٥٦/٢)...

ولهذا ربط الله ــ سبحانه ــ اختيار الإنسان للعقيدة الإسلامية بإرادته ورغبته؛ فهو حرٌّ عاقل عالم بالحق... (إن الدين عند الله الإسلام، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم...) (آل عمران ١٩/٣).

---

[1] *الجامع الصغير من حديث البشير النذير، ٢٤٣/٢ رقم الحديث ٦٣٦٨.*

[2] *جمهرة خطب العرب، ١٥٧/١.*

فالروح الإنسانية الحضارية في الدعوة إلى الإسلام تجسد فاعلية الارتقاء بنوازع الإنسان وحريته في اختيار عقيدته، والحوار بين المسلم والآخر قائم على أساس المساواة لقوله تعالى: (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) (سبأ ٣٤/٢٤)... لهذا دعا ـــ عزّ وجلّ ـــ المسلم إلى محاورة الآخر المشرك والمغاير بكل لين ومحبة وفق الأمر الإلهي: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن؛ إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين* وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) (النحل ١٦/١٢٥ ـــ ١٢٦).

فهذه النصوص تؤصل للحوار مع الآخر لإرشاده وتعليمه لا لقتاله، أو الاعتداء عليه مهما كان الخلاف كبيراً، لأن الله سبحانه رغّب في الصبر والعفو والتسامح، بمثل ما حض المؤمن على الاستقامة وعدم الانجرار وراء أهواء الآخر (فادع، واستقم كما أُمرت، ولا تتبع أهواءهم) (الشورى ٤٢/١٥).

وشدّد الإسلام على معاملة الآخرين بالحسنى قولاً وفعلاً (وقولوا للناس حسناً) (البقرة ٢/٨٣)، وأمر الله كل مسلم أن يتقبّل الآخر المشرك ويؤمنه على حياته، بل هو في حمايته حتى يبلغ مأمنه بسلام: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) (التوبة ٩/٦).

فالرؤية الإسلامية لاعتناق الإسلام لم تقم على أساس الإكراه والقهر، وإنما هي دعوة روحية سامية إلى التوحيد والإيمان به دون عنف أو إيذاء باللسان واليد. ولا شيء أدّل على هذا مما تقدم ومن قوله تعالى: (قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) (يونس ١٠/١٠٤) ويؤكده قولـــه: (قل يا أيها الكافرون* لا أعبد ما تعبدون* ولا أنتم عابدون ما أعبد* لكم دينكم ولي دين) (الكافرون ١٠٩/١ ـــ ٣ و٦).

ولهذا فإن الناس جميعاً متساوون في مفهوم العقيدة الإسلامية بالإنسانية؛ والطبيعة البشرية، وإن لم يتساووا في الدين والإيمان والأخلاق. وهذا التساوي منع كل مسلم أن يظلم الآخر أو يعتدي عليه؛ وحرّم قتله؛ فجعله قتلاً للناس جميعاً (ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق) (الأنعام ٦/١٥١) و (من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما

أحيا الناس جميعاً) (المائدة ٥/٣٢)[١]. وقال رسول الله (ε): [من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة][٢]؛ وشدّد على معاملة الناس المعاهدين بكل حب واحترام وأنذر قاتلهم بنار جهنم [من قتل نفساً معاهداً لم يَرِح رائحة الجنة][٣] أي لم يشم رائحتها.

ولما نهى عن التظالم بين الناس وقتل بعضهم بعضاً، فإنه نهى عن ظلم الإنسان لنفسه ومحاولة التخلص من حياته؛ لقوله تعالى: (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) (النساء ٤/٢٩)[٤]. فقاتل نفسه في النار؛ كما ورد في الحديث الشريف: [ومن قتل نفسه بحديدة عذب به في نار جهنم][٥] و[الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعنها يطعنها في النار][٦]. فقتل النفس من الكبائر السبع[٧].

فالإنسان مسؤول عن إعمار الأرض ورعايتها بالنور والهداية، وحياته مكرمة مصونة في الإسلام لا يجوز أن يتهددها بالأذى والقتل ولا أن يعتدي على أخيه الإنسان، ويقتله، تحت أي ذريعة كانت.

وبناء على ذلك كله يتساءل المرء: لماذا فرض القتال في الإسلام؛ ولماذا دعا إلى مفهوم الجهاد وربطه بالشهادة وجعل جزاءه الجنة؟ ألم يكن الجهاد في سبيل الله وسيلة لقتل الآخر؟!

والإجابة على ذلك طويلة يمكن أن نوجزها بإشارات سريعة إلى الأصول التي بُني عليها الجهاد. فمن يرجع إلى النص القرآني وأسباب نزوله، أو إلى السيرة النبوية الشريفة يدرك بوضوح أن المصطفى (عليه السلام) "لم يؤذن له في الحرب، ولم تحلل له الدماء، إنما كان يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل. وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم؛ ونفوهم من بلادهم، فهم من بين مفتون في

---

[1] *انظر: صحيح البخاري ٧/٢١٨ و٩/٣ وبعد.*
[2] *الجامع الصغير، ٢/٤٧٣، رقم الحديث، ٨٢٧٠.*
[3] *صحيح البخاري، ٩/١٦. وانظر: الجامع الصغير، ٢/٥٤٤، رقم الحديث ٨٩١٢.*
[4] *انظر: صحيح البخاري، ٥/٥٧، و٩/٣.*
[5] *صحيح البخاري، ٢/١٢٠.*
[6] *صحيح البخاري، ٢/٢١ وانظر فيه ٨/١٥٤ ـــ ١٥٥.*
[7] *انظر: الجامع الصغير، ٢/٢٥٤، رقم الحديث ٦٤٤٩ ـــ ٦٤٥٠ و٦٤٥٢.*

دينه، ومن بين معذب في أيديهم، وبين هارب من البلاد فراراً من الأذى؛ منهم من كان بأرض الحبشة، ومنهم من كان بالمدينة؛ ومنهم من اتجه إلى أمكنة أخرى. ومن ثم فقد عتت قريش على الله ــ عز وجل ــ ورسوله والمسلمين فكان توجيه الله لرسوله (ع) في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم. فكانت أول آية نزلت في إذنه"[1] (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) (الحج ٣٩/٢٢).

هكذا فرض القتال بعد بيعة العقبة الآخرة[2] دفاعاً عن النفس ورداً للبغي والقهر، لقد فرض وهو كره لهم لقوله تعالى: (كتب عليكم القتال وهو كره لكم...) (البقرة ٢١٦/٢).. ولهذا لم يجز الله القتال إلا رداً لعدوان الآخر المحارب أياً كان جنسه أو لونه، أو زمانه، ومنع الابتداء بالعدوان لقوله تعالى: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين* واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين) (البقرة ١٩٠/٢ ــ ١٩١).

فالإسلام فرض على المسلمين قتال الآخر المعتدي الظالم الذي لا يعرف حقاً ولا ذمة؛... وعلى الرغم من هذا فقد حضَّهم على السلم وإيقاف القتال إذا ما ثاب الآخر المحارب لرشده، لقوله تعالى: (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) (النساء ٩٠/٤).

ثم إن الجهاد أمر إلهي لإحقاق الحق والدفاع عن الذات منذ عهد إبراهيم (عليه السلام) (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) (الحج٧٨/٢٢).. لهذا أمر الله نبيه محمداً بجهاد الكفار والمنافقين لما لقيه من أذاهم وظلمهم: (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين، واغلظ عليهم) (التوبة ٧٣/٩).

وهكذا فقتال الآخر المحارب ــ وهو الذي اصطلح عليه في الإسلام باسم الجهاد ــ ليس بدعة في الإسلام، وهو مؤسس في الديانات السماوية كلها دفاعاً عن الذات والوجود لقوله تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم

---

[1] *انظر: صحيح البخاري، ٥٦/٥، ٦٥.*

[2] *انظر السيرة النبوية ٩٧/٢ و١١٠ ــ ١١١ و٢٦٧ ومجموعة الوثائق السياسية ٤٩.*

بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل..) (التوبة ٩/١١١).

لهذا كله أمر الله عباده بإعداد العدة للحرب اتقاء لشر العدو (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون* وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) (الأنفال ٨/٦٠ ــ ٦١).

ومن هنا جُعل الجهاد سبباً لردع الآخر المحارب ووقاية لخطره حين أمر ــ سبحانه ــ بإعداد العدّة القتالية، وتدريب الفرسان لتخويف العدو المحارب منعاً من أن تسوّل له نفسه بالنَيْل منهم. وهذا يعني أن مصطلح (الإرهاب) في التصور الإسلامي يحمل فلسفة الدفاع عن الذات والوجود، ولم يكن يوماً ذا دلالة همجية كتلك التي أريد لـــه أن يحملها نتيجة غزو الثقافة الغربية لثقافتنا. فالترهيب والترهب والإرهاب ألفاظ تحمل في موروثنا الفكري والديني كل المعاني السامية المتسامحة، وهي أبعد ما تكون عن الدلائل المرتبطة بالفلسفة الغربية الحاملة لمعاني العنف والإيذاء والقتل[1]، لهذا أجزل الثواب لكل من يقتل في سبيل الله حين لا يقبل الآخر بالسلام ويُذعن للحق ويحافظ على حياة الناس: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون* فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون* يستبشرون بنعمة من الله وفضل ويستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) (آل عمران ٣/١٦٩ــ ١٧١).

فالجهاد في سبيل الله وإعلاء القيم الإنسانية النبيلة ارتبط بمفهوم الشهادة لنصرة الحق، ما جعل للمجاهدين والشهداء المنزلة الرفيعة في الدنيا والآخرة (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً) (النساء ٤/٩٥). وبمعنى آخر لم تكن التضحية بالنفس والمال هواية عند العرب والمسلمين، وما تزال كذلك، فالضعيف الفقير الصادق في انتمائه لوطنه

---

[1] *أنظر كتابنا (مشروع القومية العربية إلى أين ١٤١.*

وعقيدته لا يملك أمام القوة الفتاكة التي يملكها العدو إلا أن يضحي بنفسه من أجل أن يعيش أبناء وطنه وقومه بحرية وكرامة. فالعدو الصهيوني الذي استباح فلسطين فقتل قسماً من أبنائها وشرّد عدداً آخر، وانتهك الأرض والعرض هو الذي فرض على أهلها مقاومته بكل الأشكال المادية، ومنها التضحية الجسدية، التي قامت بها فصائل عديدة كالجهاد الإسلامي وحماس والجبهة الشعبية و... ومن ثم صار الفدائي أو الاستشهادي ملبياً لروح حياة الأمة وحريتها ونهضتها... وصارت العمليات الجهادية عمليات مشروعة عند أبناء الأمة. وقد بدأت هذه العمليات تؤثر في العدو، كما اعترف به وزير الدفاع الصهيوني السابق إذ قال: " العمليات الاستشهادية سلاح لا يمكن لإسرائيل القضاء عليه وأن الخيار العسكري الإسرائيلي قد فشل في القضاء على الانتفاضة الفلسطينية"[١]

فالشهيد المجاهد ــ قديماً وحديثاً ــ آمن بفكرة الحرية، والكرامة الإنسانية للذات الفردية وللوطن، ففداهما، فاستحق احترام الأحياء ورضى ربه وعونه، فضمن له الجنة[٢]، فأفضل الناس "مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله"[٣]، ولهذا تميز من بقية الأموات بأنه لا يغسل ولا يصلى عليه؛ فجراحاته طهر له، وقد صلت عليه الملائكة[٤].

وفي ضوء ذلك كله فإن ترجمة كلمة الجهاد إلى اللغة الإنكليزية بعبارة (الحرب المقدسة: Holly War) ترجمة ظالمة؛ لأنها خلت من مضمونها الحقيقي ذي البعد الإنساني الذي تحمله في وظيفتها، وأسبابها وأهدافها. وكذلك فإن ترجمة كلمة الشهيد أو الفدائي بعبارة (من قتل نفسه أو فجرها Suicide Bomber) أشد تشويهاً وتحريفاً لمفهومها الإسلامي.. فالغرب لا ينظر إلى الشهيد أو الفدائي إلا برؤية سلبية.. وكأنه يئس من حياته وأراد أن ينهيها بهذه الطريقة.. فالرؤية الغربية لا تنطلق إلا من معين فلسفة أبنائها ولا تعترف إلا بما يجري في مجتمعاتها.. ثم إن مصطلح الشهادة أو التضحية والفداء في سبيل التحرر غدت عند الغرب جزءاً لا يتجزأ من مفهومه حول صراع الحضارات؛

---

(1) *الاحتلال الإسرائيلي وشرعية المقاومة* ١٥٦-١٥٧.

(2) *انظر الجامع الصغير: رقم الحديث* ٣٤٩٧ و٣٥٠٢ و٣٥٠٤ و٣٥٠٥.

(3) *صحيح البخاري*، ١٨/٤.

(4) *انظر: صحيح البخاري*، ١٥/١ و١١٤/٢ و١٨٨/٣.

لأنه لم يستوعب مفهوم الجهاد ومقولاته في العقيدة الإسلامية؛ وعند العرب منذ القديم.. فالعرب والمسلمون منذ الأزل لم يكونوا هواة قتل، وليس لهم رغبة في قتل أنفسهم، لأن حياتهم أغلى ما يملكونه.. ولأن نفوسهم الأبية الكريمة تكره الظلم والإذلال وتضحي بحياتها من أجل المروءة والعزة والحرية.. و[من قتل دون ماله فهو شهيد؛ ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه، ومن قتل دون أهله فهو شهيد][1].

فالجهاد بالنفس والمال وسيلة لا غاية، وسيلة لتحرير الإنسان من ربقة الذل والعبودية والتخلف والجهل... وإرساء قيم الخير والعدل والمساواة...

ولهذا فهو فرع صغير في دوحة الجهاد القائم على محاربة نوازع الشر في النفس البشرية وتقويم السلوك الخاطئ الذي تسلكه؛ وإن لم يعمل الإنسان على كبح جماح نفسه الغريزية الظالمة غدت خطراً حقيقياً على المجتمع؛ أياً كان جنسه وانتماؤه...

ومن هنا فالجهاد الأكبر جهاد شهوات النفس وقتل رغباتها الشيطانية الشريرة... بل حينما شرع الحج فقد جعل جهاداً لشرور النفس: جهاداً للتخلص من آثامها، كما نستدل عليه من الحديث الشريف: [ألا أدلك على جهاد لا شوكة فيه؟ حج البيت][2]... أما سقاية الحاج وعمارة المساجد ــ على عظمتها ــ فليست مساوية للجهاد في سبيل الله لقوله تعالى: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله مثلاً) (التوبة ١٩/٩). وكذلك عد الصوم جهاداً وحرباً على الفساد والفوضى وضعف الإرادة، والأنانية. ودعوة إلى المحبة والعفو والتسامح..[3].

ولعل ذلك كله يؤكد أن القتال بالنفس والمال ــ على عظمة الأجر والثواب فيه ــ يقع في سلم القيم الأخلاقية بعد جهاد شهوات النفس؛ لهذا قال المصطفى: [الجهاد أربع: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في مواطن الصبر، وشنآن الفاسق] أي كرهه وبغضه...[4].

---

[1] *الجامع الصغير، ٥٤٤/٢، رقم الحديث ٨٩١٧، وانظر صحيح البخاري، ١٧٩/٣.*
[2] *الجامع الصغير، ٣٨٧/١، رقم الحديث ٢٨٦٩.*
[3] *انظر: صحيح البخاري، ١٨/٤ ــ ١٩.*
[4] *الجامع الصغير ٤٩٧/١، رقم الحديث ٣٦٥٤.*

وعلى الرغم من قيمة الجهاد بالنفس والمال فإن الصلاة قدمت عليه[1]؛ وكذلك قدم عليه الإيمان بالله ورسوله؛ وبر الوالدين، ولو كانا على الشرك لأنهما أصل صلاح الإنسان وإقامة محبته للآخر...

وقد جسدت تعاليم الدين هذا كله؛ لقوله تعالى: (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن، وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير* وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً) (لقمان ٣١/١٤ ــ ١٥). وقال سبحانه: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً* واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً) (الإسراء ١٧/٢٣ ــ ٢٤).

ويعد نبي الرحمة أرحب مثال في تطبيق مبادئ الإسلام ولا سيما ما يتعلق بفكرة الجهاد؛ إذ روي أن رجلاً أتاه معلناً رغبته في الجهاد لنيل الشهادة في سبيل الله؛ فسأله: [ألك أبوان؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد][2]. فالجهاد لا يصح إلا بموافقة الأبوين، وبرهما مقدم على الجهاد...

ذلك هو مفهوم العقيدة للجهاد "بصورة مجتزأة" وقد مورس هذا المفهوم بكل ملامحه الإنسانية الرفيعة في عهد النبوة وما تلاه من عصور. ولم يجعله العرب والمسلمون سيفاً مسلطاً على رقاب الآخرين لتهديدهم وترويعهم أو قتلهم وإذلالهم.

هكذا كان مفهوم الجهاد في أزهى العصور الذهبية للإسلام ومن ثم في عصرنا الراهن، بل كان على الدوام دفاعاً عن الذات ورد كيد الظالمين الطامعين في الأرض والعرض والمقدرات. وعليه فإن علماء المسلمين شرقاً وغرباً قد شرَّعوا العمليات الاستشهادية ضد العدو المحتل في فلسطين والعراق ولبنان كما نتج عن مؤتمر بيروت (٢٠٠٢/١/١١م) الذي اجتمع فيه نحو خمسين عالماً من بلدان عربية شتى (لبنان وفلسطين والسودان والإمارات والمغرب والجزائر والأردن) وهو تشريع لا يتناقض مع الأحاديث الشريفة التي ذكرناها قبل قليل ولا يختلف عنها؛ لأنها تقع في صميم الدفاع عن الذات.

---

[1] *انظر: صحيح البخاري، ٤/١٧ ــ ١٩.*

[2] *صحيح البخاري، ٨/٣، وانظر فيه ٢.*

وقد اعترف هذا المؤتمر بالجهاد الذي يمارسه العرب ضد العدو الصهيوني؛ إذ جاء في إحدى فقرات بيانه ما يلي:" إن حزب الله في لبنان وحركتي حماس والجهاد الإسلامي وسائر قوى المقاومة هي التعبير الحي عن إرادة الأمة، وهي تمثل بجهادها ومجاهديها شرف وعزة وكرامة المسلمين في كل مكان"[١].

**٤ ـ نماذج من الأدب والتاريخ الإسلامي:**

لما جاء الإسلام صهر القبائل العربية في تعاليمه، ومن ثم انضوى أبناؤها تحت رايته الجامعة، وتعاليمه السمحة، وتحوّل انتماؤهم من الانتماء القبلي الضيق، وعصبياته الهوجاء إلى فضاء انتماء إنساني واسع... وآمنوا بأنهم أخوة في الله لقوله تعالى: (إنما المؤمنون إخوة) (الحجرات ٤٩/١٠) وعنت الوجوه للواحد القيوم، وأخلصوا لدولة الإسلام بقيادة النبي الكريم وفهموا تعاليم الدين القويم، وأدركوا أن الجهاد بكل أشكاله إنما هو إعلاء لكرامة الإنسان وحريته.

لهذا كان أول ما فعله الرسول الكريم حين دخل المدينة المنورة قيامه بالمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، ومن ثم كتابة العهود والمواثيق بين المسلمين وأهل الذمة من اليهود العرب. ومما ورد في كتاب العهد لهم هذه الكلمات: [وإن ذمة الله واحدة، يجبر عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون سائر الناس؛ وإنه من تبعنا من يهود فإن لـــه النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم... وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين؛ لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأَثِم فإنه لا يُوْتِغ [أي يهلك] إلا نفسه وأهل بيته].... ثم عدد كل قبائل يهود ثم ذكر: [وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم؛ وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم...][٢].

فالرسول الكريم عاملهم بروح الإسلام فأطلق لهم الحرية في الحياة والعبادة، لا يظلمون فيها، ولا يدفعون جزية أو إتاوة... لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، على أن لا ينقضوا العهد، ويتحالفوا مع المشركين... ولكن اليهود

---

[١] *انظر الاحتلال الإسرائيلي وشرعية المقاومة ١٦٠ وما بعدها حتى ١٧٥.*

[٢] *أنظر السيرة النبوية، ١٤٨/٢ ـــ ١٤٩ و١٦٠ ـــ ١٦٣ و٢٥٤ ومجموعة الوثائق السياسية ٥٩ ـــ ٦٠.*

أبوا إلا أن يكونوا غادرين حاقدين، ناقضين للعهود؛ ثم أخذوا يتألبون على المسلمين ويتآمرون عليهم وعلى الرسول الكريم. ولا شيء أدل على هذا من أنه حين جاءهم النبي لأخذ الدية برجل قتلوه ائتمروا به وضربوه بالحجارة،. فما كان منه إلا أن عاقبهم...[١]. ثم مارس اليهود كل أنواع النفاق والخداع والتآمر والكيد للمسلمين حتى آل أمرهم في غزوة الخندق إلى التحالف مع المشركين فأصبحوا ضمن الآخر المحارب؛ فأخرجوا من المدينة المنورة بعد أن حقن الرسول الأعظم دمهم؛ ولم يحاسبهم على ما فعلوه[٢].

فاليهود لم يتركوا وسيلة لإيذاء الرسول والمسلمين إلا قاموا بها، ولكنه ما عاملهم بالمثل، وكذا كان موقفه مع مشركي قريش في فتح مكة سنة (٨ هـ) وهم الذين أخرجوه منها، بيد أنه عفا عنهم، وأعطاهم الأمان في الإسلام، في خبر مشهور...[٣].

ومن ثم أخذ أمر الدولة الإسلامية الفتية يستقيم ويستقر، على الرغم من تخوف المسلمين من غزو الروم لهم... فقد كان الروم يستخدمون أتباعهم من الغساسنة العرب في ترويع أبناء جلدتهم من العرب المسلمين، إذ جعلوهم شوكة في صدور أبناء جلدتهم[٤]؛ وهكذا كان ملوك المناذرة أداة طيعة بيد أكاسرة الفرس ــ والناس على دين ملوكهم ــ كما يقال.

فالجهاد عند العرب والمسلمين لم يكن يوماً أداة قهر للآخر المغاير المحارب، أو قتل لـــه، لا في عهد الرسول الكريم ولا في عهد خلفائه الراشدين... ولا شيء أدل على هذا من بيان الأسباب التي دعت خليفة رسول الله إلى قتال الفرس والروم.. فلما استقام حال الدولة الإسلامية بعد حروب الردة ارتحلت قبائل عربية كثيرة إلى الشرق والشمال كقبيلة المثنى بن حارثة التي وصلت إلى العراق شمالاً، وكان فيها ــ من قبل ــ قبائل عربية مثل بكر وعبد القيس وتميم وإياد، والمناذرة حلفاء الفرس، وبعض بني طيء؛. وغيرهم كثير. ولكن قدوم العرب المسلمين بقيادة المثنى المسلم لم يرق لكسرى وفرسانه،. وتخلوا عن مهادنة من عرفوه من قبائل العرب المجاورة لهم فأخذوا

---

[1] *أنظر السيرة النبوية، ١٩٩/٣ ــ ٢٠٠.*
[2] *أنظر السيرة النبوية، ٢٢٤/٣ و٢٤٤ وما بعدها.*
[3] *أنظر السيرة النبوية، ٥٩/٤ وما بعدها.*
[4] *أنظر صحيح البخاري، ١٧٥/٣.*

يتعدون عليها ولا سيما أبناء ربيعة ويؤذونهم "غاية الأذى فلم يزالوا كذلك حتى وقعت بينهم العداوة والشحناء؛ فجعل المثنى يغير على أساورة الفرس ممن كان بناحية الكوفة وسوادها، ويؤذيهم غاية الأذى، وهو يومئذ متمسك بدين الإسلام. وبلغ أبا بكر فعاله... فأرسل إليه... فجعله رئيساً على قومه وبعث إليه بخلعة ولواء، وأمره بقتال الفرس"[^1].

فهذا الخبر شديد الوضوح في بيان مفهوم الجهاد/ القتال عند المثنى بن حارثة ثم عند أبي بكر (رضي الله عنه)... فقد فرض عليهما وعلى المسلمين وهم كارهون له، وما وقع إلا دفاعاً عن كينونة الذات والوجود... ومن ثم فإن الخبر يشي بأن بعض القبائل المذكورة كالمناذرة كانت تحت سيطرة القوة الفارسية حتى عهد أبي بكر خليفة رسول الله الذي بدأ تحرير عدد من القبائل وأرضها من يد الفرس إثر تلك الحادثة، كما عبر عنه أحد شعراء ربيعة[^2]:

سرنا إلى كلأ العراق وريفه     حتى استقر بنا هناك قرار
القحط سار بنا وخيم غيرنا     فيها، ولو شاء المسير لساروا
سرنا فقارعنا الملوك فقصروا     عنا فأنجد منجد، وأغاروا

على حين كان الغساسنة وقبائل عربية أخرى تحت سيطرة الروم في بلاد الشام. فالله سبحانه قد أكرم العرب بالإسلام، ودعاهم إلى إقامة الحق والعدل، وانتدبهم لإعلاء كلمة التوحيد وانتشال أبناء جلدتهم من وهدة الشرك والظلم والعبودية والجهل... فحملهم أمانة الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا ولتحرير القبائل العربية من تبعية الآخر المغاير، ولتصبح قيم الخير والعدالة قانون الأرض والسماء. وحينما كانت طاعة الله حظ الأنفس ــ ورضا الرب غنيمة ما بعدها غنيمة ــ لم يجعلوا جهادهم سبيلاً إلى قهر الآخر الذي سامهم أنواع العذاب، وهم يدافعون عن عقيدتهم ووجود العرب في أرضهم وأرض أجدادهم؛ لإيمانهم بحرية الإنسان وكرامته. وهذا ما نستشفه من قول الإمام علي (رضي الله عنه): "أما بعد: فإن الجهاد باب من أبواب الجنة... وهو لباس التقوى ودرع

[^1]: *كتاب الردة*، ٢١٦ ــ ٢١٧.
[^2]: *كتاب الردة*، ٢١٦.

الله الحصينة... فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل... فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا"[1].

ولست أشك لحظة واحدة في أن دخول العرب المسلمين إلى الشام والعراق لم يكن إلا عودة الفرع إلى الأصل... فالقبائل العربية لم تغادر أرضها في أقسى الظروف القاهرة، بل كانت الملجأ الذي يغتدون إليه ويمكثون فيه مهما كانت الصعاب التي تواجههم مع الغزاة من الروم والفرس الذين كانوا يطمعون فيها لوفرة خيراتها، وتقدم حضارتها... وظلوا يرنون إلى السيطرة عليها...

وهنا يدعونا المنطق العلمي والموضوعي إلى الاعتراف بأن أبناء فارس قد التقطوا بفعالية مرهفة تعاليم الإسلام ومفهومه للجهاد، وأيقنوا بأنه ما جاء إلا للارتقاء بالإنسان روحاً وجسداً... فآمنوا به، وصاروا مادته في الفتوح التي شهدته أرض فارس، وبلاد ما وراء النهر، في السند والهند...

وهذا يفرض ــ أيضاً ــ علينا الاعتراف بالحق، فالجهاد قد تغيرت ملامحه في عهد الدولة الأموية وما بعده، وقد ظل العرب أرحم فاتح في التاريخ لبلاد السند والروم والأندلس كما اعترف به دارسون غربيون.

ولعل هذا يعيدنا إلى الجهاد في عهد أبي بكر ومفهومه وما وقع من اعتداءات على العرب المسلمين في بلاد الشام... وكانوا قد توقفوا عند حدودها الجنوبية في عهد النبوة.

وتشير الأخبار إلى أن بعض القبائل العربية الأخرى كانت صنيعة بيد الروم، وكانوا يغيرون بأبنائها على القبائل العربية في الجزيرة العربية، ثم ظلّ هذا دأبهم في الإغارة على العرب والمسلمين بعد نزول الرسالة، وإشراقها بنور ربها... وإذا كان الآباء والأبناء قد تدافعوا لرفع راية الإسلام ونشر مبادئه السمحة فإنهم لم يعتدوا على الآخر الرومي ولم يكرهوه على اعتناق الإسلام على الرغم من أنه لا يزال قابعاً في أرض أجدادهم الأوائل... بل إن العرب المسلمين ما زالوا يلقون من الروم شراً تلو الشر، ويلقون منهم الأذى المذل... لذا كان لا بد من دفع الظلم عن النفس العربية، وتحرير أرضها المكبلة بإسار القهر الروماني الطويل.

---

[1] *جمهرة خطب العرب*، ٤٢٧/١.

لهذا وقف عاصم بن عمرو يخاطب المجاهدين في ساحة المعركة قائلاً لهم: "إن هذه بلاد قد أحل الله لكم أهلها، وأنتم تنالون منها منذ ثلاث سنين ما لا ينالون منكم، وأنتم الأعلون، والله معكم"[١].

وهذه الخطبة بما انطوت عليه من مبادئ أخلاقية رفيعة تذكرنا بخطبة أبي بكر التي أوصى بها جيش أسامة بن زيد.... ومما ورد فيها: "يا أيها الناس؛ قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا؛ ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم، وما فرغوا أنفسهم له... اندفعوا باسم الله"[٢].

وإذا كانت هذه المعاني تتكرر في وصية له ليزيد بن أبي سفيان وجيشه[٣] فإننا نشير إلى مقطع صغير من وصية عمر بن الخطاب للمجاهدين، ومنها: "بسم الله وبالله وعلى عون الله؛ امضوا بتأييد الله، وما النصر إلا من عند الله ولزوم الحق والصبر. فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين؛ ولا تجبنوا عند اللقاء؛ ولا تمثلوا عند القدرة؛ ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند شن الغارات""[٤].

إن هذه المبادئ العظيمة في جهاد العرب المسلمين تحرض ذاكرة المرء على استشعار بشاعة ما فعله يوشع بن نون في بلاد الشام، فضلاً عن فظاعة ما قام به غيره من ملوك اليهود وفق ما أثبتناه سابقاً[٥]. وقد ماثلهم في ذلك كلّه الروم الذين هيمنوا على الشام زمناً طويلاً ساموا فيه أهلها كل ألوان العذاب والقهر، في الوقت الذي تذكرنا بأن العرب أينما كانوا في هذه البلاد التي ابتليت باليهود والرومان قد فتحوا مدنهم للفاتحين العرب المسلمين مستبشرين بتحرير

---

[1] *جمهرة خطب العرب، ١/٢٣٠.*

[2] *جمهرة خطب العرب، ١/١٨٧.*

[3] *انظر المصدر السابق، ١/١٩٦ ــ ١٩٧.*

[4] *جمهرة خطب العرب، ١/٢٢٧.*

[5] *راجع ما تقدم ١٥ –١٦.*

أنفسهم من الروم، بعد أن طال بقاؤهم في الأسر، كما شهدناه في تحرير دمشق وحمص وشيزر وحماة وحلب...

ثم إن تعاليم الإسلام السامية في الجهاد تدفعنا إلى إثبات ما يقوله حاخامات بني صهيون، في كل زمان ومكان لندرك الفرق فيما بينها. فحاخام تل أبيب (حاييم ديفيد) يقول: "من حق اليهودي أن يقتل المدنيين العرب العزل بما في ذلك النساء والأطفال والشيوخ، وإن الشريعة اليهودية تسمح له بذلك"[1].

وفي ضوء ذلك كله نتساءل: كيف يصبح جهاد العرب المسلمين إرهاباً وعنفاً وقتلاً، واعتداء على حرمة الآخر... وحريته؛ وأمنه، ولم يكن يوماً كذلك، على حين ما زالت أفعال الآخر الغربي الأمريكي الصهيوني نحو العرب والمسلمين أفعالاً همجية ووحشية... وعلى الرغم من هذا يرفض أن توصف بالعنف أو غيره؟!

ولما كانت لدينا رغبة جامحة في إجلاء صورة الجهاد عند العرب المسلمين بمعناها الحقيقي والإنساني كان علينا أن نستشهد بالعديد من الحوادث التاريخية والصور الأدبية لعدد من العصور الإسلامية... حتى لا يقال: إن عهد النبوة والخلافة الراشدة لا يقاس عليه؛ فهو عهد استثنائي...

فالجهاد عند العرب المسلمين لم يكن نفياً للآخر المغاير وقتله، ولا لإذلاله وقهره واستعباد الرجال والنساء والأبناء؛ وكذلك هو في إطار جهاد الآخر موافقاً أو مخالفاً ممّن يعيشون في الوطن الواحد... ولعل ظاهرة شكوى الآباء الكبار بالسن بعد أن ضعفت قوتهم وخارت عزيمتهم من أبرز الظواهر في هذا الشأن. فقد رأينا آباء يئنون زفرات حارقة لانخراط أبنائهم في الجهاد وقد خلفوهم وراءهم بلا معين، ولا أنيس... فرفعوا شكواهم أنة ولوعة في قصائد لاهبة فردهم الخليفة إليهم، كما نجده في قصيدة حارثة بن صخر بن مالك أحد معمري بني كلب بن وبرة، وقد أدرك الإسلام وهو شيخ هرم دالف ولم يسلم، على حين أسلم ابنه جناب، ثم هاجر إلى المدينة المنورة فحارثة جزع على ابنه جزعاً شديداً، ثم ذكره بأن قربه أولى له بالثواب من الجهاد، ومما قاله[2]:

تركت أباك بالأدوات كَلاًّ وأمك كالعجول من الظراب

---

[1] *مجلة الكفاح العربي (عدد ٨١٥)، ص ١٤.*

[2] *المعمرون والوصايا، ٧٣. وانظر صحيح البخاري ٥/٨. باب صفة الوالد المشرك.*

فلا وأبيك ما باليت وجدي ولا شوقي الشديد ولا اكتئابي

ثم قال:

أردت ثواب ربك في فراقي وقربي كان أقرب للثواب

وتتكرر هذه الظاهرة في عهد عمر غير مرة، ويرفع الآباء شكواهم إليه كشكوى المخبل السعدي (ربيعة بن مالك) ابنه شيبان لذهابه إلى جيش الفتح، ومما قاله[١]:

أيهلكني شيبان في كل ليلة لقلبي من خوف الفراق وجيب؟!

أشيبان إن تأبى الجيوش بحدهم يقاسون أياماً لهن خطوب؟!

يذودون جند الهرمزان كأنما يذودون أوراد الكلاب تَلوبُ

"فلما أنشد عمر بن الخطاب هذه الأبيات بكى ورق له، فكتب إلى سعد يأمره أن يقفل شيبان بن المخبل ويرده على أبيه... فانصرف إليه، ولم يزل عنده حتى مات"[٢].

ووجدنا عمر يفعل ذلك أيضاً مع خويلد بن مرة الهذلي وابنه خراش[٣] وأمية بن الأسكر وابنه كلاب... وافتتح شكواه باستحضار العاذلة لما يعانيه من حرقة في إحدى قصائده فقال[٤]:

أعاذل قد عذلت بغير علم وما يدريك ويحك ما ألاقي؟

فإما كنت عاذلتي فردي كلاباً إذ توجه للعراق

سأستعدي على الفاروق ربا له رَفَعَ الحجيج إلى بُسَاق(*)

إنِ الفاروقُ لم يردُدْ كلابا على شيخين هامُهما زَواقِ

---

[1] الأغاني، ١٣/١٩٠.

[2] الأغاني، ١٣/١٩١.

[3] انظر الأغاني، ٢١/٢٢٦ ــ ٢٢٧.

[4] المعمرون والوصايا، ٨٦. وانظر الأغاني، ٢١/١١، على اختلاف الرواية.

(*) بسَاق: مكان، وروي في اغاني (نُقَع)

فأمر الخليفة سعد بن أبي وقاص برده إلى أبيه، فلما وصل إليه ورآه "قام إليه فاعتنقه، وبكى بكاء شديداً، وبكى عمر رقة لهما"[1].

فهؤلاء الآباء آمنوا إيماناً صحيحاً بتعاليم الإسلام، واستوعبوا عظمة أجر الشهادة في سبيل الله... لكنهم أيقنوا بأن بر الوالدين يعدل ذلك، لأنهم كبار السن، وأحوج الناس إلى الرعاية. ولا جدال في أن النفس الإنسانية المليئة بفيض المشاعر، والتي أحست بلوعة الفقد كانت تدفع أولئك الآباء للتعبير عما يحسون به... فالشعور الأصيل عند المسلم يؤمن بقيمة الجهاد، ولكن الشعور الأبوي يفيض حسرة على حال الضعف والشيخوخة التي آل إليها ولا يجد له من معين ما جعله ينطق بتلك العبارات،. وقد حرص الإسلام في الحالتين على ألا يخسر الابن أجر البر بالوالدين، فعد بره لهما جهاداً عظيماً، ما يشي بأن الجهاد بكل أصنافه كان هدفه حرية الإنسان وكرامته.

وهناك صور أدبية أخرى للآباء والأبناء تتمثل بخروجهم جميعاً للجهاد وإعلاء كلمة الله لكن القدر نصب شراكه لهم. فهذا أبو ذؤيب الهذلي (ت ٢٦هـ) يخرج برفقة أولاده الخمسة مجاهدين إلى مصر فيموتون بالطريق سنة (١٥هـ) بمرض الطاعون فيحزن لهم لأنهم لم يكسبوا شرف الجهاد.... وهذا ما عزز مشاركته في فتح مصر، حتى توفي في سنة (٢٦هـ)... وكان قد رثاهم بقصيدة مشهورة[2].

أما صورة الأمهات والأبناء فإن الخنساء (تماضر بنت الشريد) تعد أكثر الصور تعبيراً عنها؛ وكانت الخنساء في جاهليتها وقبيل إسلامها شديدة الحزن على أخيها صخر، وندبته ندباً حاراً في الجاهلية لما فاته من المجد، ثم بكته في الإسلام لما فاته من شرف الإيمان[3]، ولمّا شاركت في وقعة القادسية (١٤هـ) مع أبنائها الأربعة، رأينا موقفها من الجهاد على أحسن ما يتمثله المؤمن صبراً واحتساباً... فكانت صورة للأمهات في كل زمان ومكان... فقد وقفت تخاطب

---

(1) *المعمرون والوصايا، ٨٧. وانظر تفصيل ذلك في الأغاني، ٢١/١٠ ــ ١٢.*

(2) *شرح أشعار الهذليين ١/١ ــ ٧، وانظر ديوان الهذليين ١/٢ على اختلاف الرواية، والرثاء في الجاهلية والإسلام ١١٦، وقصيدة الرثاء، جذور وأطوار. ٢١٠ وما بعدها، وانظر: فتوح الشام ٢/١٨٠ في حكاية خالد بن الوليد مع ابنه سليمان الذي استشهد في الشام.*

(3) *انظر: الرثاء في الجاهلية والإسلام ١٤٧ ــ ١٤٨ و١٥٣ ــ ١٥٩.*

أبناءها، ومما قالته: "يا بَنِيَّ، أنتم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والإله الذي لا إله غيره، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم؛ ولا هجنت حسبكم، ولا غبرت نسبكم. وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية... فإذا أصبحتم غدا؛ فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين؛ ولله على أعدائه مستنصرين".

ثم أضاء الصبح، ودخلوا المعركة، وسقطوا شهداء؛ فبلغها خبر استشهادهم فقالت: "الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته"[1].

فالقلوب المؤمنة بالجهاد مسلمة بقضاء الله وقدره، ولكنها متيقنة بأن أجر الشهادة لا يعادلــه أجر آخر... ولهذا طفقت نفوس الآباء رجالاً ونساء تجسد روح المشاعر الإنسانية النبيلة؛ لأن جهاد أبنائهم ما كان اعتداء على الآخر، ولا إمعاناً في إذلاله... فالألم يعتصر فؤاد كل مسلم حين يجبره الآخر المغاير على محاربته، فما ترك لــه سبباً غير قتاله؛ وهذا ما نجده في عهد المعتصم العباسي. فقد سام الرومُ العربَ كل أنواع الذل والقهر في الثغور، وسفكوا الدماء، واستحلوا النساء، ما فرض على المعتصم أن يقوم بغزو الروم في معركة شهيرة عرفت بعمورية. وعمورية قاعدة الروم ومدينتهم، وذكرها أبو تمام في شعره ومنه[2]:

يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... منك المنى حُفَّلاً معسولة الحلب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يشله وسطها صبح من اللهب

فالعرب المسلمون وقفوا عند حدود أرض الأجداد في فتحهم، وما تجاوزوها حتى وجدوا الروم يمعنون في الشر والظلم، واستمروا في الإغارة على ديار الإسلام وترويع الآمنين في عهد المتوكل... فالروم ــ أعداء العرب والمسلمين ــ ماضون بالإفساد والشر والقتل وإرهاب النفوس الآمنة من أبناء

---

[1] جمهرة خطب العرب ١/٢٣١، وانظر الرثاء في الجاهلية والإسلام، ١٥٩.

[2] شرح ديوان أبي تمام، ١/٣٢ ــ ٤٩.

قرى الثغور، ما جعله يعد العدة لقتالهم ودفع أذاهم عن العباد المؤمنين... ونال منهم في معركة ذكرها لنا البحتري في مدح المتوكل منها[1]:

وما زالت الأعداء تعلم أنه يجاهدها في الله حقَّ جهادها
ولما طغت في دارها الروم واعتدت سَفاهاً رماها جعفر بحصادها
أعد لها فرسان جيش عرمرم عداد حصى البطحاء دون عدادها
كتائب نصر الله أمضى سلاحها وعاجل تقوى الله أكثر زادها

ولعل وقائع سيف الدولة في الروم كثيرة وطالما تعرضوا للعرب المسلمين بالشر والظلم، فكان الروم يجيشون الجيوش للقضاء على دولة بني حمدان... ولكن سيف الدولة كان لهم بالمرصاد يردُّهم على أعقابهم خائبين بعد أن هيأ نفوس الآباء والأبناء للجهاد من أجل الذود عن الذات وحماية راية الإسلام... ومن أبرز القصائد التي عرضت لذلك ما وجدناه في قصائد عند المتنبي، وبخاصة تلك التي تحدثت عن قلعة (الحدث) ومنها[2]:

هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أي الساقيين الغمائم؟!
سقتها الغمام الغر قبل نزوله فلما دنا منها سقتها الجماجم

وكانت النتيجة قوله:

ومن طلب الفتح الجليل فإنما مفاتيحه البِيْضُ الخفاف الصوارم
نثرتهم فوق الأُحَيدب نثرة كما نثرت فوق العروس الدراهم
ألا أيها السيف الذي لست مغمداً ولا فيك مرتاب ولا منك عاصم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلا وراجيك والإسلام أنك سالم
ولِمْ لا يقي الرحمن حديك ما وقى وتفليقه هام العدا بك دائم؟!

ولكن شوكة الروم وغيرهم لم تلن قناتها، وتطورت على الدوام، ولم يكن للعرب والمسلمين إلا أن يدفعوا خطرهم البشع والدائم...

---

(1) *ديوان البحتري*، ١/٤٤٠ ــ ٤٤١.
(2) *ديوان أبو الطيب المتنبي*، ٢/٣٨٠ ــ ٣٩٢.

ولعل العصر الأيوبي قد شهد فيه أبناء العرب والمسلمين أعتى هجمة صليبية تجمع فيها كل دول أوربا تقريباً آنذاك... فالحروب الصليبية دامت قرابة قرنين من الزمان (٤٩٢ ــ ٦٩٢هــ)، إذ جندت أوربا كل ما تملك تحت راية الصليب متذرعة بحماية المقدسات المسيحية وبتخليص المسيحيين العرب من قهر العرب المسلمين. وشهدت أرض العرب وديار الإسلام من جديد مواجهة حضارية شرسة، ولكنها هذه المرة شاملة وقوية ومسلحة بأعتى الإمكانيات الفكرية والمادية... ومن ثم اجتازوا آلاف الأميال متجهين إلى بلاد العرب غازين لها ــ كما حدث بعد ذلك في القرن التاسع عشر والعشرين وكما يحدث اليوم من الاحتلال الأمريكي للعراق وأفغانستان ـــ... فدنسوا أرضها، وعاثوا فيها فساداً وقتلوا العباد، وزرعوا الفتنة والإغواء في النفوس... إذ جعلوا نساء كثيرات متاعاً لجنودهم، ووسيلة لبيع الهوى، في الوقت الذي جلبوا رهباناً وراهبات لأمور تبشيرية...

ولا شيء أدل على ذلك من شكوى أحد البطاركة سنة (٥٩٧هــ/ ١١٩١م)، حين قال: "سرنا نحو جيشنا في عكا، فوجدنا جنودنا هناك. وأقولها بكل ألم وحزن قد أسلموا أنفسهم لأفعال مخزية واستسلموا للراحة والشهوة"[1]. وأوضح لنا العماد الأصفهاني أن الفتنة والإغواء كان من صميم التقرب إلى الله عند أولئك النسوة ــ أو هكذا أقنعوهن ــ فقال: "وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة؛ لا سيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبة"[2] ويبدو أن هذه الحال ما زالت مستمرة حتى اليوم في عناصر الجيش الأمريكي الذي احتل العراق في (٩/٤/٢٠٠٣م) كما دلّت عليه الوثائق والأخبار الكثيرة[3].

وإذا كان حال الأمة العربية والإسلامية آنذاك ليس بأفضل من حالها اليوم فإن الله قد قيض لها بعد لأي من الزمان نور الدين الشهيد: محمود بن عماد الدين زنكي (ت ٥٦٩هــ/١٢٧١م) الذي أخذ يهيئ النفوس للجهاد والاستشهاد لطرد الصليبيين الغزاة، وتحرير بيت المقدس الذي دنسوه بكل ألوان القهر والظلم... ولما جاءه الأجل المحتوم وانتقلت المسؤولية التاريخية إلى البطل صلاح الدين الأيوبي (يوسف بن أيوب الذي توفي ٥٨٩هــ/١١٩٣م)، آلى على

---

[1] *المرأة الصليبية، دراسة في تاريخ المجتمع الفرنجي في بلاد الشام*، ٨٣.
[2] *الفتح القسي في الفتح القدسي*، ٣٤٧.
[3] انظر *مشروع القومية العربية إلى أين* ١٩٦.

نفسه ألا تضحك لــه سن حتى يتحرر المسجد الأقصى من ربقة الفساد والطغاة... فحمل راية الجهاد بعد نور الدين الشهيد لرد شوكة المعتدي عن الأرض الشريفة، ووقف إلى جانبه أبوه وأخوته والشرفاء جميعهم مسلمين ومسيحيين... وما زالوا على قلب رجل واحد تحت راية "لا إله إلا الله" وهم يجاهدون الغزاة المارقين حتى انتزعوا النصر المؤزر في معركة حطين سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)، ومن ثم عاد بيت المقدس ليتزنر بحريته ولينتشي بطهارته... على الرغم من أن بعض الفلول الصليبية ظلت هنا وهناك في سواحل الشام تمارس القتل والنهب، كما وجدناه سنة (٦١٤هـ/١٢١٧)م)، حين هاجموا قرى (جبيل، والطور والناصرة)، وسبوا النساء وسرقوا كثيراً من الأطفال الذين وزعوا على الراهبات والأديرة ولكن الأرض العربية سرعان ما تخلصت من آثامهم.

فالجهاد والاستشهاد عند العرب والمسلمين لم يكن على الدوام إلا دفاعاً عن الذات المهددة بالفناء، وكذا هو في العهود الأيوبية وما بعدها حتى اليوم. بينما كانت الدول الأوروبية ــ آنذاك ــ تمارس على العرب والمسلمين أقسى أنماط الإرهاب والقهر والظلم والفساد... وقد عبر عن ذلك الحليم الفاضل في إحدى قصائده التي وصف فيها معركة حطين؛ ومدح بها صلاح الدين؛ ومنها[1]:

أتوا بحبال أبرمت لإسارنا فسقناهم فيها قطينا محددا

وساموا تجارا تشترينا غواليا فبعناهم بالرخص جهرا على الندا

وجروا جيوشا كالسيول على الصوا فاضت غثاء في البطاح مبددا

وقالوا: ملوك الأرض طوع قيادنا إذا الكل منهم في القيود معبدا

فهذه المقدمة تشبه ما وجدناه عند المتنبي في وصفه لجيش الروم القادم إلى قتل العرب المسلمين، وقد أعدَّ ملوك أوروبا كل احتياجاتهم القتالية وجاؤوا غازين حاقدين يظنون أنهم سادة الأرض؛ وظنّوا أن العرب عبيد يباعون في سوق النخاسة، فخاب أملهم،... لهذا يتابع الحليم الفاضل وصف معركة حطين فيقول:

---

[1] *عيون الروضتين*، ٣٠٣/١.

ووقعة يوم التل إذ قبضت به جبابرة الإفرنج حيرى وشردا
عليهم من البلوى سرادق ذلة ومن ذَلَّ ماتت نفسه فتقيدا
وما طرق الأسماع من عهد آدم كملحمة التل التي ثلَّت العدا

وقال عمارة بن علي يمدح صلاح الدين؛ ويبين فضل أبيه في تنشئة المعارك(١):

أبوك الذي أضحى ذخيرة مجدكم وأنت له خير النفائس والذخر
فكيف أب أصبحت نار زناده وإلا كنور البدر من سنة البدر؟

ولهذا ترى الآباء على طغيان الشيب في رؤوسهم لم يتوانوا في الدفاع عن حياض الأمة وكرامتها في وجه الهجمة الصليبية الباغية... وكانوا يخضبون شيبتهم إمعاناً منهم بإظهار الشباب لزرع الخوف في قلوب العدو الظالم. ففي حصار حصن (الكرك) مضى الأبناء على درب الآباء في الجهاد، وقد توفي في هذا الحصار محمد بن أحمد القادسي؛ بعد أن وصف ما آلت إليه الحال... ومما جاء في شعره معبراً عن ذلك كله(٢):

ولم أخضب مشيبي ــ وهو زين ــ لإيثاري جهالات التصابي
ولكن كي يراني من أعادي فأرهبه بوثبات الشباب

وإن القارئ للآثار الأدبية التاريخية للعصر الأيوبي يجد أن فكرة الجهاد لم تكن يوماً في حياة العرب والمسلمين مفهوماً يولد الكراهية والحقد على الآخر المعتدي، وكلما فرضت المصادمة الحربية على العربي والمسلم كان يتصدى لشرورها ورد خطر كل طامع أثيم... لهذا لم يخرج العربي في جيوش الفتح إلى أرض الله إلا بعد أن لقي أشد أنواع البغي والطغيان من الأعداء الذين لم يهدأ لهم بال دون أن ينالوا منه.

إذاً؛ خرج العربي المسلم مجاهداً لانتشال الأمم من ظلم محيق بها وبه، وتحريرها من رق الذل والعبودية واستعباد الآخر... ثم عبر الأدب في مختلف العصور عن الروح الإنسانية السامية لفكرة الجهاد، وساقها أصحابها بأرقى

---

(1) عيون *الروضتين*، ١٤٢/٢ ــ ١٤٣.
(2) عيون *الروضتين*، ١٢٢/٢.

الأشكال الإبداعية الحضارية دون أن يشوهوا صورة الآخر المستبد الطامع في أرزاق الناس وخيراتهم وأراضيهم، وبيع أبنائهم في سوق النخاسة... وقد ظهر هذا في مؤلفات عربية عديدة وعبر عنها الشعراء بكل دقة وتسام كما نراه في أشعار أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) في كتابه (الاعتبار)[١] وفي شعر ابن القيسراني محمد بن نصير[٢] وكتاب أبي شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ) (الروضتين في أخبار الدولتين)، وتلخيصه (عيون الروضتين)[٣] وغير ذلك كثير...

فالنماذج الأدبية تحقق لنا ولادة الشفافية الأخلاقية لمفهوم الجهاد عند العرب والمسلمين، فهو جهاد قائم على احترام انتماء الآخر المغاير وعقيدته وحريته وصون كرامته والتفاعل معه... فهو أخ للمسلم في الإنسانية ولا يجوز امتهان مروءته ولا شرفه بعكس ما كان هذا الآخر يفعله مع العرب ويكتبه عنهم. وليس هناك من يرتاب منا في أن أكثر ما كتبه المؤرخون العرب والمسلمون، وما صوره الأدباء يعبر عن ذلك كله، وإن وقع أحياناً على بعض صور منفرة للآخر في تلك الكتابات والأشعار... ولم تكن هذه الصورة المنفرة بفعل الكراهية والحقد ــ كما نجده في المؤلفات الغربية عن الإسلام والمسلمين ــ بل كانت بحكم تاريخيتها، ووفق وجودها الحقيقي، كتلك الصور التي عرضوها للنساء الصليبيات اللواتي جلبن لبيع الهوى واللذة والترويح عن الجنود.

في صميم ذلك كله نجد الأدب العربي خاصة والتراث عامة يشكلان الوعي الناضج لحركة الجهاد، وكل منهما يديرها بحوار فكري وعاطفي شديد التأثير، هدفه الحق والحقيقة، وسمته الصدق والتفاعل النبيل مع الآخر لا نفيه لقولــه تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) (التوبة ٩/٦).

---

[1] *حرر كتاب (الاعتبار)، فيليب حِتّي، جامعة برنستون، ١٩٣٠م ثم عني به غير باحث، مثل الدكتور حسن الزين ــ طبعة دار الفكر الحديث ــ بيروت ــ ١٩٨٨م، والدكتور عبد الكريم الأشتر ــ طبعة المكتب الإسلامي ــ دمشق ــ ط٢ ــ ٢٠٠٣م.*

[2] *جمع شعر ابن القيسراني وحققه ودرسه د. عادل جابر، الزرقاء، الوكالة العربية للتوزيع، ١٩٩١.*

[3] *طبع كتاب الروضتين في أخبار الدولتين في دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م.*

ومن هنا يصبح لزاماً علينا أن نشير بشكل موجز وسريع إلى المؤلفات الغربية الكثيرة من القرون الوسطى كما كتبها المحاربون الصليبيون وغيرهم؛ وإلى التجربة المرة التي شهدتها فكرة الجهاد في الأندلس... وإلى التأثير الكبير للموروث الديني اليهودي التوراتي، في الذهن الغربي وهو التأثير الذي ما زال مستمراً في تشكيل المسيحية الأصولية[1]...

فالمؤلفات التي ورثها الغرب عن الحروب الصليبية مثل (أنشودة رولان) أو (أنشودة أنطاكية)، شوهت ملامح فكرة الجهاد النبيلة خاصة، وصورة العربي عامة؛ حين صورت العربي المسلم بصورة ساخرة بغيضة، جردته من كل قيم الخير والأخلاق... فهو كافر متوحش، قاطع للطريق، ليس جهاده إلا إرهاباً وقتلاً، يذبح بلا رادع أخلاقي وينهب ويسرق، ويفرض الإتاوات على الناس الأبرياء... ولا هم لـــه من جهاده إلا المال واصطياد النساء، والاعتداء على شرفهن... فقد أمعنوا في تشويه الصورة العربية، بمثل ما غيّبوا الكتابات الغربية التي تحدثت عن وحشية الصليبيين الذين أتوا بأفعال مشينة لا نظير لها في التاريخ إلا ما يفعله الصهاينة والأمريكان هذه الأيام. ولعل ما كتبه (غوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب) يكشف لنا عما فعله الصليبيون إبان احتلال القدس سنة (٤٩٢هـ)، ومنه قوله على لسان راهب فرنجي آنذاك:[٢] "كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها!!. كانوا يذبحون الأولاد والشباب، ويقطعونهم إرباً إرباً، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة. وكان قومنا يقبضون كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية!!!. فيا للشره وحب الذهب، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث".

ثم استكمل الغرب تشويه الملامح الروحية لفكرة الجهاد بفعل المفارقات الشديدة بين العرب والإسبان نتيجة الحروب الدامية الطويلة التي جرت أحداثها في الأندلس. فإذا تذكرنا أن العرب لم يدخلوا شبه الجزيرة الإيبرية إلا بناء على طلب من بعض أمرائها المقاتلين عرفنا قيمة ما قدموه للإسبان من تسامح بين الأديان في التعامل وممارسة الحرية في العقيدة والحياة. وما كنا لنتوقع من

---

[1] *انظر مشروع القومية العربية إلى أين ١٥٦ ــ ١٦٨.*

[2] انظر حضارة العرب ــ ٣٢٥، وراجع فيه (ص ٣٢٦).

بعض الإسبان تلك المكافأة للعرب التي تجلت قتلاً وقهراً، ولا سيما إبان ما سموه (حرب التحرير)، وإثر خروج العرب من الأندلس مخذولين من قِبل من لم يقدر حضارتهم، ولا سيما حين تجاهل أغلب الغرب والإسبان ما قدمه لهم عهد عبد الرحمن الناصر وما أفادوه من المؤلفات العربية مثل مؤلفات ابن رشد وابن خلدون، ولم يبصروا دلالة غرناطة وقصر الحمراء على مفهوم التفاعل والتحضر والارتقاء... بل شرعوا يغذون أطفالهم بكل حقد على العرب المسلمين، ويشوهون كل قيم الخير والأخلاق التي حملوها إلى الأسبانيين ومن ثمة خططوا لاحتلال المغرب العربي بمساعدة الدول الأوربية ولا سيما فرنسا وألمانيا[1]. ولعل قصة (حكايات إسبانية) للكاتبة (أ. خيمينييث لاندي) من أبرز ما كتبه الغرب في هذا المجال... فقد ظهر العربي المسلم المجاهد في كل حكاية من حكاياتها كافراً غادراً، مهووساً بالقتل من أجل المال والنساء...[2]، على حين أن هناك فرقاً كبيراً بين ما قدمه العرب المجاهدون وبين ما كافأهم الإسبان عليه...

ومن ثم أخذت تظهر في الغرب بعد القرن السابع عشر مؤلفات غربية مشبعة بالعنصرية والحقد على العرب والمسلمين، ويكفي أن نشير إلى كتاب شاتوبريان (١٧٦٨ ــ ١٨٤٨م)، (رحلة من باريس إلى القدس)، وكتاب غوستاف فلوبير (١٨٢١ ــ ١٨٨٠) (مراسلات)، الذي طبع للمرة الأولى في سنة (١٩٢٢م)؛ لا سيما الفصل الخاص فيه (رحلة إلى الشرق)[3].

فهذه المؤلفات وأمثالها امتداد طبيعي لمؤلفات الغرب في الحروب الصليبية في القرون الوسطى... وهي مؤلفات نالت من رجل الدين الإسلامي والمسيحي العربي على السواء... فرجل الدين المسيحي العربي القبطي عند فلوبير مدعاة للسخرية الشديدة وعدم الاحترام... بينما صورة المسيحي الغربي صورة متحضرة راقية؛ هدفه الدفاع عن المقدسات المسيحية في الشرق؛ وهي مقدسات فرط بها رجل الدين المسيحي العربي لحساب المسلم كما تزعم تلك المؤلفات.

---

[1] *انظر صفحات من الجهاد والكفاح العربي ضد الاستعمار ــ ص ٣٥ و ٤٢ ــ ٤٦ و ٨٢ ــ ٨٥.*

[2] *انظر: صورة المسلم في قصص الأطفال الإسبانية (حكايات أسبانيا) أنموذجاً.*

[3] *انظر صورة العربي في الكتابين المذكورين، د. أميرة عيسى.*

هكذا بلغ التشويه والحقد مداه في الذهن الغربي لفكرة الجهاد، ولصورة العربي المكافح من أجل وجوده وحريته وعقيدته. وهو تشويه ينطوي على مرجعيات فكرية إيديولوجية، ومادية، ولا سيما ما يتعلق بالمرجعية الدينية التوراتية...

فالصورة الغربية الشمولية والمركبة والمشوهة والظالمة لفكرة الجهاد عند العرب والمسلمين إنما هي نتاج فكري تاريخي طويل الأمد تشكل على مراحل عدة وتأثر أيما تأثر بأدبيات الصهاينة وعقائدهم خاصة، لما يملكونه من نفوذ واسع ومتنوع في أمريكا وأوروبة... ومن ثم يسدُّ الغرب أذنيه، ويغطي عينيه عما يفعلونه من جرائم ضد الإنسانية، وهي جرائم تخالف الاتفاقيات الدولية ولا سيما اتفاقية جنيف الرابعة (المؤرخة في ١٢/٨/١٩٤٩م) والبرتوكول الملحق بها في التاريخ نفسه... ثم يمعن الغرب الاستعماري في سد أذنيه لكي لا يسمع ما يتبجح به حاخامات الصهاينة، في فلسطين المحتلة. فحين قتل مستوطن يهودي طفلة فلسطينية أصدر الحاخام (مردخاي إلياهو) فتوى يقول فيها: "إن المستوطن الذي قتل الطفلة العربية عائشة لا يعتبر قاتلاً ولا يجوز محاكمته استناداً للديانة اليهودية"[١]. فالغرب عكس الصورة وجعل العربي قاتلاً وشاذاً وإرهابياً متأثراً بما يؤسسه الفكر الصهيوني في أذهان أبنائه... ولعل سميح القاسم قد بين تصوير الفكر الصهيوني للعربي. فهو "رجل أشعث، حاد النظرات، غدار يخفي في ثيابه خنجراً رهيباً، لا تكاد تدير ظهرك حتى ينقض عليك بطعنة نجلاء، متخلف قاس، همجي، هوايته القتل، سادي، قاتل أطفال، جبان، رعديد، كذاب، منافق، قذر، ساخط، لئيم، حقود..."[٢]... وهذا قليل من كثير في تصوير الفكر الصهيوني للعربي كما ظهر في عدد من المؤلفات، ومنها تلك التي ألفها كتاب يهود مثل (إيهود بن عيزر)[٣]... ومن ثم فالفكر الغربي يتغذى من الفكر اليهودي في كتبه الدينية، التي عززت فكرة العنصرية والعداء عند الغربي للعرب والمسلمين، وهذا ما انتهى إليه الدكتور عبد الوهاب

---

[1] *مجلة الكفاح العربي (عدد ٨١٥)، ص ١٤.*

[2] *أضواء على الفكر الصهيوني ١٥٥ وانظر كتاب (الأدب الصهيوني وتضليل الرأي العام).*

[3] *انظر كتابه بعنوان (صورة العربي في الأدب العبري) ترجمة د. أحمد حماد ــ ولاسيما ص ٤٧-٥٦.*

المسيري[1]. فقد امتزجت التربية اليهودية ومن ثم التربية الغربية بالفكر الإيديولوجي القائم على أرضية عنصرية متنوعة من التوراة والتلمود... ووجهت سموم حقدها إلى العرب والمسلمين في عقيدتهم وحياتهم وقيمهم وعاداتهم؛ وربطت بين تخلفهم وبين الإرهاب إمعاناً في التزوير والتشويه[2].

وبناء على ما تقدم؛ فإننا نشهد في كل لحظة حالة من تزوير الحقائق التاريخية ليس لفكرة الجهاد فقط وإنما لكل القيم العربية والإسلامية؛ وللعرب والمسلمين أنفسهم في أخلاقهم وسلوكهم وثقافتهم وعقيدتهم... فالغرب الأمريكي الصهيوني والأشرار من أوروبة يجهدون لقلب الحقائق وتشويه صورة الإسلام ونعته بصفة الإرهاب والقتل والتخلف إذ راحوا يلصقون به مصطلح ( الإسلاموفوبيا) لتعزيز فكرة الخوف في النفس البشرية من الإسلام ومصطلح (الفوبيا) ويعني (الرهاب) و (العنف) و (الخوف). وهو مصطلح يرجع في أصوله ومفاهيمه إلى ما يعرف بعلم الأمراض النفسية التي تثير تصرفات عصابية قهرية. ولعل أفضل أسلوب لذلك ما شهدناه من إصرار الغرب على وصم الإسلام بأنه فاشستي، وبأن مفاهيمه متخلفة، أو معادية لحرية الإنسان، ومن ثم تصوير النبي الكريم بأبشع الصور، للإساءة إليه من جهة ولبث الرعب في نفوس الغربيين من جهة أخرى[3] وقد سخَّرت الولايات المتحدة كل ما تملكه هي وحلفاؤها لتشويه صورة العرب والمسلمين، وطفقوا يركزون قوتهم الظالمة عسكرياً وتقنياً وإعلامياً واقتصادياً لإثبات ذلك، ولا سيما بعد وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول (٢٠٠١م)، إذ أعلن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية جورج بوش الابن بداية جديدة للحروب الصليبية دون أن يردعه خلق أو حق... وأطلق عبارته المشهورة (من لم يكن معنا فهو ضدنا) وجيش الجيوش والدول التي فتكت بجسد الأطفال والأبرياء في كل مكان، محاولاً إقناع العالم بأن كل مسلم إرهابي ــ وكاد ينجح ــ بينما هو يزرع الخوف والرعب في نفوس البشرية... فوحشية الجيش الأمريكي في أفغانستان والعراق لا مثيل لها في الوصف.

ولهذا وذاك نتساءل: كيف يستقيم حال العرب والمسلمين وموقف أمريكا والصهيونية على تلك الشاكلة؟ كيف يستقيم حالهم والمجرم شارون ثم أولمرت

---

(1) *انظر الإيديولوجية الصهيونية ٢٠ ــ ٢٢ و٥٠ ــ ٦١ و١٢٤ ــ ١٥٣ و٢١٢ ــ ٢١٤، وراجع كتابنا مشروع القومية العربية إلى أين ١٦١ ــ ١٦٦.*

(2) *انظر مشروع القومية العربية إلى أين ١٤١ وما بعدها.*

(3) انظر ظاهرة الإسلاموفوبيا ــ قراءة تحليلية – ٣١ –٣٥ و ٤٧ –٤٩.

قد تلقى الدعم من أمريكا وأشرار العالم، حتى غدا شذاذ الآفاق يمارسون في فلسطين المحتلة كل لحظة أبشع أنواع الجرائم بحق الإنسانية والإنسان...ويزعمون أنهم دعاة سلام وتحضر؛ لم يسلم من فسادهم وحقدهم حجر ولا مدر ولا شجر ولا طفل ولا شيخ؟!! ولم يتفوق عليهم في الحقد على العرب إلا الزمرة اليمينية المحافظة بقيادة بوش الابن الذي وجه جيشه إلى احتلال العراق في (٢٠/٣/٢٠٠٣م) وعاث فيه قتلاً وتدميراً وحصاراً وسرقة لخيراته إلى أن وقع في الأسر في (٩/٤/٢٠٠٣م). وما زال شعب العراق يعاني الأمرين حتى الساعة؛ إذ فقد من أبنائه ما يزيد على (٧٠٠) ألف حتى (١/٥/٢٠٠٧م) على حين هربَ من ظلم ذلك الاحتلال إلى مختلف دول العالم ما يزيد على (٧) ملايين منهم أربعة ملايين في الدول المجاورة للعراق.

ولهذا نتساءل: كيف يستقيم أمر العرب والمسلمين وهم يئنون تحت ضربات الغزو الثقافي والعسكري الغربي والأمريكي والصهيوني؟ ثم إن بعض العرب يطالب بالتعايش المشترك مع الصهاينة؛ بل هناك قسم آخر قبل علناً بحماية أمريكا التي جاءت للتحكم بمقدرات الأرض العربية ووجودها. أما موقف الإدارة الأمريكية المحافظة بقيادة بوش الابن فكان صريحاً في عدائه للعرب والمسلمين، ولكنه لم يؤثر في توجهات بعض الحكومات العربية، علماً بأنه لم يعد يخفى على أحد تصريحات تلك الإدارة في هذا الشأن إذ أعلنت بجلاء أن الخطر القادم على أمريكا والغرب يتمثل بالإسلام..

لذلك كلّه نقول: لا يستقيم الظل والعود أعوج، فلا بد من العودة إلى التمسك بقيم الجهاد، وكينونة الوجود الإنساني الفاعل... ولا سبيل لرد أي قهر أو بغي أو اعتداء بغير ثقافة المقاومة وتأسيس الوعي والعمل بها؛ إذ لا مناص لأمتنا عنها... لأنه كما يبدو لنا بكل وضوح أنها أضحت ضرورة حتمية ووجودية وهذا ما يعرض لـــه الفصل الثاني الذي يتناول ( المقاومة: الفكر والجدوى).

# الفصل الثاني:

## المقاومة (الفكر ـ الجدوى)

١ ـ قراءة في مبدأ المقاومة

٢ ـ مكونات المقاومة وأركانها

١ ـ البعد العاطفي

٢ ـ البعد الاجتماعي

٣ ـ البعد التاريخي ـ الثقافي

٤ ـ البعد القومي الإنساني الحضاري

٣ ـ المقاومة حرية وسيادة وكرامة

٤ ـ المقاومة ومشروع الهيمنة الأمريكية ـ الصهيونية

٥ - المقاومة الوطنية اللبنانية وثقافة الوعي بالوجود الوطني



# المقاومة الفكر والجدوى

## ـ قراءة في مبدأ المقاومة

أياً كان أمر المقاومة ونوعها فإنها أصل الدفاع عن الذات باعتبارها ضرورة وجودية، لأنه لا بد من مقاومة أي معتد مهما كانت قوته البدنية والمادية و... فإذا أخذت طبيعتها منحىً عقلياً إرادياً فإنها في مثل هذه الحال، **فعل إنساني إرادي واعٍ ومسؤول للحفاظ على الوجود والعيش بكرامة وحرية**.. أي إن المقاومة الإنسانية ليست مجرد مجابهة غريزية للعدو الغازي، وليست مجرد عنف للعنف، إنها دفاع إنساني مشروع عن الحياة ضد من يعمل على قتلها، واجتثاث القيم الإنسانية النبيلة، هذا ما شهدت به ثورة الجزائر ضد المحتل الفرنسي الذي دام ما يزيد على /١٣٠/ سنة منذ عام (١٨٣٠م)، والتي قدمت الجزائر ما يربي على المليون شهيد وكذلك كانت مقاومة أوربا للاحتلال النازي[(١)].

وقد أكد ميثاق الأمم المتحدة في المادة /٥١/ حق الدفاع عن النفس " إذا اعتدت دولة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة"، ونص قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم (٣٣٨٢) تاريخ (١٩٧٥/١٢/١٠م) على ما يأتي: " تؤكد الجمعية من جديد شرعية كفاح الشعوب في سبيل الاستقلال والسلام

---

(1) انظر الاحتلال الإسرائيلي وشرعية المقاومة ٨٢ – ٩٢.

الإقليمي والتحرر من السيطرة الاستعمارية بجميع الوسائل أيضاً، بما فيه الكفاح المسلح"[1].

وهذا يعني أن المقاومة ضد المعتدي الظالم والغاصب للإنسان وحقوقه أمر مشروع وضرورة لازمة في الشرائع والقوانين، والمبادئ والقيم الأخلاقية، وقد أكدته الديانات السماوية وشرعة المنظمات الدولية وهيئاتها.

**٢ ـ مكونات المقاومة وأركانها:**

في ضوء ما تقدم يمكن أن نؤكد أن المقاومة فعل فطري وإرادي واعٍ ومسؤول للدفاع عن الوجود والهوية والأرض، ولكن هذا الفعل يتخذ أبعاداً شتى لأنه لا يرتبط فقط بالإنسان المجرد، على اعتبار أنه لا يمكن أن يكون معلقاً بالفراغ.

فأي إنسان، وكذلك بقية المخلوقات الحية تحقق كينونتها الفاعلة والإيجابية من خلال المكان /الوطن الذي تولد فيه وتنشأ؛ لتصبح العلاقة بين المخلوق والوسط الذي يتصل به، والعادات والتقاليد التي تنشأ فيه علاقة انتماء ذات خصوصية عاطفية واجتماعيّة وتاريخية مميزة لها من غيرها، وتبقى هذه العلاقة مميزة للجماعات البشرية من بقية المخلوقات.

وبهذا يتشكل من خلال الهوية والانتماء علاقة وطيدة بين المقاومة وبين الدفاع عن الذات والوطن بكل مكوناته الأصيلة، والموحية بالأبعاد المشار إليها وهي:

١ ــ **البعد العاطفي:** وفيه تشترك المخلوقات كلها ــ غريزة ــ في التعلق بالوطن الذي تنتسب إليه، وتدافع عنه بسائق القانون الطبيعي، باعتباره دفاعاً عن كينونتها ذاتها كما نجده عند أضعف الحيوانات وأقواها كالأسود وغيرها... فالإنسان كغيره يولد بفطرته ولديه قوة التمسك بالحياة، وهي التي تدفعه إلى مقاومة أي أذى يصادفه أو يوجه إليه سواءً كان من صديق أو عدوٍّ.

ولهذا فإن طبيعة الوجود في الحفاظ على البقاء هي التي تدعو الإنسان إلى اتخاذ الأسباب التي تكفل لــه العيش الكريم في أرضه التي ولد فيها ونشأ، مهما

---

[1] انظر الاحتلال الإسرائيلي وشرعية المقاومة ٥٠-٥٦، و ٩٩- ١٠٦.

كانت الإمكانيات والأدوات التي يملكها. ولكن غريزة حب البقاء ليست قوة غاشمة وعدوانية، على اعتبار أن أول فطرة للإنسان والمجتمع تستند إلى مبدأ الحرية والمساواة الممثلة في الطبيعة، وفق ما ذهب إليه (جون لوك ــ ١٦٣٢ــ ١٧٠٤م). فالإنسان ينمي حريته دون أن يقصد إلى إيذاء حرية الآخرين[1]. وبمعنى آخر إن البعد العاطفي الطبيعي عند الإنسان لا يمثل الصورة الذئبية للقوة الطبيعية في افتراس حرية الآخر، وفق ما نراه عند عدد من الأنظمة السياسية، والدول الراغبة في الهيمنة والاحتلال، فالعقل الحر يلتمس السيطرة على قوة الغريزة المطلقة التي تؤدي إلى شريعة الغاب. ولكن هذه الشريعة نفسها تفرض على كل مخلوق تحقيق وجوده بالدفاع عنه بمختلف الوسائل المتاحة لكل مخلوق؛ لهذا يلجأ الثعلب الضعيف إلى قوة الحيلة لديه؛ بينما يعتمد الأسد على مواجهة الفريسة دون تردد أو خوف. وتبقى القوة المادية تقف في طليعة الأدوات التي يستعملها الإنسان للحفاظ على الحرية لقولــه تعالى: { وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم} ( الأنفال ٦٠/٨) وقولــه تعالى في خطابه إلى يحيى (υ): { يا يحيى خذ الكتاب بقوة} (مريم ٢١/١٩).

٢ ــ **البعد الاجتماعي:** لا مراء في أن هناك اشتراكاً في مفهوم ارتقاء المقاومة عن الوطن والوجود بين الإنسان والحيوان. فالحيوان يدفع الأذى عن أسرته ومكانه الذي ينتسب إليه، بسائق غريزي يدل على نمط من المودة والألفة، بيد أن هذا الدفاع يتخذ لدى الإنسان أشكالاً راقية من ثقافة الوعي بالوجود والانتساب إلى المكان الذي يكتسب في بعده الاجتماعي مشاعر مرهفة وحارة. فالعلاقة العاطفية الاجتماعية التي تنشأ بين الأسر الإنسانية تختلف عن تلك التي تنشأ بين اللبوة وأولادها؛ أو بين النعام وفراخها، أو.. أي إن علاقة الارتباط بالمكان علاقة حب سامٍ مجبول بالذكريات الاجتماعية لمجموع الكتل البشرية التي ولدت ونشأت فيه، وتعاونت على الخير، وكوّنت لنفسها قوة خاصة لمواجهة كل أشكال الشر والأخطار. ومن ثم تتفاوت المكونات الاجتماعية بين مجموعة وأخرى تبعاً لطبيعة التربية الاجتماعية والعادات والتقاليد، والثقافة الإنسانية المتسامحة، والتاريخ الذي أصل قيم الاحترام للآخر.

---

[1] *انظر بذور الفتنة الطائفية في لبنان* ١/ ٣٠ ــ ٣٢.

فإذا كانت المقاومة ضد الكوارث الطبيعية ضرورة وجودية فإنها تغدو في المفاهيم الإنسانية دفاعاً مشروعاً عن الذات والجماعة والأوطان والمقدسات والهوية والحقوق. فالعادات والتقاليد والأعراف المكتسبة تضاف إلى الشكل الطبيعي المألوف في المكان والزمان لتنتج نوعاً من التجانس في القيم والمبادئ، واستخدام القدرات التي يملكها المجتمع أو الدول... ومن ثم فإن العلاقات الاجتماعية المتجانسة والمتحابة ترفع درجة الالتزام بين أفراد المجتمع الواحد، ما يؤدي إلى مفهوم الواجب في مقاومة كل من يعتدي على أحدهم، وهذا ما تجلى من قبل في مفهوم الدفاع عن القبيلة، ثم الدولة والأمة... أي إن المحبة الاجتماعية تورث عقداً اجتماعياً للدفاع عن كينونتها تجاه كل من يؤذيها، ليصبح هذا الدفاع ممثلاً لنبل القيم وصفاء الروح وعظمة الصداقة والتعاون. ومن ثم فإن المقاومة ضرورة اجتماعية للحفاظ على الأرض والأسرة والعلاقات الروحية التي تنشأ بين أفراد المجتمع، كما نستشفه من حديث رسول الله: " من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد"[1]. وهذا الحديث يشير إلى ضرورة الدفاع عن القيم الاجتماعية التي تنشأ في مجتمع ما للحفاظ عليها وعليه على الرغم من وجود الأنماط الشاذة من أشكال التعامل الاجتماعي والأخلاقي، مثل الأنانية، والحسد والحقد؛ والنفاق والكذب... بيد أن مثل هذه الأنماط السلوكية تتحطم أمام الخطر الأكبر الذي يهدد المجتمع، والوطن بأكمله...

٣ ــ **البعد التاريخي ــ الثقافي**: الفعل الوجودي فعل تاريخي ثقافي واجتماعي وروحي يتميز بخصائص تميز كل أمة من الأخرى؛ ما يجعل المقاومة تتمسك بالمواطنة والتزام الهوية القومية غير المنقطعة عن الصلة الإنسانية وهي في النهاية موقف يتخذه أصحابها من الحياة، وكل ما يحيط بها وفق الفعل المضاد.

ومن يتلمس تاريخ العرب القديم والحديث يدرك أنهم ليسوا هواة اعتداء على الآخر؛ وإنما كانوا على الدوام يدفعون عن أنفسهم الضيم والقهر والظلم

---

[1] *الجامع الصغير ٢/٥٤٤ وانظر صحيح البخاري ٣/١٧٩.*

والغزو. فتاريخهم الوجودي أسس مفاهيم الإخاء والمسامحة والعفو والسلام ونشر المحبة والألفة قبل أي مفاهيم أخرى، ما جعله يكوّن خصوصية فريدة للمقاومة من خلال الابتعاد عن القتل للقتل، والعنف للعنف، أو ظلم الآخر والاعتداء عليه [1].

هذا ما تجلى في شرائعهم التاريخية منذ العهد البابلي والسومري حتى العصر الحديث. وتشهد بذلك كله شريعة حمورابي، وقيم العرب في الجاهلية التي تعاظمت فيها مفاهيم إغاثة الجار، وحماية المستغيث ونصرة الضّعيف، على الرغم من وجود القبائل المتحالفة فيما بينها لرد الظلم عنها، علماً بأن العرب لم يكونوا يتقاتلون فيما بينهم على الماء والكلأ والأرض إلا من أجل البقاء. وإذا نشب القتال فيما بين عشائرهم وقبائلهم وقتل أحدهم الآخر ــ لأنه ظلمه ــ بكاه بكاء مراً. أي إن التفاعل الاجتماعي التاريخي الإنساني يجعله يندم على ما اقترفت يداه، ما يعني أن هذا التفاعل يستند إلى جملة العلاقات الروحية والثقافية التي قوَّت مركزية التجاذب فيما بينهم. ولا شيء أدل عليه من قول قيس بن زهير العبسي الذي قتل حذيفة بن بدر الفزاري وأخاه (حملاً) ثم وقف على جثتيهما يبكيهما قائلاً[2]:

شفيت النفس من حَمَلِ بن بدرٍ     وسيفي من حُذَيفْةَ قد شفاني
فإن أَكُ قد بَرَدْت بهم غليلي     فلم أقطعْ بهم إلا بَناني

ولعل ما عرفت عندهم بالمنصفات الشعرية يثبت عظمة ما وصلوا إليه من القيم الإنسانية رحمة ورأفة وتسامحاً، إذ كان أحدهم يصف بطولة خصمه بمثل ما يصف بطولة قومه، كقول المفضل النكري[3]:

مشينا شطرهم ومشوا إلينا     وقلنا: اليوم ما تُقْضَى الحقوق
وكم من سيّد منّا ومنهم     بذي الطَّرْفاء منطقه شهيق

---

(1) *هذا ما سينهض به الفصل الرابع من هذه الدراسة.*

(2) *انظر كتابنا ((الرثاء في الجاهلية والإسلام)) ص١٨ ــ دار معد للطباعة، دمشق ــ١٩٩١م.*

(3) *انظر الأصمعيات ــ ص٢٠١-٢٠٢ ــ تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ــ دار المعارف بمصر ــ القاهرة ــ ط٤ ــ ١٩٧٦م.*

ومَنْ يتعقب مثل هذه الظواهر في الأدب العالمي فلن يجد لها أثراً بينما هي شائعة في الأدب العربي ما يعني أن العرب لا يقدمون على القتل والاعتداء حباً بهما، وإنما وقع منهم ذلك بفعل مقاومة الظلم والاعتداء عليهم.

ثم نَمَتْ مفاهيم المقاومة وتعددت بعد انبعاث الرسالة المحمدية، في إطار مقاصد الشريعة الخمسة وهي ( حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل [١] ووفق قولــه تعالى: { كُتِب عليكم القتال؛ وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شر لكم } (البقرة ٢١٦/٢) وقوله تعالى: { أُذن للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا، وإن الله على نَصرهم لقدير} ( الحج ٣٩/٢٢) [٢].

ثم تطوّرت مفاهيم الدفاع عن الذات والوجود والوطن والهوية والثقافة والأمة من خلال الجهاد الذي فرض على المسلم درءاً للظلم والمفسدة، أو مقاومة للغزو والاستعمار وإذا كان لا بد من قتال العدو فإن الإنسان مأمور بأن يكون قتاله دفعاً للشر والقتل، وليس سبيلاً للإيذاء لمجرد الإيذاء وهذا ما تجسَّد في وصية الخليفة أبي بكر لجيش أسامة بن زيد حين توجه إلى قتال الروم، ومما ورد فيها: " يا أيها الناس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تُغلّوا، ولا تغدروا، ولا تُمَثّلوا، ولا تقتّلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم لـــه.. اندفعوا باسم الله"[٣]، وما زالت فكرة الجهاد تكتسب فكراً متجدداً إلى أن وصلت إلى العصر الحديث في حروب الاستقلال فغدت مقاومة ومحاربة الاستعمار وكل أنماط الغزو، كفاحاً تحررياً بكل الأساليب المتاحة الأدبية والثقافية والفنية والسياسية والعسكرية والإعلامية...

---

(1) *انظر في أصول الشريعة، لأبي إسحق الشاطبي ــ ج٨/٢ تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي ــ المكتبة العربية ــ صيدا ــ بيروت ــ ٢٠٠٤م.*

(2) *راجع ما أثبتناه في الفصل الأول حول فكرة الجهاد في العقيدة الإسلامية.*

(3) جمهرة *خطب العرب ١٨٧/١.*

ولعل التشبث بالأرض والدفاع عنها وجه آخر من المقاومة كما نجده عند سميح القاسم في قصيدته (خطاب في سوق البطالة)، ومنها[1]:

**ربما أفقد ــ ما شئت ــ معاشي**

**ربما أعرض للبيع... ثيابي وفراشي**

**ربما أعملُ حجّارا**

**وعتالا**

**وكنّاس شوارع!!**

**ربما أخدم... في سوح المصانع**

**يا عدو الشمس... لكن... لن أساوم**

**وإلى آخر نبض في عروقي**

**سأقاوم.**

فكل نمط فكري وثقافي وفني مقاوم يجسد حقيقة الأرض المعطاء، وإخلاص الانتماء إليها على اعتبار العلاقة الجوهرية الفاعلة بين الأرض والوجود والمصير من جهة، وارتباط المقاومة الفردية والجماعية بالمجتمع وهوية الأمة وثقافتها من جهة ثانية. لهذا يرى غسان كنفاني في كتابه (الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨ ــ ١٩٦٨م) أن "الشكل الثقافي في المقاومة تحت الاحتلال ليست ــ أبداً ــ أقل قيمة من المقاومة المسلحة ذاتها"[2].

وهو الشكل الثقافي المقاوم الذي أخذت تنتظم فيه المقاومة العراقية، حتى صار هناك ما يسمى بأدب المقاومة في العراق، ما يذكرنا بأدب المقاومة في فلسطين.

وإذا ما انتقلنا إلى المكون الرابع فإننا لا نتغافل عن أنماط المقاومة الكثيرة مادياً ومعنوياً ولاسيما ما يتعلق بإيجاد إعلام مقاوم متمرس بالمعرفة وخبير

---

[1] *الأعمال الكاملة ــ ١ / ٩١ ــ المجلد الأول ــ دار الجيل ــ بيروت ــ ١٩٩٢م.*

[2] *انظر الآثار الكاملة ــ ص ٢٠٣ ــ الدراسات ــ ١٩٦٨م.*

بالتقنيات ومجبول بالثوابت الوطنية والقومية البعيدة عن كل أشكال الخنوع والاستسلام.

**٤ ـ البعد الوطني ـ القومي ـ الإنساني الحضاري:**

اتضح لنا أن الفكر المقاوم عند العرب والمسلمين لم يكن مجرد رد فعل غريزي وعاطفي واجتماعي وتاريخي ضد الآخر ولم يكن اعتداء على هويته وثقافته ووطنه /محله الذي ولد فيه ونشأ وإليه انتسب، ولكنه كان يحمل في مكوناته بعداً إنسانياً وحضارياً وهو يمارس الدفاع عن وطنه وأمته.

ولعل هذا المكون قد نضج وارتقى في عهد الرسالة الإسلامية وتعاليمها الخيرة والإنسانية الفاضلة، فأكسبها خصوصية لا نظير لها في التاريخ البشري، سواء أكان ذلك في المقاومة الإيجابية أم السلبية، السياسية السلمية أم العسكرية والمادية. ولا شيء أدل على هذا كله من مقاومة الرسول الكريم لمشركي قريش، وصبره عليهم في (الطائف) و(مكة) وصولاً إلى (صلح الحديبية) و(فتح مكة) وانتهاء بما قام به الخلفاء بعده في العهد الراشدي والأموي والعباسي إبان الفتوحات العربية لبلاد فارس وما وراءها. وهنا نشير إلى ما جرى في فتح قتيبة بن مسلم لسمرقند وبخارى.. وحكاية خروج الجيش من سمرقند مشهورة. وكان قتيبة قد فتحها دون أن يعرض على أهلها ما يفرضه عليه دينه الإسلامي، فخرج الجيش بناء على فتوى القاضي الإسلامي، ما جعل أهلها يتقبلون الدين بكل محبة ورضا، ويصبحون دعاة فيه لنشره بين الناس. ولعل ذلك كله يثبت أن فكرة المقاومة في إطارها الوطني والإنساني الحضاري عند العرب والمسلمين تستند إلى مفاهيم روحية وأخلاقية وإنسانية لتحقيق حرية كل فرد منهم في الوقت الذي تحفظ وجود الآخر وتمتنع من أن تنال من سيادته واستقلاله؛ ما يجعلنا نفهم شيوع كلمة (السلام) بينهم وبين من يتلقونه عدواً كان أم صديقاً، إذ يستقبلونه بها صديقاً كان أم عدواً، ما يعني أن السلام الذي نشير إليه يختلف عن مفهوم خيار السلام الذي انحاز إليه العرب، باعتبارهم الطرف الأضعف في معادلة الصراع العربي ــ الصهيوني، ويخالف مفاهيم الاستسلام التي اغتالت كل المعطيات الإيجابية للمقاومة بما فيها ثقافة التطبيع، وإقامة

الندوات والمؤتمرات بين المثقفين العرب والصهاينة بحجة مبادئ الحرية والديمقراطية والانفتاح على العدو لتحقيق السلام[1].

إذاً، ظل هذا البعد يتعمق ويرتقي في النفس العربية، إذ أكد العصر الحديث والمعاصر ارتباط العربي بوطنه وأمته وقيمها، وهو ارتباط منفتح على الكون الإنساني دون أن نستثني بلداً عربياً؛ على حين أكد العصر الحديث أيضاً إصرار الغرب على استعمار الوطن العربي وتجزئته، كما يثبته الفكر الغربي منذ مطلع القرن العشرين، وهو الفكر الذي أسس لمشروع الشرق أوسطية الذي عرف على نحو واضح في المخططات التي أُعدّت للوطن العربي. فالضابط البحري الأمريكي، والإنكليزي الأصل، (ألفرد ماهان) وضع نظريته الجيوستراتيجية عام (١٩٠٢م) وأكد فيها (تأثير القوة البحرية في التاريخ) ولا سيما في (الشرق الأوسط) الذي استعمله في هذه النظرية. وكذلك أوضح الرئيس الأمريكي (روزفلت) عام (١٩٠٣م) نظريته التوسعية في الوطن العربي إذ قال: "أيها الأمريكيون احملوا عصا غليظة وسيروا بعيداً من أجل أمركة العالم"[2].

ثم بدأ تعميم مصطلح (الشرق الأوسط) الذي يختص بدول المنطقة بما فيه الوطن العربي مع النشاط الصهيوني الساعي إلى إقامة الدولة اليهودية اللقيطة على أرض فلسطين وتقسيم أبناء العروبة إلى شعوب متباينة الأنظمة والمذاهب. ثم انتقل المصطلح إلى الدراسة العلمية فأصدر (هاملتون) سنة (١٩٠٩م) كتابه بعنوان (مشاكل الشرق الأوسط).

ولا ننسى أن الزعيم الصهيوني (تيودورهرتزل) قد تحدث كثيراً عن الشرق الأوسط الذي تكون فيه الدولة اليهودية المزعومة قائدة فيه[3].

ثم استجابت المخططات الأوربية لكل تطلعات الفكر الغربي الاستعماري التي تعمل على مواجهة المشروع القومي العربي النهضوي وفي طليعتها ما عرف

---

[1] *انظر الفصل الرابع (ثقافة المقاومة بين السلام والاستسلام).*

[2] *انظر (الشرق أوسطية من المصطلح إلى المشروع السياسي) ـــ مجلة المعلم العربي ـــ وزارة التربية ـــ دمشق ـــ العدد (١+٢) السنة ٥٨ ـــ لعام ٢٠٠٥م ـــ ص ٧ ـــ ١٤.*

[3] *انظر (الشرق أوسطية من المصطلح إلى المشروع السياسي) ـــ مجلة المعلم العربي ـــ وزارة التربية ـــ دمشق ـــ العدد (١+٢) السنة ٥٨ ـــ لعام ٢٠٠٥م ـــ ص ٧ ـــ ١٤.*

بوثيقة (بنرمان) الصادرة سنة (١٩٠٧م)عن اللجنة الأوروبية الاستعمارية المعروفة باسم (كامبل بنرمان) رئيس وزراء بريطانيا (١٩٠٥–١٩٠٨م). والمشكلة من سبع دول أوروبية. وهي قمة المخططات الأوربية الطامعة إلى تحقيق السيطرة على الأرض العربية، دون أن ننسى لحظة واحدة الأطماع السابقة لأوربا في مشرق الوطن العربي ومغربه منذ القرن التاسع عشر. ولعل كتاب (صفحات من الجهاد والكفاح المغربي) قد أرخ لذلك كله فأغنانا عن تكراره[1]. وقد وضعت تلك اللجنة وثيقتها التاريخية المرعبة التي رسمت السياسة الاستعمارية للوطن العربي وتفتيته؛ إذ أكدت هذه الوثيقة أن الوحدة العربية؛ ــ إذا استمر الوعي القومي لدى العرب بالارتقاء كما هو عليه في القرن التاسع عشر ولا سيما بعد دعوة المفكر العربي نجيب عازوري ومعاصريه من مفكري الفكر القومي ــ ستتحقق حتماً، علماً بأن إعلان (آيزنهاور) في (آب ١٩٥٨م) جاء رداً على الوحدة السورية المصرية. ويمكن أن نذكر أبرز ما جاء في وثيقة (بنرمان): "في هذه البقعة الشاسعة يعيش شعب واحد تتوفر لــه من وحدة تاريخه ودينه ووحدة لسانه وآماله كل مقومات المجتمع والترابط والاتحاد، وتتوفر لــه في نزعاته التحررية وفي ثرواته الطبيعية، ومن كثرة تناسله كل أسباب القوة والتحرر والنهوض... وإن خطراً على الاستعمار إذا توحدت الأمة وإذا تقدمت صناعياً".

**ويخلص تقرير اللجنة إلى ما يأتي:**

١ ــ "على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزئة هذه المنطقة وتأخرها وإقامة دويلات تابعة للدول الاستعمارية.

٢ ــ وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تأخر وجهل وضعف.

٣ ــ ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقي في هذه المنطقة عن الجزء الآسيوي، وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشري قوي غريب يتمتع بالقوة على المنطقة، يحتل الجسر البري الذي يربط أوروبا بالعالم القديم، ويربطها معاً بالبحر الأبيض المتوسط، بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة".

---

[1] *انظر صفحات من الجهاد والكفاح المغربي ضد الاستعمار ــ ص ٢٠ ــ ٤٦.*

٤ ــ منع قيام اتحاد روحي أو ثقافي أو تاريخي بين أبناء المنطقة ومحاربة أي شكل من أشكال الوحدة.[١]

إذاً، ركزت هذه اللجنة على بنود أساسية لتنفيذ ذلك، وفي طليعتها إيجاد أنظمة سياسية متجاورة متباينة في نظام الحكم، وإشاعة الفرقة الطائفية والمذهبية بين الشعب العربي، والعمل على تدمير اللغة العربية. ثم اتخذت الوسائل الكفيلة بتنفيذ ذلك من قِبَل الدوائر الغربية.

وكانت البداية إعلان اتفاقية سايكس بيكو (١٦/٥/١٩١٦م) ثم وعد بلفور (٢/١١/١٩١٧م) ثم الاحتلال الأوروبي كالاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان الذي بدأ باحتلال الساحل ١٩١٨م ثم استكمل في عام (١٩٢٠م). وقد فك الارتباط العضوي بينهما وفق اتفاقية (سان ريمو) بإيطاليا في (٥/٥ /١٩٢٠) ثم أصدر المفوض السامي الفرنسي قانوناً آخر يقضي بتشكيل دولة مستقلة في الساحل منفصلة عن سورية ما أغضب الشعب ونادى باتحاد لبنان وسورية؛ كما في القول الآتي:[٢]

طغت فرنسا فصبّت سوط نقمتها ... في اللاذقية حتى صار بركانا

ما كان أغناكِ عنا لو فقهتِ إلى ... فرض انتدابكِ عدواناً وأغنانا

حاولت عزل سوريا وهل فصلت ... عنها العروبة سوريا ولبنانا

واستمرت الإجراءات الفرنسية بقطع أوصال سورية ولبنان[٣]، وأخذت بوضع دستور طائفي مذهبي معترف به للبنان عام (١٩٢٣م). ولم تكتف بذلك هي وغيرها من الدول الاستعمارية الأوربية بل سارعت إلى خلق مشكلات لكل بلد مع الآخر، فألحقت (إسكندرونة) بتركيا، و (عربستان) بإيران، ثم خلقت مشكلات عرقية هنا وهناك لتظل النزاعات بين دول المنطقة متأججة. أما وزير المستعمرات البريطاني (ونستون تشرشل) فقد أنشأ في آذار (١٩٢١م) إدارة خاصة للشرق الأوسط مهمتها الإشراف الدائم على تنفيذ مفهوم (الشرق الأوسط)

---

[1] *انظر ظاهرة الإسلاموفوبيا ــ قراءة تحليلية ــ ص ٤٧.*

[2] *جريدة الوحدوي ــ دمشق ــ تاريخ ١٥/٤/٢٠٠٧م/ العدد ٢٤٩.*

[3] *انظر بذور الفتنة الطائفية في لبنان ٧٢ ــ ٧٦.*

وتجسيده على أرض الواقع، وقد أوكل إلى هذه الإدارة مهمة الإشراف على شؤون (فلسطين والأردن والعراق). ومن ثم أنشئ في الحرب العالمية الثانية (قيادة الشرق الأوسط) ثم حددت ملامحه الإقليمية التي تعزز ضم الدولة اللقيطة إليه، ويضم (تركيا وقبرص وإيران والبحرين والكويت والعراق وسورية والأردن والإمارات واليمن) وفق (دائرة معارف العالم الأمريكية)، علماً بأن كل ما أشرنا إليه لا ينسينا ذكر مبدأ (ترومان) الذي ظهر عام (١٩٤٧م) والتوجه الأمريكي لتوسيعه في (١٩٤٩/١/٢٠م)[1].

ولما انتهت الحرب العالمية الثانية نشأ كيان صهيوني في فلسطين المحتلة عام (١٩٤٨م) وبدعم غربي كما رتّب لـــه في ضوء ما هو معروف للجميع. ولعل الأحداث التي وقعت في المنطقة قد وفّرت الظروف المناسبة لتنفيذ (مشروع الشرق الأوسط) وفق الرؤية الأوروبية والأمريكية والصهيونية، مثل الحرب العراقية ــ الإيرانية عام (١٩٨٠م) وحرب الخليج الثانية وتدمير العراق عام (١٩٩١م) وانعقاد مؤتمر السلام في مدريد (١٠/٣٠ ــ ١٩٩١/١١/٢م)، وعقد اتفاقية أوسلو في (١٩٩٣/٩/١٣م). فإذا أضفنا إليها انهيار الاتحاد السوفييتي الداعم للقضايا العربية تأكد لنا أن تنفيذ ذلك المشروع آخذ في التحقق[2].

وهاهوذا العراق يحتل من الجيش الأمريكي في (٢٠٠٣/٤/٩م) ثم قام المحتل الأمريكي بوضع دستور إثني عرقي طائفي مذهبي.

لذلك كله فُرضت المقاومة الوطنية والقومية على أبناء الأمة العربية؛ ما يعني أن المقاومة فرض عين عليهم جميعاً من أجل الحرية والكرامة، أياً كانوا فقراء أم أغنياء، ما داموا يحققون شرط الانتماء الأصيل الذي ينعم أهله فيه بوطنهم وبلادهم بالأمن والأمان والسعادة.

### ٣ ـ المقاومة حرية وسيادة وكرامة:

---

[1] *انظر الشرق أوسطية من المصطلح إلى المشروع السياسي ــ د. مجيدة بدور ــ ص ٩ ــ١١.*

[2] *انظر الشرق أوسطية من المصطلح إلى المشروع السياسي ــ د. مجيدة بدور ــ ص ٩ ــ١١.*

لعل أبرز ما يميز الفكر المقاوم، ويحقق الجدوى الخيرة فيه أنه ما وضع إلا لحرية الإنسان وتحقيق كرامته واستقلاله ليكون في وطنه سيداً وسعيداً، منتجاً وبانياً، وفق سيادة الحق والكفاءة والقانون. ولن يتحقق لـــه ذلك إلا إذا كانت لديه إرادة قوية تقف في ساحة المعركة صامدة للقضاء على كل ما يمكن أن يهدد الوجود الحر الكريم والهوية الذاتية الأصيلة. وحينما يخفت صوت المقاومة رسمياً وشعبياً فهذا يعني أن الفكر الدافع للمقاومة قد خفت في تأجيج العقول وتذكية المشاعر، ولم يعد قادراً على مجابهة صلف القدر والظلم والخبث والقتل، والاستعباد والاستعلاء، والعَوَز والفقر، والاحتلال والتهجير، والتدمير. لهذا تصبح المقاومة في سبيل ذلك ذات اتجاهات سلبية وغير فاعلة على الصعيدين الداخلي والخارجي، الفردي والجماعي. ولعل الفطرة السليمة لارتباط المقاومة بالحرية والكرامة تذكرنا بحادثة عنترة المشهورة مع أبيه، إذ كان عبداً ذليلاً في قبيلته حتى أتاها غزو خارجي، فما أبه عنترة العبد المظلوم لما جرى لها لأن العبد لا يحسن إلا الحَلْب والصَّر، فاستنجده أبوه وقال له قولته المشهورة: كر وأنت حر، فكرَّ منتصراً لحريته وقبيلته.

وتتجسد مقاومة الفساد والظلم، والاستبداد ومقارعة الغزو الخارجي لاحتلال الأرض وقهر الإنسان بكل أسلوب يتاح للإنسان ابتداء بالأسلوب الفردي والجماهيري الديمقراطي المادي وانتهاء بالأساليب السياسية والثقافية والأدبية والفنية والإعلامية و.. ويُصبح كل نمط فيها مشروعاً وفق مختلف الشرائع والقوانين الدولية. وهذا ما أكده قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم (٣٢١٤) تاريخ (١٩٧٤م) الذي شرّع حق الشعوب بالكفاح المسلح من أجل نيل الحرية والاستقلال وحق تقرير المصير. ونرى أن مقاومة الاحتلال بكل الأشكال المتاحة للشعوب وما تحقق على الصعيدين الوطني والقومي يثبتان أن العرب لم يخرجوا من التاريخ، في الوقت الذي أثبتا كذب نبوءة بعض الباحثين الأمريكيين التي أصرت على مفهوم تفوق الجنس الآري التي تلاقي نظرية أبناء (الشعب المختار)، فالنظرة الغربية نظرة استعلائية عدوانية وعنصرية وهي لا تختلف عمّا يتضمنه التوراة والتلمود الذي أنتج نمطاً من البشر العنصريين الذين لا يرعون حقاً ولا ميثاقاً للآخر، فمنهجهم العنف والحقد وسلوكهم القتل

والتدمير، مصداقاً لقوله تعالى: (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذّبوا وفريقاً يقتلون) (المائدة ٥/١٨١).

فاليهود على اعتبار زعمهم بأنهم (شعب الله المختار) جسّدوا الإله ممثلاً لأهوائهم كما ذكروه على لسانه ــ سبحانه ــ في التوراة: "إن امتثلتم أوامري وحفظتم عهدي فإنكم تكونون لي خاصة من جميع الشعوب"[١].

ومن ثم وجدنا (فرنسيس فوكوياما) يكتب كتابه المشهور (نهاية التاريخ والإنسان الأخير)[٢]، وفق تميّز الإنسان الغربي وكأنه صادر عن مشكلة العنصرية نفسها؛ ونحو ذلك موجود في كتاب (صدام الحضارات) لصموئيل هنتنغتون الذي أعلن فيه هزيمة الحضارة العربية، وكلاهما يرى أن ثقافة العولمة /الأمركة التي تقودها أمريكا قد غدت المنتصرة على غيرها[٣].

وبناء على ما تقدم فإن الإدارة الأمريكية المحافظة بقيادة جورج بوش الابن تسعى جاهدة إلى تزييف مقاومة الشعب العربي ونعتها بالإرهاب والعنف؛ ونعت أصحابها بالمارقين والمتمردين والإرهابيين الذين يهددون السلم الأهلي والبشري سواء كان ذلك في فلسطين أم لبنان أم العراق والسودان؛ بيد أن المقاومة الوطنية في لبنان وفلسطين والعراق قد أكدت جوهر مصطلح (المقاومة) باعتباره مجابهة جوهرية وأخلاقية على الصعيد الذاتي والوطني والإنساني لكل محتلٍّ غريب للأرض والإنسان. فهو مصطلح يحتفي بالمثل والحرية والكرامة على عكس ما أرادت لــه الإدارة الأمريكية اليمينية المحافظة، والصهيونية العالمية، والدوائر الاستعمارية التي طفقت تعمل على تشويه هذا المصطلح وإلباسه لبوس الغموض والتناقض. فقد جهدت في تغيير دلالته النفسية والاجتماعية والفكرية التاريخية والمعاصرة وفق ما عرفه العرب... لقد مارست خططها المنهجية والاستراتيجية لتشويه المصطلحات العديدة للحركات الوطنية والنضالية بدءاً من مصطلح الإرهاب والتضحية وانتهاء بمفهوم الجهاد والاستشهاد، وما ناظرهما من مفاهيم الكفاح والنضال

---

[1] *سفر الخروج ــ الإصحاح ١٩ ــ آية ٥-٦.*

[2] *نشر في مركز الإنماء العربي ببيروت مترجماً سنة (١٩٩٣م).*

[3] *انظر ترجمته للسيد طلعت الشايب ــ بيروت ــ ط ٢ ــ ١٩٩٩م، وراجع حديثنا عن ذلك في كتابنا (مشروع القومية العربية إلى أين ٩٦ ــ ١٠٢).*

والممانعة والصمود والتصدي والفداء و.. لهذا فالإدارة الأمريكية اليمينية عملت جاهدة على دعم كل الأشكال الاستعمارية؛ إمبريالية واستيطانية، ثقافية وسياسية، اجتماعية واقتصادية، علمية وإعلامية، وتقنية لجعل الفعل المقاوم عن الوجود والحرية إرهاباً في وجه المحتل وقريناً للقتل.

فالإدارة الأمريكية المحافظة المتصهينة ما زالت منذ مطلع الألف الثالثة تقيم المؤتمرات والندوات وتشن الحملات الإعلامية لتزييف حقيقة مصطلح (المقاومة) وعدد من المصطلحات العربية، وتحميلها ــ ظلماً ــ الدلالة المعنوية لفلسفة الغرب التي تتركز حول العنف والقتل والاعتداء على الأبرياء. وهذا ما حدا بها إلى تعميق صلة المقاومة الوطنية بالقتل والاعتداء بعد أحداث (١١/ أيلول/٢٠٠١م)؛ ومن ثم ربطت بين مصطلح (الإرهاب) بدلالته الغربية وبين مصطلح (المقاومة) فشوّهت قيمتهما الإنسانية الشريفة، مستغلة القوة الإعلامية الجبارة وتقنياتها شرقاً وغرباً لغسل الأدمغة التي تربت على مفاهيم التحرر الوطني والقومي ثقافياً وحضارياً. وكانت إدارة بوش الابن تشوه مصطلح المقاومة وفق شعارات مزيفة باسم الديمقراطية والحرية، واستغلال الشرعية الدولية وحقوق الإنسان، وبخاصة حين قررت الدخول إلى صميم النسيج الاجتماعي والثقافي للشعب العربي لإقناعه بخطر المقاومة عليه باعثة في نفسه الشك نحوها[1].

ومن ثم فقبل أن تجيّش جيوشها لغزو أي بلد عربي أو مسلم فإنها تجيش الإعلام والفضائيات ثم تجيش العالم استجراراً لمشاعر أبنائه للوقوف في صفها، وتنفيذاً لأجندة صهيونية تجعل العالم يعادي العرب والمسلمين وتجعل نضالهم الوطني والقومي اعتداء على الآخر الصهيوني.

فالإدارة الأمريكية المحافظة ــ وفي إطار تبنيها للأجندة الصهيونية ــ قرنت الإرهاب بالعرب والمسلمين بعد (٩/١١) وصار الفدائي والمجاهد والمقاوم منهم إرهابياً انتحارياً يعتدي بجسده على المحتلين لأرضه والناهبين لثرواته والقاهرين لحريته، ولا يجوز لــه قتالهم ومقاومتهم ــ بزعمها ــ. لهذا

---

[1] *انظر كتابنا: مشروع القومية العربية إلى أين ١٣٨-١٤٦).*

ركزت تلك الإدارة حربها في فلسطين والصومال والعراق والسودان ولبنان وأفغانستان لاستئصال الإرهاب من هذه الدول ــ كما تزعم ــ.

ولعل أعظم ما يؤيد هذا تصريح الرئيس الأمريكي جورج بوش إبان مواجهة المقاومة الوطنية اللبنانية للعدوان الوحشي الصهيوني على لبنان بأن الإسلاميين فاشستيون منحرفون وغير أسوياء، متجاهلاً ما يقوم به الكيان الصهيوني من تصرفات همجية لا نظير لها في التاريخ. أما الحر الشريف الذي ينظر إلى المقاومة اللبنانية والفلسطينية بحياد ونزاهة فإنه يدرك أنها كانت تتسامى على منطق التحريف والتشويه والاستسلام والتخويف و.. على اعتبار أنها أسقطت من حساباتها كل مفاهيم الخلط المشوّهة والمزيفة لمصطلح المقاومة. فالمقاوم إنسان واع عاقل عارف بما يفعل وما يريد، ومدرك لما يملكه عدوه الذي احتل الأرض واغتصب العرض، ونهب الثروات باسم التحضر والتمدن وإشاعة الحرية.

وبهذا كله فالمقاومة ليست تخلفاً واعتداء على الآخر مهما ابتليت الأمة بعدد من أبنائها الذين عاشوا في حالة من انحراف العقل والنفس فانتهوا إلى التفكير اليائس والبائس والعاجز عن التفريق بين الحياة الكريمة والخنوع الذليل ومن ثم خلطوا بين المقاومة وبين العنف والقتل، والاعتداء على الأبرياء...

فإذا كان الشر جِبِلَّة لبعض النفوس الآدمية فإننا نجد أن عدداً من أرباب الدوائر الأمريكية خاصة والغربية عامة هم مَنْ يتصفون بكل صنوف الشر، لأنهم يمارسون كل مقومات السيطرة والاعتداء على القرار العالمي حين يتبنون مفاهيم العنف والقتل المعروفة لدى الكيان الصهيوني خدمة لمصالحهم الذاتية. وكلنا يعرف أن الكيان الصهيوني في تعاليمه الفكرية والدينية يقوم على مبادئ القتل وإلغاء الآخر، لأنه مسكون تاريخياً ونفسياً بظلم الآخر وتعذيبه تعذيباً سادياً. فكل ما لدى هذا الكيان من سياسات ومبادئ لم تتسع إلا للقبح والكراهية، والكذب والافتراء، والخبث والدهاء في نسج المؤامرات والانقضاض على مبادئ الشرعية الدولية. فهو يمارس الإبادة الجماعية للشعب الفلسطيني، ويلتذ بتدمير الحجر والشجر بصورة شريرة لا نظير لها في التاريخ البشري دون أن يستطيع القانون الدولي معاقبته. ولعل وصول (أفيغدور ليبرمان) اليهودي المتشدد إلى الحكومة الصهيونية قد زاد الطين بلة وهو القائل:" إن تاريخنا

يبرهن على أن الشعوب ذات الثقافة والديانة المختلفة لا يمكن أن تعيش مع بعضها البعض".

وهذا يعني أن ليبرمان ليس إلا رمزاً رديئاً آخر للحكومة الصهيونية التي لا تتورع عن قتل الشعب الفلسطيني.

وما يدعو إلى العجب أن أغلب دول العالم انبرى إلى عقد الندوات والمؤتمرات لوضع يده على ظاهرة القتل والعنف الشائعة في كثير من بقاعه، وطفق يفتش عن سبب الإرهاب ودوافعه، وعن شيوع ظاهرة الكراهية في النفوس البشرية... وأطال البحث عن ذلك كله فما وجد إلا إجابة واحدة حاول أن يتناساها، وهي أن الكيان الصهيوني وإدارة بوش المحافظة هما من يخططان للقتل والكراهية وإشاعتهما بين الناس. فقد نجح كل منهما في جعل بعض المجموعات السكانية تقتل أخرى، إذ نرى أن قبيلة هناك تستأصل قبيلة هنا، وبلداً في الشرق يعادي الآخر في الغرب، ... لا لشيء إلا لأنهما ماضيان في تنفيذ ما يسمى مشروع الشرق الأوسط الجديد وفق سياسة الفوضى البناءة التي اعتمداها لذلك ثم أعلنت وزيرة الخارجية الأمريكية عن ولادته من القاهرة في بداية العدوان الصهيوني الوحشي على لبنان في (١٢/٧/٢٠٠٦م). ومن ثم تمضي تلك المؤتمرات والندوات في توصيف ظاهرة القتل والإرهاب المنتشر في كل مكان ويجهد أصحابها في تمحيص الأفكار والآراء، وحينما تخلص تلك الجهود إلى تعريف للعنف والقتل والإرهاب، وتتبنى توصيات فاعلة ومهمة لقلع ظواهر الشر من العالم تنبري إدارة بوش المتصهينة لتمييع المسألة وتملأ العالم بالسجون بحجة مكافحة الإرهاب، فتراها تقذف إليها عدداً من أبناء الوطن العربي والعالم. ثم ترفض أن تطبق أياً من مفاهيم الإرهاب والقتل على جنودها الذين يرتكبون أشنع أنواع الجرائم بحق الإنسانية؛ كما رأيناه في العراق وأفغانستان. فهي تصدر القوانين الخاصة التي تجعلهم بمنأىً عن الملاحقة القضائية في بلادها وفي أي بلد آخر، لا يماثلها في هذا السلوك الإجرامي إلا الكيان الصهيوني.

ونحن نحس ونؤمن بأننا ننتمي إلى أمة ابتليت منذ وقت طويل بأنواع شتى من الاستعمار والاستعباد والظلم والقهر والعدوان منذ القديم، وأخيراً تركزت مجتمعة في أراضيها منذ مطلع القرن العشرين ابتداء بالاستعمار

الأوروبي؛ الفرنسي البريطاني خاصة، ووصولاً إلى الاستعمار الصهيوني العنصري الاستيطاني المدعوم بآلة الفتك الأمريكية المتوحشة، وانتهاء بالاحتلال الأمريكي البريطاني للعراق، ما يعني أننا نعيش حالة من العدوان المنهجي الذي يمضي في القتل المستمر علينا، وحين ندافع عن أنفسنا نتهم بالإرهاب والعنف.

وإذا كنا قد عشنا حالة من الشعور بالعزة والكرامة إبان حرب الاستقلال، وشعرنا بالأمل في التحرر من التخلف والجهل والفقر على يد الحركات الثورية الوطنية والقومية، ولمسنا حالة الوعي بالحقيقة إبان انتصار تشرين أول/ أكتوبر لعام (١٩٧٣م) ثم تجلّى نهوضاً نوعياً على يد المقاومة الوطنية في فلسطين ولبنان والعراق فإننا أيقنّا بأن الآخر المعتدي سواء كان صهيونياً أم غيره هو من يمارس كراهيته لنا وللبشرية والاعتداء على مبادئها الإنسانية والخلقية وسيادتها الوطنية.

فالصهاينة هم من احتلوا فلسطين؛ قتلوا قسماً من أهلها وشردوا قسماً آخر، وزرعوا الدمار والشر والكراهية في جنبات الأرض مدعومين بالاستعمار الغربي بكل أشكاله وبإدارة أمريكية محافظة ظالمة لذلك تراهم يرتكبون المجازر الجماعية الوحشية في أرضنا المحتلة بكل صلف، ودون مبالاة. وقد طفقوا يجربون مرة بعد مرة غزو لبنان/ المقاومة والشعب، ومارسوا شهوة القتل والإجرام والإبادة وتدمير البنى التحتية فما جنوا إلا الخيبة والهزيمة، وإن أشعلوا بين أبناء الوطن الواحد نار الفتنة. وهاهم أصحاب مشاريع الهيمنة القابعين في الإدارة الأمريكية المحافظة ومن معهم من الصهاينة والعملاء يمارسون نزواتهم المريضة وشهواتهم الإجرامية بتنفيذ مخططات قتل بعض الشخصيات اللبنانية، ومن أبرزها اغتيال وزير الصناعة اللبناني (بيير الجميل) في (٢١/١١/٢٠٠٦م). وآخر هذه المسلسلات الإجرامية اغتيال النائب (وليد عيدو) يوم الأربعاء (١٣/٦/٢٠٠٧م) في منطقة المنارة ببيروت ـــ في وضح النهار ـــ. وما يلفت الانتباه ويحير العقول أنهم يسارعون إلى تجييش القنوات الفضائية وعملائهم لإسناد التهمة إلى سورية، التي تعدّ الخاسر الأكبر بمقتل كل منهما. فالإدارة الأمريكية الداعمة لذلك الكيان العنصري البغيض ـــ والتي أمرت أساطيلها وطائراتها باحتلال أفغانستان والعراق؛ ومن قبلُ غزت

الصومال وزرعت الفتنة بين أبناء السودان حتى نشب القتال بينهم ــ ما زالت تزرع بذور الفتنة في لبنان بقيادة سفيرها (فيلتمان) لإيجاد شرخ دموي بين أبنائه، وتقف إلى جانب الشر الصهيوني بعد أن نجحت بوضع لبنان تحت الوصاية الدولية بقراري مجلس الأمن (١٥٥٩) و (١٧٠١).

إذاً، من يبذر الفتنة في الأرض العربية ويمارس القتل للقتل، ويمارس الإرهاب للإرهاب؟ الجواب قد بات واضحاً لكل حرّ وشريف في العالم. وقد عرفه كل عضو في مجلس الأمن حين رأى المهزلة الأمريكية وهي ترفع بكل وقاحة حق النقض يوم السبت (١١/١١/٢٠٠٦م) في وجه قرار عربي يُدين جرائم الكيان الصهيوني ومجازره في بيت حانون، ما جعل العالم يتقزز من موقف إدارة بوش، وسلوك سفيرها السابق (جون بولتون) في مجلس الأمن الذي عُدَّ السفير الثاني للكيان الصهيوني في هذا المجلس. حقاً لقد صدق القول على كل من الكيان الصهيوني وإدارة بوش: إذا لم تستح فاصنع ما شئت ما دام العالم عاجزاً عن ردّ ظلم هذه الإدارة، وإيقاف مجازرها المنتشرة في كل مكان.

**٤ ـ المقاومة ومشروع الهيمنة الأمريكية والصهيونية**

هكذا تكشفت يوماً بعد يوم حقيقة الأحداث التي أثبتت ــ دون شك ــ أن إدارة بوش الابن أرادت أن تجعل العالم كله في مواجهة حركات نضال التحرر الوطني والقومي ومقاومتها الشريفة للمحتل ما جعلها تخطط لحربها المعلنة على العرب والمسلمين باسم مكافحة الإرهاب.

لهذا انقضَّت على سيادة الدول وهيمنت عليها ــ بعد أن غدا عدد من الأنظمة العربية الرسمية محمَّلاً بإرث من السلبيات ــ وراحت تسرق ثرواتها باسم الحرية والديمقراطية، مُلْبسة أعمالها العدوانية صفة الشرعية الدولية باعتبار سيطرتها على الهيئات الدولية، ما أوقع هذه الشرعية في أزمات متتالية نتيجة سيطرة الإدارة الأمريكية عليها ولا سيما في ما يتعلق بقضايا العرب والمسلمين.

ولعل القرارات الدولية في هذا الشأن أعظم من أن يشار إليها منذ نشوء الكيان الصهيوني سنة (١٩٤٨) وصدور قرار عودة اللاجئين رقم (١٩٤) تاريخ (١/١٢/١٩٤٨م) الذي لم ينفذ حتى الآن دون أن ننسى لحظة واحدة ما قاله الصهيوني (ناحوم سوكوف) في خطابه للمؤتمر الصهيوني الماسوني في

(كالسبارد) يوم (١٩٢٢/٨/٢٧م) ونشرته صحيفة (نيويورك تايمز) في اليوم التالي: "عصبة الأمم فكرة صهيونية خلقناها نحن بعد كفاح دام خمساً وعشرين سنة".

وفي معرض الحديث عن ذلك كله نشير إلى فرض الإدارة الأمريكية كل ما يحقق مصالحها، سواء تمثل بتدجين النظام العربي الرسمي، أم بخفوت الصوت الشعبي، حتى بات انتشار القوات الأمريكية أمراً واقعاً في الأرض العربية، وبات التدخل في الشؤون الداخلية للحكومات والدول أمراً لا يماري فيه أحد كما يتضح للناس جميعاً من تنصيب حكومة أفغانية أو عراقية عن طريق انتخابات معلبة فاقدة لكل الشروط الموضوعية. وهي ــ اليوم ــ تقف مساندة بعض اللبنانيين الذين اختاروا الوقوف إلى جانب الدوائر الغربية والأمريكية، تحت مزاعم السيادة الوطنية ما أدَّى بهم إلى التنكر لسورية ودورها القومي النبيل في لبنان. ولا شيء أدل على هذا من مواقف النائب اللبناني وليد جنبلاط ــ وما أكثرها ــ وهو الذي التقى النائبة الصهيونية كوليت أفيتال في فرنسا يوم الاثنين (٢٠٠٦/٨/٢٨م) على هامش اجتماع للحزب الاشتراكي الفرنسي. وقد صرحت هذه النائبة بأن السيد وليد جنبلاط أظهر عداءً عظيماً لسورية ونظامها ولحزب الله وقائده، وكشف عن نفاق وكذب وتدجيل لا نظير لــه عند السياسيين، وفق ما نشرته جريدة (الشرق الأوسط) في (٢٠٠٦/٨/٢٩) وصحف أخرى (كالنور) و(الوحدوي ٢٠٠٦/٩/١م) إثر ذلك التاريخ.

فالنائب جنبلاط وأمثاله من اللبنانيين والعرب يقامرون على القوة الأمريكية الفائضة في مختلف المجالات وهيمنتها على المنظمات الدولية بما فيها مجلس الأمن الذي صار أداة بيدها، بمثل ما يقامرون على القوة الصهيونية لنزع سلاح حزب الله ــ باعتباره يمثل وجهاً شريفاً من وجوه المقاومة الوطنية ــ وكأنهم لم يدركوا ما قالته صحيفة هاآرتس بأن "إسرائيل كلب صيد أمريكي فقد جدواه" وتأكد ذلك باعتراف وزيرة خارجية الصهاينة (تسيبي ليفني) بأن أي قوة في الأرض لا تستطيع نزع سلاح حزب الله.

ويبدو لي أن انكشاف المشهد الأمريكي ــ الصهيوني سياسياً وعسكرياً وأخلاقياً لم يقنع العديد من السياسيين العرب بأن الصورة قد انقلبت لصالح

المقاومة الشعبية الوطنية والقومية والإنسانية فما زالوا ينظرون إلى الواقع العربي والدولي نظرة أحادية ويعتقدون بأن هناك دولة قوية واحدة في العالم وقوة واحدة أخرى في المنطقة تملك السلاح النووي والأسلحة الفتاكة العمياء التي زودتها بها الإدارة الأمريكية التي تملك أعتى قوة على وجه الأرض، ما يعني ــ في زعمهم ــ أن المقاومة مغامرة؛ والعين لا تقاوم المخرز. ومن ثم علينا أن نفتش عن حلول بمعزل عن استخدام السلاح الذي لم يجرّ علينا وعلى بلادنا إلا الويلات والدمار، ومن ثم يعرضون لما جرى في لبنان نفسه إبان العدوان الوحشي عليه في (١٢/٧/٢٠٠٦م) وكل من في تيار (١٤ شباط) يصرح به يومياً في الإذاعة والصحافة والقنوات الفضائية، كما جرى في مقابلة أجرتها القناة اللبنانية (ل.ب.س L. B. C) مع النائب أكرم شهيب، بتاريخ الثلاثاء (١٠/٤/٢٠٠٧م)..

ونرى أن صمود المقاومة الوطنية اللبنانية بقيادة حزب الله وتشبث الشعب بأرضه في الجنوب وصمود المقاومة العراقية على يد الشرفاء وتمسكهم بأرضهم وصمود الشعب الفلسطيني وإيصاله منظمة (حماس) إلى السلطة عن طريق انتخابات ديمقراطية قد أحيا روحاً جديدة في المنطقة لمواجهة المشروع الأمريكي الصهيوني؛ هذا المشروع الذي أخذ يخطط لتوجهات جديدة في المنطقة من أجل استمرار وجوده والقضاء على كل مقاومة لــه. ومن أبرزها أنه بات يزرع الموت والدمار في أي أرض يطؤها مستعملاً الأسلحة الفتاكة والمحرمة دولياً، وفي الوقت نفسه يزرع الفتنة الطائفية والمذهبية والعرقية، ويجعل الأخ عدواً لأخيه لا يتورع عن قتله، فالمشروع الأمريكي يزرع كل ما من شأنه التفرقة والاقتتال بين أبناء المنطقة. لكن الشعب العربي قد خيّب ظن المحتل الأمريكي والصهيوني وهزم مخططاته حين تشبث بأرضه ولم يغادرها، بل قبض عليها بالدم والإصرار على الانزراع في ذراتها، ما جعل ذلك المشروع الأمريكي الصهيوني يتراجع؛ ولابد لــه أن يسقط أمام إرادة أبناء الأمة وذلك كله يعني أن حرية العربي والمحافظة على وجوده وهويته وانتمائه لا ينفصل عن ثقافته وموروثاته التي تؤكد وجوده الفاعل الحر والكريم لمقاومة أي ثقافة قاهرة مهما تزيَّت بالأقنعة المخادعة.

وعلى الرغم من ذلك نقول: هناك فجر جديد على الصعيدين العربي والدولي في المنطقة بإحياء ثقافة المقاومة وفكرها؛ وهي الثقافة التي جعلت القوة الأمريكية تخفق في تطبيق مشروع الشرق الأوسط الجديد، وفي إعادة صياغة العالم على أساس سياسة الفوضى الخلاقة كما مارستها في أفغانستان والعراق[(١)].

فالإدارة الأمريكية تحاول تفتيت الدول العربية من خلال تجزئة المجزأ، وزرع السجون في الأرض العربية والعديد من دول العالم لزج المناضلين فيها، على الرغم مما تكبدت في العراق من خسائر فادحة؛ إذ خسرت حتى (٢٠٠٧/٧/١م) ما يزيد على (٣٥٠٠) قتيل فضلاً عن الجرحى من جنودها.

والدليل على ذلك انفضاض حلفاء الإدارة الأمريكية ــ المحافظة ــ وانصداع أمرهم حين انكشفت لهم أغراض هذه الإدارة في أفغانستان والعراق ولبنان؛ بل إن بريطانيا ــ وهي أكبر حلفائها ــ قد أدركت خطأ رئيس وزرائها (طوني بلير) بتبعيته للسياسة الأمريكية. وبرز ذلك حين أقدم ستة وزراء عماليين من حكومته على الاستقالة؛ وازداد الضغط عليه حتى حدَّد يوم (٢٠٠٧/٥/٣١م) موعداً لاستقالته، تعقبها ستة أسابيع لحملة انتخاب زعيم جديد لحزب العمال البريطاني يوم (٢٠٠٧/٧/٢٦م) ثم أعلن صراحة في (٢٠٠٧/٢/٢١م) عن سحب القوات البريطانية من العراق. وها هو ذا يرشح يوم الجمعة (٢٠٠٧/٥/١١م) وزير المالية (غوردن براون) لتزعم حزب العمال ورئاسة الوزراء ويدعمه لشغل المنصبين، وقد جرى كل ذلك، فرحل (بلير) وجاء (براون) رئيسا للوزراء رسمياً في (٢٠٠٧/٦/٢٧م)، بعد أن حظي ــ هو الآخر ــ بإشادة الإدارة الأمريكية اليمينية المحافظة بقيادة جورج بوش الابن.

---

[(1)] *انظر كتابنا (مشروع القومية العربية إلى أين ــ قسم: إخفاق المشروع الصهيوني؛ وسقوط ما يسمى بدعوات الحرية ٢٢١ ــ ٢٣٠).*

### ٥ ـ المقاومة الوطنية اللبنانية وثقافة الوعي بالوجود الوطني

ليس هناك شك في أن العدوان الوحشي الصهيوني الذي بدأ على لبنان /المقاومة منذ (١٢ /٧/ ٢٠٠٦م) قد أدى إلى نتائج كبرى على الصُّعُد كلّها داخلية وخارجية، محلية وعربية، إقليمية ودولية.

وقبل أن نشير إلى أبرزها يمكننا ــ هنا ــ أن نثبت أن المقاومة الوطنية اللبنانية بقيادة حزب الله قد حققت مكونات المقاومة المشار إليها سابقاً، إذ أكدت من خلال مبدأ التربية المنهجية العلمية تلك الأركان في نفس كل مقاتل، وزودته بعقيدة وطنية قومية إنسانية تنبثق من عقيدة روحية سامية؛ ما حقق لها بصدقها وإخلاصها تنمية معرفية وبدنية، علمية وتقنية على الصعيد الفردي والجماعي وخلق لديهم المبادرة الرائعة لمواجهة أي موقف معقد، وربطت بين الفعل الوطني المقاوم والفعل الشعبي، والفعل القومي المقاوم والإنساني ما يثبت أن مواجهة العدوان الصهيوني ــ الأمريكي الهمجي إنما تنبجس من أصالة الهوية والانتماء بأبعادها المتعددة وطنياً وقومياً وإنسانياً.

ولعل من أهم تلك النتائج التي اتضحت محلياً وعربياً وإقليمياً أن الصراع العربي الصهيوني صراع وجود لا نزاع حدود، على اعتبار أن المشروع الصهيوني مشروع عنصري استيطاني استئصالي وتدميري يخالف كل القيم النبيلة والشرائع الأخلاقية والمواثيق الدولية الإنسانية، فهو مشروع لا يقبل الآخر إلا إذا كان عبداً تابعاً وذليلاً في الوقت الذي يسعى إلى ابتلاع الأرض وتدنيس العرض ما يعني أن حزب الله ومَنْ معه مثّل القدرة على نشر الفكر المقاوم بين العرب ليصبح مشروعاً قومياً حضارياً بعيداً عن الطائفية أو المذهبية.

ثم تأكد لنا ولكل عاقل في العالم أن الحرية والكرامة نتيجة طبيعية للمقاومة الشريفة والإرادة الصلبة لكل شعب أياً كان عدده وعدته. فالقيمة الفُضلى التي أسسها أبطال المقاومة اللبنانية تتمثل في أن العدد القليل الخبير الواعي والعارف بقدرته وقدرة عدوه ومكامن ضعفه والمدرب جيداً يمكنه أن يجترح المعجزات، وأن يتصدى لآلة الموت، إذ أعلن للعالم كله، أن الإنسان أقوى من الدبابة والجرافة، وأن العربي قادر على استيعاب أعقد التقنيات، والتعامل معها في أعقد الظروف. فالعدوان الصهيوني الحاقد أراد اجتثاث المقاومة الوطنية

اللبنانية بدعم سافر من آلة الموت الأمريكية الجبارة والمتطورة وبمروق عدد من الدول الأجنبية وصمت عدد آخر وارتباك مواقف بعض الدول العربية. لهذا كان مسلسل الإبادة الجماعية للبشر، والحجر والشجر خلال (٣٣) يوماً إرهاباً وحشياً لا مثيل له في التاريخ، كما ظهر للقاصي والداني؛ إنه مسلسل إجرامي مخيف، لكنه أثبت في الوقت نفسه أن الأحرار والشرفاء في لبنان قد التفوا حول المقاومة؛ ما أدهش العالم كله وأذهل الكيان الصهيوني الذي امتلأت نفوس قادته وشعبه بكراهية اللبنانيين، كما امتلأت بالحقد المدمر للبنان، فقد كان فوق التصور؛ إذ تجاوزت عمليات القتل والإبادة كل حدود العقل والمنطق؛ فقتلت آلته العمياء ما يزيد على (١١٨٢) من الأبرياء أطفالاً ونساء وشيوخاً، كان بينهم نسبة (٤٠%) من الأطفال، وجُرح ما يزيد على (٤) آلاف، وهجّر مئات الآلاف ودُمرت البنى التحتية برمتّها لكن الحياة تولد من قلب الدمار؛ وعلينا أن نجعل ذلك الدمار الوحشي مادة سياسية وقانونية وثقافية لإدانة الكيان، وأسياده بدل أن نتباكى على الخراب، صحيح أنه عدوان وحشي تدميري لكنه كان يسعى إلى فرض القوة الصهيونية وتصفية حزب الله من جهة؛ وإركاع العرب تحت أقدامها من جهة أخرى.

إذاً؛ انكشفت حقيقة القوة الهمجية الصهيونية، فالشعب العربي لم يعد يخاف هذه القوة، إذ صفعتها المقاومة اللبنانية صفعة قوية، في الوقت الذي أدرك أن الأنظمة العربية قد أخذت تخسر كل حظوة لها عند أمريكا بعد أن عجزت عن مواكبة التحولات الكبرى في هذه الحرب. ومن ثم سقط خيار السلام الاستراتيجي على اعتبار أن حجم التنازلات فيها قد ارتفع إلى درجة غير منطقية..

وعلى الرغم من ذلك نرى أن تلك الصفعة لا تعني الانتصار الكامل على القوة الصهيونية، ولا تعني الهزيمة المطلقة للجيش الصهيوني ولا سيما حين أسرعت الإدارة الأمريكية بمساعدة أوربية عامة وفرنسية خاصة إلى انتشاله من حالة الهزيمة الشنعاء التي أصيب بها؛ إذ عملت أمريكا وفرنسا على إصدار مجلس الأمن للقرار (١٧٠١) في (١٢ /٨/ ٢٠٠٦م) الذي انحاز إلى جانب الصهاينة كما في مادتيه (١٤) و (١٥) وحمّل لبنان /المقاومة المسؤولية عن شن تلك الحرب. وكذلك تضمن عدداً من الأفخاخ بما فيها الحديث عن إيقاف

العمليات العدائية بين الطرفين المتقاتلين لأن القوة الصهيونية المتوحشة لم تستطع النيل من المقاومة وحزب الله. فالكيان الصهيوني لم يحقق أهدافه كلها، على الرغم من تفوقه العجيب في تدمير البنى التحتية للبنان وقتل الأبرياء والمدنيين، ما جعل الصحف الإسرائيلية تركز على مفهوم هزيمة الجيش الصهيوني باعتبار أن نتائج هذه المعركة لم تؤدّ إلى النجاح الكامل للأهداف التي تعهّد الكيان بإنجازها وبسرعة قصوى.

من هنا نرى أن العدوان لم يتوقف ولن ينتهي على الأمة، وهو يظهر بأشكال شتى كإثارة الفتنة القاتلة بين أبناء الأمة، كما حدث في مخيم (نهر البارد) حين لجأ العدو الأمريكي الصهيوني إلى تنفيذ ما يعرف بالخطة (ب). ومن ثم تورط الجيش اللبناني في قتال شرس مع ما يسمى منظمة (فتح الإسلام) قتال خسر فيه حتى تاريخ (١٦/٦/٢٠٠٧م) ما يزيد على (٨٠) قتيلاً، و (٤٠٠) جريح بعد قتال دام (٢٧) يوماً حتى هذا التاريخ، دون أن يعرف أحد يوماً يتوقعه لنهاية هذا الاقتتال الدامي... على اعتبار أن الإدارة الأمريكية قررت أن يكون لبنان بعد العراق مفتاحاً لما يعرف بسياسة (الفوضى الخلّاقة) في المنطقة، وهي سياسة ربما تمتد إلى سورية والسودان وإيران.

ولعل القراءة الدقيقة في تقرير (سيمور هيرش) يكشف لنا عن فداحة صناعة الفتنة التي تنفذها تلك الإدارة بهدف تفتيت الدول العربية إلى مذهبيات وطوائف وعرقيات[١]. ولهذا نتوقع بأن الحروب القادمة ستكون صعبة وأشد ضراوة وقسوة على الأرض والإنسان وفق ما تشير إليه الأحداث، علما بأن القوات الأمريكية والصهيونية أجرت مناورات مشتركة لمدة أربعة أيام اعتباراً من (١٤/٥/٢٠٠٧م) في صحراء النقب المحتلة.

وإذا كنا نحتفل بنصر المقاومة الوطنية اللبنانية في حرب تموز (٢٠٠٦م) فلأننا لم نتعوّد مثل هذا النجاح من قبل ــ على حلاوة النصر الجزئي الذي ذقناه في حرب تشرين ومثله حلاوة خروج الجيش المحتل الصهيوني في (٢٥/٥/ ٢٠٠٠م) من جنوب لبنان ــ فللمرة الأولى تسقط المعادلة الصهيونية الحربية مع العرب. فقد ذاق الصهاينة طعم الموت المر نوعاً وعدداً في ساحة

---

(1) انظر مجلة إلى الأمام ــ ( العدد ٢٣٥٦ – نيسان /٢٠٠٧م) – ص ٢٤ –٢٥.

الحرب وفي داخل الكيان، كما شاهدنا بأم العين وللمرة الأولى ـــ أيضاً ـــ كيف تحترق دبابة (الميركافا) التي عُدّت عند الكيان الصهيوني بيت الأمن والأمان، وكيف تغرق البارجتان (ساعر ٥ /٥ وساعر ٥ /٤) بصواريخ الأبطال الميامين، وطالما كان يفتخر بدباباته وبوارجه. أما مشاهدتنا للصواريخ التي ضربت العمق الصهيوني فهي الدليل الحقيقي على سقوط نظرية الأمن الإسرائيلي التي كان يعمل عليها خلال عقود طويلة؛ فصواريخ المقاومة الباسلة والتي بلغت (٤٠٠٠) صاروخ ودكّت تحصينات العدو ومواقعه تُعدُّ ردة فعل قوي على ما ارتكبته طائراته ودباباته وبوارجه من أعمال إجرامية طالت الأرض والإنسان والحياة. ولما ردَّ المقاومون بذلك أكدوا أن بإمكان العرب أن يصلوا إلى عمق العدو، وأن يرعبوه كما أرعب الأطفال والنساء والشيوخ حين رماهم بكل شره وحقده، فالرعب يقابل بالرعب، وإن لم تعادل قوة المقاومة قوة العدو المتغطرس. وفي هذا المقام لا ننسى أن نشير إلى أن إحدى طائرات المقاومة الإسلامية قد اخترقت النظام العسكري والتكنولوجي المعقد للكيان الصهيوني، ونقلت صوراً للعمليات التي يعدّها في منظومة (أبولو) ما جعله يجن جنونه، على حين تيقنا ـــ نحن العرب ـــ بأن اختراق تحصينات العدو أمر ممكن وليس مستحيلاً، كما كنا نتخيل ونتوهم.(١)

فالدولة اللقيطة تعرضت وتتعرض لأزمات شتى على مختلف الصُّعد سياسياً وعسكرياً وأخلاقياً ومالياً، إذ كشفت حرب المقاومة اللبنانية مدى الضرر الذي يلحق بالعدو، بل أوضحت أنه يعيش في مستنقع متلاطم من الفضائح.

وكانت دولة الكيان الصهيوني قد حاولت تقليص التكاليف العسكرية لحساب إصلاح الرفاهية الاجتماعية، بعد أن كانت تمثل الدولة الجيش والجيش الدولة وترتكب أبشع الجرائم، ظناً منها أن مجازرها الوحشية الجماعية ستكسر إرادة الشعب الفلسطيني. لكنها شرعت تخطط لعدوان واسع على لبنان تعوّض فيه عن هزيمتها في (٢٥ /٥/ ٢٠٠٠م)؛ ثم نزلت تحت رغبة إدارة بوش الابن يوم (٢٠٠٦/٧/١٢م) فنفذت عدواناً شرساً وهمجياً على لبنان قبل الوقت المضروب

---

(1) انظر الفصل الرابع مما يأتي (سقوط الأسطورة) ص ١٤١.

لـــه على اعتبار ما كشف عنه (أولمرت) في (٢٠٠٧/٢/١) أمام لجنة شكلها الكيان الصهيوني برئاسة (إلياهو فينوغراد) في (٢٠٠٦/٩/١٨م). وقد أفاد بأن الحرب خطط لها في الدوائر الصهيونية منذ شهر كانون الثاني (٢٠٠٦م) واتخذ قرارها في آذار لعام (٢٠٠٦م) وتمت مراجعتها في نيسان وأيار؛ من أجل تطبيق القرار رقم (١٥٥٩) القاضي بنزع سلاح المقاومة اللبنانية. ثم جاء أسر الجنديين الصهيونيين في عملية (الوعد الصادق) سبباً مباشراً للعدوان الصهيوني ــ الأمريكي على لبنان. وطفق الجيش الصهيوني يدمر كل شيء تدميراً منهجياً وفق مبدأ الأرض المحروقة، ويرتكب المجازر الوحشية الجماعية دون رادع من ضمير أو أخلاق لزرع الخوف في نفوس الناس، وجعلهم ينقلبون على المقاومة، ويُغَشّون عيون العالم عما يحدث في داخل الكيان الصهيوني نتيجة ضربات المقاومة الشديدة التي استمرت حتى الدقيقة الأخيرة؛ ضربات طالت العمق الصهيوني وتركت فيه أثراً عظيماً بمثل ما أثبتت جملة من الحقائق على الأرض عسكرياً وسياسياً واقتصادياً، وأظهرت للدنيا كلها أن القوة الصهيونية المتغطرسة لسنوات طويلة قابلة للاهتزاز والإصابة بزلزال كبير ما جعل لجنة فينوغراد توصي باستقالة أولمرت لهزيمته في تلك الحرب وترمي وزير دفاعه (عمير بيرتس) ورئيس أركان الجيش السابق (دان حالوتس) بشظاياها، وكان الغرض من إنشائها التستر على نتائج الحرب في الداخل الصهيوني، كما توصل إليه تقريرها الذي عرفته الأوساط السياسية يوم الخميس (٢٠٠٧/٥/١٠م).

**ويمكن أن نشير إلى عدد من الفضائح التي وقعت على مستوى الكيان الصهيوني:**

١ــ رئيس الدولة (موشيه كاتساف) خضع للتحقيق بتهمة الفساد والتحرش الجنسي بالموظفات وإقامة علاقات جنسية مع اثنتين منهن بالإكراه. وهاهو ذا قد تعرض لضغط كبير فقدّم استقالته، ثم انتخب الكنيست يوم الأربعاء (٢٠٠٧/٦/١٣م) شمعون بيريز رئيساً للكيان. لقد انتخبه مكافأة لـــه على الجرائم التي ارتكبها بحق العرب في فلسطين ولبنان؛ فليس هناك إنسان ينسى ارتكابه للمجزرة الوحشية والهمجية في قرية (قانا) اللبنانية عام (١٩٩٦م)، وذهب ضحيتها ما يزيد على (١٠٠) لبناني أكثرهم من النساء والأطفال.

٢ـ رئيس الوزراء (إيهود أولمرت) وزوجته (عاليزا) تعرضا للتحقيق بتهمة تلقي رشوة نتيجة بيع عقار استفادا منه لشراء شقتهما الفاخرة.

٣ـ وزير العدل (حاييم رامون) ـ وهو أحد أعضاء حزب كاديما الذي يرأسه أولمرت ـ قدّم استقالته نتيجة تأكد التحرش الجنسي بموظفة حكومية.

٤ـ رئيس أركان جيش العدو (دان حالوتس) باع حقيبة أسهم في البورصة إبان نشوب الحرب لزيادة ثروته، ثم قدم استقالته أخيراً، كإحدى أهم نتائج تلك الحرب.

٥ـ رئيس كتلة كاديما البرلمانية (أفيغدور إسحقي) متهم بالفساد المالي.

٦ـ عزل قائد القوات الصهيونية في الشمال الجنرال (آدم) والمعركة دائرة، وهو ما لم يحصل في تاريخ المعارك.

٧ ـ هناك لجان عديدة تقوم بدراسة أسباب هزيمة الجيش، وتدمير دبابة (الميركافا) وتقليص عدد الدبابات في المعارك وفق ما جرى في جنوب لبنان.

٨ـ هاهوذا (عمير بيرتس) يخسر رئاسة حزب (العمل) يوم الأربعاء (١٣/٦/٢٠٠٧م) ليحل (إيهود باراك) محله، ثم يحل محلّه أيضاً في وزارة الدفاع، على اعتبار أنه لم يكن مؤهلاً لرئاسة الحزب في الوقت الذي أخفق في حرب (تموز – ٢٠٠٦م) باعتباره وزيراً للدفاع.

٩ ـ ويمكن أن نثبت تأثير هذه الحرب في نفوس بني إسرائيل كما عبرت عنه قصيدة (ميثاق النار) لحاييم نحمان بياليك من (سلسلة ألف كلمة وعشرة آلاف) تأليف (أهارون روزين ـ ص ٣٨ ـ ترجمة فؤاد أبو زريق)، إذ كانوا يسترجعون في بدء حرب تموز على لبنان هذا المقطع من قصيدة (بياليك)[١]

***على قمة نبو***

***أمام الشمس المقبلة***

---

[١] *الأدب الصهيوني وتضليل الرأي العام ٤١ ـ ٤٢.*

*منظر رائع كوجه ملاك الحرب*
*يقف يهو شوّع بن نون يصيح*
*على رأس جيشه العظيم*
*صوته كالسهم يخرج مليئاً قوة، بأساً.*
*كلامه يتأجج كالشعلة، كالنار*
*والصحراء المخيفة، الصحراء الخاليه*
*تردد خلفه: "إسرائيل قم رث"(!!)*

أما في نهاية تلك الحرب فقد أخذوا يرددون هذا المقطع من قصيدة (ميثاق النار) للشاعر نفسه:

"اهتاجت بحار اللهب طوال الليل، وامتدت ألسنة اللهب فوق جبل (موريا)، النجوم انبجست من السماء المشوية، هل داس الله كرسيه وفتت تاجه إلى شظايا، هل مزق الله الرداء الأرجواني وألقى مزقه للريح، وكان خوف الله على الجبال البعيدة إنه بجلاله هادئ ورهيب يجلس على كرسي من نار في قلب اللهب، لباسه ضرام أرجوان، ومسند قدميه جمر متأجج، أحاطت به النيران وهو هادئ ورهيب يجلس واضعاً ذراعيه على قلبه ... يوسع دائرة اللهب بنظرة عينيه ويؤجج الحريق بحركة جفنيه.

هللوا لله راكضين محترقين ــ هللوا لله رقص لهب ونار".

وحين نتحدث عن الكيان الصهيوني بكل أبعاده فإننا لا نقلل من قدرته ومما يمتلكه من أسلحة متطورة كانت سبيله إلى قتلنا، ولا نقلل من حجم الدمار الذي لحق بلبنان أرضاً وشعباً ولكننا نقر في آن معاً بأن المقاومة الوطنية بقيادة حزب الله أسقطت هيبة الصهيونية الأسطورة، وأظهرت حقيقة المشهد السياسي والعسكري من الداخل.[1] فقد وقع خلاف حاد في حكومة أولمرت، وتصاعد هذا الخلاف بينه وبين وزير دفاعه (عمير بيرتس) ورئيس أركانه (دان حالوتس) وكل منهم يتهم غيره بأنه وراء هزيمة الجيش الصهيوني في لبنان على الرغم من صدور القرار الظالم لمجلس الأمن رقم (١٧٠١) الذي انتصر

---

[1] انظر ما يأتي (ص ١٤١) قسم سقوط الأسطورة.

للصهيونية وابتز الدول الكبرى لحساب الدولة اللقيطة لتحقيق أغراض صهيونية أمريكية على حساب لبنان (الشعب والمقاومة والتراث الحضاري). وظل الخلاف محتدماً حتى سقط (حالوتس) وقدّم استقالته ثم سقط من بعدُ وزير الدفاع كما أشرنا سابقاً. ولا ننسى في هذا الشأن اتهام (نتن ياهو) رئيس حزب الليكود لأولمرت بأنه عاجز عن إدارة حكومة الكيان الصهيوني، وكان أداؤه ضعيفاً في الحرب الأخيرة ما يجعل حكومته تسير إلى الانهيار الحقيقي، ولا سيما أن هذه الحرب قد كلفت الكيان ما يزيد على ستة مليارات من الدولارات موزعة على العديد من القطاعات الاقتصادية، فقد أكدت الإحصائيات الصهيونية أن الخسائر اليومية للاقتصاد الصهيوني كانت تتراوح بين (٩٠ مليون دولار) وبين (١١٠ ملايين دولار)، فضلاً عن الخسائر في الصادرات الصهيونية عما كانت عليه في عام (٢٠٠٥م)، علماً بأن السيادة قد أصيبت بالشلل التام. وكما هي العادة فإن الإدارة الأمريكية والدوائر الغربية سارعت إلى إنقاذ الكيان الصهيوني من الانهيار، فقدمت أمريكا وحدها دعماً مباشراً لهذا الكيان مبلغ ملياري دولار تحت زعم أنه صمد في حربه ضد الإرهاب في لبنان. إن ما حدث على صعيد الكيان الصهيوني نتيجة البطولات الرائعة للمقاومة يُعد قضية حيوية تتعلق بكل جزئية من حياتنا الوطنية والقومية وتؤكد جدواها في واقع لا يعرف فيه العدو الأمريكي ــ الصهيوني إلا لغة القتل والدمار، واستئصال الآخر؛ كونه من الأغيار. وقد التقط أبناء الأمة العربية هذه الحقائق حين أدركوا التحولات الكبرى الناشئة عنها، فراحوا يعبرون عن طموحاتهم في السيادة والاستقلال والحرية والكرامة؛ وتيقنوا بأنه لا يجوز لهم أن يبقوا حُرّاساً للخوف والخيبات المتتالية، والسلبية القاتلة باجترار مشاهد المأساة والإحباط الذي يؤسسه إعلام العدو والفضائيات الدائرة في ركابه، وعليهم التخلص من أشكال التفكير البائس الذي يعقد أمله على الحكام العرب.

ولهذا علينا أن نعدّ العدة لحرب قادمة وشرسة على الصعد كلها سياسية واقتصادية، نفسية وثقافية، علمية وتقنية، مدنية وعسكرية في الجو والبر والبحر؛ لأن الكيان الصهيوني ما قام إلا على القتل وشرب دماء الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ واغتصاب الأرض والعرض وتدمير الحجر والشجر مستغلاً ضعفنا وتمزقنا. وهو ما يزال يتوعدنا بذلك ولا سيما أن أي ضعيف

مثل (إيهود أولمرت) سيحاول الهروب إلى الأمام، وسيقدم على شن حرب جديدة ليستر إخفاقه السابق الذي أكده تقرير لجنة (فينوغراد)؛ وفيه اتهم (أولمرت) بالتقصير والعجز... وهذا كله لا يعمينا عن النشأة التاريخية للنفسية اليهودية الهمجية العدوانية منذ القديم. فالكيان الصهيوني كيان همجي دموي وعنصري متغطرس لا يرى في الأغيار إلا عبيداً لـــه، أما أن يكونوا نداً له فهذا من المحال في مفاهيمه التاريخية والمعاصرة. ففي سفر يشوع ما يفيدنا صراحة بتاريخ زعمائهم البشع والعنصري؛ إذ جاء فيه: "ولمّا فرغ بنو إسرائيل من قتل جميع سكان العيّ في الصحراء وفي البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعهم بحد السيف عن آخرهم، رجع جميع إسرائيل إلى العيّ وضربوها بحدّ السيف. وكان جملة من قتل في ذلك اليوم من رجل وامرأة اثني عشر ألفاً جميع أهل العيّ، ولم يردَّ يشوع يده التي مدّها بالحربة حتى أبسل جميع سكان العيّ... وأحرق يشوع العيَّ وجعلها تل ردمٍ إلى الأبد ضراباً إلى هذا اليوم"([١]).

هذا ما أسسه يشوع لأتباعه الذين جاؤوا بعده؛ وما زال هذا المنهج مستمراً إلى أن جاءت العصابات اليهودية العنصرية المسلحة إلى فلسطين وزرعت فيها القتل والتهجير للجنس العربي، وهي التي أسست جيش الدفاع الصهيوني بعد نشوء الكيان الآثم (١٩٤٨). ونشير إلى بعض العصابات العسكرية التي تسللت إلى فلسطين منذ وقت مبكر (هاشومير: الحارس ١٩٠٩م، وفرقة البغالة الصهيونية ١٩١٥م، والفيلق اليهودي ١٩١٥-١٩١٦م، والهاغاناه ١٩٢١م، والبيتار ١٩٢٣م، والإرغون ١٩٣١م، وشتيرن ١٩٣٧م، والجدناع ١٩٣٩ واللواء اليهودي ١٩٣٩-١٩٤٥م، والبالماخ ١٩٤١م[٢]).

وهذا يعني لنا أن نرص الصفوف لخلق اللحمة الوطنية الفاعلة، وأن نجهد لإسقاط كل الاتفاقيات والمعاهدات التي كبلت الأنظمة العربية بالكيان الصهيوني، وأن نعمل على إغلاق السفارات العربية لدى هذا الكيان الغاصب

---

[1] *سفر يشوع ــ الإصحاح الثامن ــ آية ٢٤ وما بعدها. راجع ما تقدم ٢٧ ــ ٢٩ وانظر ما يأتي الفصل الرابع حاشية (٢١) وما قبلها.*

[2] *انظر الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية ــ د.هيثم الكيلاني ــ مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت ــ ط١ ــ ١٩٩١م ــ ص٨٧.*

والعنصري، والالتزام الحقيقي والفاعل باتفاقية الدفاع العربي المشترك وإزالة هشاشة الموقف العربي وتخاذلـــه وعجزه على اعتبار أن المقاومة الوطنية اللبنانية الباسلة قد حسنت صورة العرب لدى الآخر، فصاروا أكثر احتراماً في نظره، وتأكد عنده أنهم كبقية البشر يملكون من الشجاعة والعقل والعلم ما يملكه الآخر.

وبناء على ما سبق يمكننا تلخيص جدوى المقاومة بما انتهت إليه الحرب الأخيرة:

***أولاً*** ـــ يجب أن تصبح ثقافة المقاومة أصلاً للعلاقة الصحيحة بين أبناء الوطن والأمة لأنها السبيل الوحيد والصحيح لمواجهة العدوان كيفما كان شكله ولونه. وقد كفلته الشرائع والقوانين والأخلاق؛ ابتداء بتبني مقاطعة البضائع الصهيونية والأمريكية وقطع النفط عن الكيان وانتهاء بتأسيس الوعي الثقافي والسياسي والروحي الكامل للأمة التي تعرف ما لها وما عليها، وتدرك أن دولة الكيان إنما هي دولة عنصرية إرهابية تقوم على إلغاء الآخر تستمد قوتها من قبل القوة الأمريكية والدوائر الغربية الاستعمارية، وبعض الدول الأخرى التي رأت أن مصالحها تكمن في الصمت عن جرائم هذه الدولة المارقة. وإذا كانت دولة الإرهاب الصهيوني قد استفادت من الوضع العربي المتردي فإن بإمكان العرب هزيمتها إذا عرفوا كيف يوفرون الأسباب لذلك.

ومن ثم علينا الالتزام بخيار المقاومة فكراً وممارسة وتبني الوسائل والسبل الكفيلة بنجاحها رسمياً وشعبياً؛ وأبرزها تشكيل جبهة شعبية وطنية وقومية مقاومة ومتسلحة بالوعي والعلم والتقنية والصبر والعقيدة والإرادة ومستندة إلى معرفة الآخر معرفة تامة، ودارسة لزوايا قوته وضعفه. هذا ما علمتنا إياه المقاومة الوطنية؛ علمتنا أن ننتصر على نفوسنا وضعفنا وخوفنا وجهلنا. وهذا ما ينبغي أن نفجره في ذاتنا ونحن نلجأ إلى خيار المقاومة والسلام.

**ثانياً**: دك آخر المقولات والتوصيفات والنعوت التي تصف جيش العدو الصهيوني بأنه القوة التي لا تقهر، فقد أثبتت المقاومة الوطنية اللبنانية في كثير من المعارك أنها كانت سيدة المعركة، وسيدة الصمود وسيدة الكرامة، كما أثبتت للعالم كله أن معركة الجنوب اللبناني واحدة من المعارك الكبرى التي تضاف إلى معارك المقاومين في فيتنام حين انتصر الفيتناميون على الأمريكان،

وفي روسيا حين انتصر الروس على نابليون بونابرت، وفي فلسطين حين انتصر مقاومو الانتفاضة الفلسطينية على جيش العدو الصهيوني ولا تزال معركتهم الوطنية مستمرة.

**ثالثاً:** كشفت أحداث حرب تموز في لبنان أن المجتمع الدولي مجتمع عاجز، ومتردد، وضعيف، ومختزل لعدد محدود من الدول الكبرى التي تتحكم بمقاليد الشعوب وتطلعاتها، وهي دول محكومة بالمقولات والتوجهات الصهيونية. ويتبدى ذلك من خلال ما قامت به الولايات المتحدة الأمريكية من تجنيد لكل الهيئات والمنظمات الدولية، وخصوصاً مجلس الأمن الدولي، من أجل استصدار القرار (١٧٠١) الذي وضع من أجل إنقاذ الكيان الصهيوني من هزيمته العسكرية المحققة، الأمر الذي جعل قادة الكيان يتشدقون بانتصار سياسي بعدما أخفقوا في تحقيق أي انتصار على الأرض.

**رابعاً:** أوضحت نتائج حرب تموز أن الوضع الرسمي العربي يعاني من مشكلات بالغة الحدة والتعقيد، ولا سيما حين أذعن للترهيب والترغيب من قبل الإدارة الأمريكية، على حين أن بعض الأنظمة العربية أبدى عجزه وضعفه في معركة مصيرية تعني الأمة العربية جمعاء. فالنظام العربي الرسمي لم يكن بالحال المرضية إذ ظهر ــ غالباً ــ مفارقاً لآمال شعبه وطموحاته، ومتحالفاً مع السياسة الأمريكية.

**خامساً:** أوضحت حرب لبنان أن الأمة العربية أمة حية بعدما تفاعلت وتضامنت مع المقاومة اللبنانية من المحيط إلى الخليج. وهو موقف يؤكد الفجوة الكبيرة المرعبة بين الأنظمة الرسمية العربية وشعبها. وهذا ما يتطلب مراجعة وطنية على كل المستويات والصعد لتعزيز الجبهات الشعبية الداخلية لمواجهة كل المشاريع العدوانية الصهيونية والأمريكية المراد فرضها على المنطقة، كما يتطلب مراجعة قومية لتعزيز الجبهات القومية وفق معاهدة الدفاع العربي المشترك ومقاطعة البضائع الصهيونية والأميركية، وقطع النفط عن الكيان الصهيوني وسحب ممثلي السفارات العربية من دولته المزعومة.

**سادساً:** أوضحت نتائج الحرب أيضاً أن أي رهان على القوة الخارجية، ومنها الولايات المتحدة الأمريكية، هو رهان خاسر وباطل ذلك لأن الولايات المتحدة الأمريكية تعمل وفق مصالحها ووفق مصالح ربيبتها (إسرائيل). فهما

تسعيان معاً لتشكيل فرق من العملاء الذين يعملون لصالحهما في المنطقة العربية وأنهما معاً غير معنيتين بأية توجهات وطنية أو قومية تخالف الأهداف الأمريكية والصهيونية.

**سابعاً**: أكدت الحرب الأخيرة أن الصراع مع الكيان الصهيوني هو صراع وجود لا صراع حدود، وأن التناحر ما بين المشروعين العربي والصهيوني إنما هو تناحر ما بين الحق والباطل، والمظلوم والظالم، والضحية والجلاد، والخير والشر.. وأن الكيان الصهيوني لا يفهم إلا لغة المقاومة.

**ثامناً**: أسقطت نتائج الحرب الأخيرة كل مقولات السلام، وخيارات السلام لأن الكيان الصهيوني لا يريد السلام ولا يملك أي مشروع لإقامته، ولا يسعى إليه ما دام يمتلك القوة الغاشمة التي توفرها له الولايات المتحدة الأمريكية، وأن السلام في عرف الصهاينة هو احتلال للأرض، ودوس لكرامات الشعوب، وسحق للإرادات، وتدمير للمقاومة الشعبية الوطنية.

**تاسعاً**: أسفرت المعركة الوطنية في جنوب لبنان عن العديد من المشاريع الاستعمارية العدوانية التي خططت الإدارة الأميركية لتنفيذها في المنطقة بوساطة أداتها العدوانية (إسرائيل) ومنها العمل على إقامة شرق أوسط جديد برعاية أمريكية وعزل سورية وتصفية دورها الوطني والقومي في المنطقة العربية، وضرب إيران وإضعافها للحدّ من دورها الإقليمي في المنطقة، وخنق حركة المقاومة الوطنية، في فلسطين المحتلة وشل حركتها. وقد تجلى هذا في الفتنة القاتلة بين الأخوة الفلسطينيين، إذ نشب القتال بين منظمتي (حماس وفتح) كان آخره القتال المر الذي اشتد في غزة بين (١٠ –١٦/٦/٢٠٠٧م) وأدى إلى سيطرة (حماس) على غزة، على حين سيطرت (فتح) على الضفة الغربية، وأخرجت (حماس) من مقراتها. هكذا تمزقت الدولة الفلسطينية قبل أن تولد، وتحول القتال المقدس إلى قتال مدنس ووسخ ترك أثره البشع في القضية الفلسطينية برمتها، وأوقع النفس العربية في إحباط لا يقل عن إحباط هزيمة حزيران، التي تمر ذكراها الأربعون، والقتال جار بين الأشقاء. لقد حققت أمريكا والدولة اللقيطة بأيدي أبناء القضية ما عجزت عنه في الواقع، فأحداث غزة كسرت نفسية الشعب الفلسطيني وهو الذي صَمَد أمام الآلة العسكرية الوحشية للكيان الصهيوني. وكذلك عملت الإدارة الأمريكية والصهاينة على

تصفية المقاومة الوطنية في لبنان ولا سيما (حزب الله) وإلحاق لبنان بالمشروع الصهيوني بربطه باتفاق سياسي جديد شبيه باتفاق ١٧ أيار السيئ الذكر. ومن ثم ضغطت الإدارة الأمريكية الصهيونية على إصدار القرارات التي ساعدتها على تشويه المقاومة الوطنية اللبنانية بوصمها أنها مقاومة مذهبية شيعية، ثم وضعت (حزب الله) على قائمة الإرهاب، وراحت تثير الفتنة الداخلية في لبنان لإيجاد الأعداء الداخليين الذين يحرصون على نزع سلاح (حزب الله).. وما زالت سياسة الفتنة التي يقودها السفير الأمريكي في لبنان مستمرة من أجل الإيقاع بين اللبنانيين.

**عاشراً**: أكدت نتائج المعركة الوطنية في لبنان أهمية الوحدة الوطنية في لبنان أولاً و في الوطن العربي ثانياً، فقد كانت الوحدة الوطنية اللبنانية، والجبهة الشعبية العربية والإسلامية، وجبهة الأحرار في العالم السند الحقيقي للمقاومة الباسلة، الأمر الذي جيش لحضور شعبي وطني صادق في العديد من بلدان العالم في الشرق والغرب معاً، فقد كانت الشعوب هي المؤيد الأول للمقاومة الشريفة، وهي المقياس الحقيقي لشريعة المقاومة ووطنيتها.

**حادي عشر**: أكدت نتائج الحرب الأخيرة أن العدالة لا تحققها قرارات الأمم المتحدة التي تتحكم بصياغتها وإعدادها وإصدارها الإدارة الأمريكية خدمة لربيبتها (إسرائيل) وأن ما يحقق العدالة هي الشعوب المطالبة بحقوقها المغتصبة، والمتمسكة بإرادتها الوطنية الرافضة لليأس والاستسلام والخضوع لمنطق القوة الأمريكي ــ الصهيوني في المنطقة. ويبدو أن هذا الاتجاه بدأ يظهر في العديد من دول العالم وبأشكال شتى في فنزويلا وكوريا وكوبا وإيران، بل في أوربا والصين وروسيا. فهناك إرهاصات تدل على التململ الكبير من الهيمنة الأمريكية على العالم، ولا سيما ما ظهر في مؤتمر الأمن المنعقد في (ميونيخ)، مطلع (شباط ــ ٢٠٠٧م). وفيه قال الرئيس الروسي فلاديمير بوتين: (الاستقطاب الأحادي الأمريكي غير مقبول، بل إنه صار مستحيلاً في عالم اليوم".

وبناء على ما تقدم كله نقول: علينا نحن الأدباء والكتاب والمثقفين أن نستلهم انتصار المقاومة في لبنان وفلسطين والعراق إرادة وصبراً، إيماناً وصدقاً، معرفة وخبرة لتشكيل حياتنا وإرادتنا الحرة وفق حراسة المروءة

والدفاع عنها، وأن نخلق ثقافة إبداع متمسكة بإرادتها، ثقافة ترتقي إلى مستوى الحدث النوعي لبطولات المجاهدين الأحرار، والكشف عن المجازر الوحشية الجماعية لآلة البطش الصهيونية المدعومة بآلة القتل الفتاكة المصنوعة في أمريكا والمرسلة إلى قتل أطفالنا ونسائنا، ومحو هويتنا وثقافتنا إذ لا تتحقق الجدوى من أي مقاومة إن لم تُبْنَ على فكر واعٍ وخلاق، فكر نضالي وطني يلتزم بالإنسان الحر والكريم ويتفانى بالدفاع عن ثوابته الوطنية والقومية.

⊥⊥⊥

# الفصل الثالث:

## انتفاضة الأقصى، أبعاد ونتائج وآفاق

١ ـ مدخل

٢ ـ أبعاد الانتفاضة

٣ ـ نتائج الانتفاضة

٤ ـ آفاق الانتفاضة

الفصل الثالث:

# انتفاضة الأقصى : أبعاد ونتائج وآفاق

## مدخل:

قد يقول قائل: إن الحديث عن انتفاضة الأقصى التي اندلعت شرارتها إثر تدنيس أرئيل شارون للأقصى الشريف يوم دخله في (٢٨/٩/٢٠٠٠م) لم يعد جديداً ... فقد جرت فيها كثير من أقلام الدارسين ووقفوا عند أبعادها ونتائجها .... وحين ذهب غير واحد من تلك الأقلام إلى التشكيك بجدوى المجابهة المسلحة للفلسطينين والعرب، لاختلال الموازين العسكرية والدولية، لصالح العدو الاستيطاني الصهيوني ومن ثم الاحتلال الأمريكي للعراق وغيره ... وأخذ التفاضل بين أسلوب المقاومة المسلحة وأسلوب المقاومة السلمية بكل أشكالهما يجري على الألسنة هنا وهناك ولاسيما أنه قد سقط فيها ما يزيد على خمسة آلاف شهيد وأكثر من (٤٠) ألف جريح وسجين فإن باحثين كثيرين ومفكرين عديدين ما زالوا يرون أن المقاومة المسلحة ستبقى السبيل الوحيد للدفاع عن الوجود الكريم ولتحرير الأرض والإنسان.

ومن هنا أرى أن العلاقة علاقة وجودية بين المخلوق عامة وبيئته أو مجاله الحيوي كما يقال في عالم الحيوان .. فالحيوان – أياً كانت قدراته – يلتصق غريزياً ببيئته ويدافع عنها، لكن علاقة الإنسان بالمكان تتخذ أشكالاً راقية من الانتماء والتفاعل لما أودعه الله فيه من سر إعمار الأرض[1] وتسخير كل شيء لخدمته في الوقت الذي حرم الله على الإنسان قتل أخيه الإنسان ... لكن بني إسرائيل كانوا على الدوام أعداء المحبة والإنسانية، لهذا خصهم الله – سبحانه وتعالى – بحكم النهي عن القتل الذي استمرؤوه بحق البشرية فقال: «

---

[1] *راجع ما تقدم٥٢ وما بعدها.*

من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك لمسرفون » (المائدة ٥/٣٢)، فتعاليمهم في التوراة والتلمود وغيرهما تثبت عنصريتهم، وهمجيتهم في سفك الدماء وبراعتهم في الغدر والخداع والتعامل بالربا و .... [1] ومن ثم فإن الحكم واضح في بني إسرائيل الذي قدّسوا القتل والفساد في الأرض، إذ كان واجب البشرية دفع أذاهم وشرورهم أينما وجدوا ... وليست انتفاضة الأقصى التي دخلت عامها الخامس في (٢٨/٩/٢٠٠٤م) إلا شكلاً من أشكال مجابهة الاحتلال و القتل، (والقتل أنفى للقتل) كما قيل على ألسنة عرب الجاهلية. وليس هناك مراء في أن هذه الانتفاضة قد تراجعت وتيرتها على نحو ما في نهاية هذا العام، ثم تغيّر وجهها في عام (٢٠٠٥م)؛ لكنها ستبقى حدثاً تاريخياً يفرض على الباحث تحليله وبيان مالــه وما عليه.

فدخول شارون حرم المسجد الأقصى ليس مجرد زيارة مباحة في مفهوم الشرع الإسلامي، وإنما رسالة صهيونية مبنية على معتقدات كاذبة تؤمن بتأسيس مملكة إسرائيل وبناء هيكل سليمان المزعوم بعد هدم الأقصى الشريف، ولا سيما أن عدداً من الصهاينة العنصريين قد صرحوا بأن الطائرات الإسرائيلية ستقوم بذلك بعد أن أخفقت عملية الأنفاق المحفورة تحته، ولم تفلح بهدمه، أو إثبات أي صلة لليهود به فضلاً عن ارتباط فلسطين اسماً وتاريخاً بالشعب الفلسطيني كما دلت عليه المكتشفات والآثار[2]. ما يعني التنكر لكل قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالقدس المحتلة والإجراءات المتعلقة بها ومنها القرار رقم (٢٥٢) تاريخ (٢١/٥/١٩٨٦م) ونصه كما يأتي: " دعوة إسرائيل إلى إلغاء جميع إجراءاتها لتغيير وضع القدس.

---

*[1] انظر – مثلاً – أسطورة هرمجدون والصهيونية المسيحية ٢٨-٣٢ واليهود – عقائد وتاريخ اجرامي ٦٨ وما بعدها و١٠٩ وما بعدها و٢١٧ وما بعدها، والمشروع الصهيوني والسلام الإسرائيلي – حقائق ووثائق – ٦٠ وما بعدها.*

*[2] انظر مثلاً – الموسوعة الفلسطينية ٢١٩/١ -٢٢٢و٢٧٤/٣-٢٧٧ والمشروع الصهيوني ٣٨٢ وأبعاد القضية الفلسطينية ١٣٠-١٣٢ وانظر حاشية (٤١) مما يأتي.*

إن مجلس الأمن، إذ يستذكر قراري الجمعية العامة، رقم ٢٢٥٣ (الدورة الاستثنائية الطارئة ــ٥) الصادر في ٤ تموز (يوليو) ١٩٦٧، والقرار رقم ٢٢٥٤ (الدورة الاستثنائية الطارئة ــ٥) الصادر في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٦،

وقد نظر في كتاب ممثل الأردن الدائم رقم (S/٨٥٦٠) (٣٤١) حول الوضع في القدس وتقرير الأمين العام رقم (S/٨١٤٦)، (٣٤٢) وقد استمع إلى البيانات التي ألقيت في المجلس، وإذ يلاحظ أنه منذ تبني القرارات المذكورة أعلاه، فقد اتخذت إسرائيل المزيد من الإجراءات والأعمال التي تتنافى مع هذه القرارات، وإذ يذكر الحاجة إلى العمل من أجل سلام دائم وعادل، وإذ يؤكد رفضه الاستيلاء على الأراضي بالفتح العسكري:

١ ــ يأسف على فشل إسرائيل في الامتثال لقرارات الجمعية العامة المذكورة أعلاه.

٢ ــ يعتبر أن جميع الإجراءات الإدارية والتشريعية، وجميع الأعمال التي قامت بها إسرائيل بما في ذلك مصادرة الأراضي والأملاك التي من شأنها أن تؤدي إلى تغيير في الوضع القانوني للقدس، هي إجراءات باطلة ولا يمكن أن تغير وضع القدس.

٣ ــ يدعو إسرائيل بإلحاح إلى أن تبطل هذه الإجراءات وأن تمتنع فوراً عن القيام بأي عمل آخر من شأنه أن يغير وضع القدس.

٤ ــ يطلب من الأمين العام أن يقدم تقريراً إلى مجلس الأمن حول تنفيذ هذا القرار".

لهذا كله كانت انتفاضة الأقصى التي فاجأت العالم كله بما فيه الصهاينة، بعد أن تهيأت لها العبر والدروس من الانتفاضتين السابقتين: انتفاضة الحجارة لعام (١٩٨٧) التي اوقفتها محادثات أوسلو ومعاهدتها في (١٩٩٣/٩/١٣) وانتفاضة النفق سنة (١٩٩٦) التي أوقفتها محدثات واشنطن في (واي ريفر) سنة (١٩٩٨)[1].

لقد رجح للشعب الفلسطيني في الداخل وفي منافي الشتات أن المجابهة المسلحة هي السبيل الوحيد والأخير لمقاومة غطرسة الإبادة الوحشية الصهيونية المنظمة وبخاصة إثر الاخفاقات السياسية المتلاحقة للسلطة الفلسطينية التي وضعت

---

[1] *انظر المشروع الصهيوني ٣٥٧ و ٣٧١.*

كل قراراتها في السلة الأمريكية خاصة والأوربية عامة، .... فكانت الانتفاضة وسيلته الوحيدة التي يملكها أمام القتل والتهجير [1] والإلغاء والوجود ...

**٢ ـ أبعاد الانتفاضة:**

لقد أدركت انتفاضة الأقصى بحكم وضعها التاريخي والوطني والقومي والاجتماعي والسياسي والفكري أن قدرها الحتمي يتجلى في الدفاع عن الوجود والمصير، بعد أن تركزت في أبعاد كثيرة تعد في طبيعتها نتائج في آن معاً ومنها :

١- أعادت الانتفاضة الزمن الوطني والقومي كله ودفعة واحدة إلى الوراء، فأكدت أن الصهاينة يريدون فلسطين أرضاً بلا شعب، لأنهم يطبقون تعاليم التلمود وكتاب (الكابلاه) أي (الرعب والإرهاب) بحق السكان الأصليين لفلسطين، ويرون أن أرواح هؤلاء الفلسطينيين نجسة على حين أن أرواحهم من روح الله ... لأنهم شعب الله المختار [٢].

لهذا مارسوا من قبل عمليات الإبادة الجماعية، وفق أحط المعتقدات التي يؤمنون بها ليصلوا إلى أهدافهم، وإقامة دولتهم المزعومة من الفرات إلى النيل كما صرح بها ذات يوم وزير الدفاع السابق (موشي دايان) لصحيفة (الجيروزلم بوست) في (١٠/٨/١٩٦٧م) إذ قال : ((إذا كنا نملك التوراة وكنا نعتبر أنفسنا كشعب توراة فإنه يجب أن نملك الأرض التوراتية، أرض القضاة والشيوخ والقدس والجليل وأريحا وأمكنة أخرى)). إن موشي دايان ومن ثم شارون يطبقون ما جاء في سفر التكوين رقم (١٣-١٤-١٥-١٧) إذ روى السفر الخامس عشر أن الرب عقد مع ابراهيم عهداً يقول : ((لنَسْلكَ أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير)) أي الفرات[٣]. أنهم يرون قتل الأغيار جزءاً من قرابين مقدمة للإله الذي يرعى عظمة مستقبلهم السعيد[٤].

فالانتفاضة كانت تتحرك في صميم هذه المفاهيم التي آمن بها الصهاينة وتتشكل فيها أبعادها المتعددة ... ولا سيما ما يتعلق بالصحوة الفكرية ......

---

[1] *انظر أسطورة هرمجدون ٢٣٣ .*

[2] *انظر أسطورة هرمجدون ٢٣٦-٢٤٠ وأزمة فلسطين بين الحقائق والتزوير ٢٢٢-٢٢٣ .*

[3] *الموسوعة الفلسطينية ٥٩٢/١ وانظر المشروع الصهيوني ٦٩ و ٤١٨ و أسطورة هرمجدون ٢٢٥ و ٢٧٧-٢٨٨ وأزمة فلسطين ١٩٨ .*

[4] *انظر أسطورة هرمجدون ١٨٤ .*

٢- شكلت الانتفاضة صحوة فكرية فاعلة في داخل فلسطين وبلاد العرب والإسلام والعالم كله لفهم حقيقة الكيان الصهيوني، وتجلت هذه الصحوة دراسات وأبحاثاً كثيرة حين خاضت غمار المجابهة علانية. ولا شيء أدل على هذا من تصريح أو بيان غابريل ماركيز الذي رفض جائزة نوبل للآداب لكيلا يقترن اسمه باسم مناحيم بيغن وارئيل شارون شاربي الدماء[1].

فكثير من المثقفين والمفكرين والأدباء الشرفاء لم يكونوا قادرين على اقتحام ساحة الانتفاضة واكتشاف أسرارها والوقوف إلى جانب المستضعفين في الأرض لولا إدراكهم لما يجري في الأرض المحتلة من إبادة جماعية للشجر والحجر والبشر ولولا أنهم عاشوا حقيقة هذا البعد من الصحوة الواعية ...

٣- مارست انتفاضة الأقصى مبدأ التحام القوى السياسية الداخلية ولا سيما قيادات الانتفاضة على اختلاف انتماءاتهم الفكرية والدينية ... فقد اتفقوا جميعاً على التحرر الوطني في إطار تعزيز الهوية الفلسطينية العربية والإسلامية ... ثم انتقل اتفاقهم إلى تعاون فاعل ومثمر على صعيد المجابهة العسكرية بكل الوسائل ... وهذا البعد لم يتوافر لانتفاضة الحجارة سنة (١٩٨٧م).

٤- عاشت انتفاضة الأقصى مفاهيم الشهادة الراقية، فلم يكن الاستشهاد هواية ولا انتحاراً لسبب ذاتي أو اجتماعي وإنما هو دفاع مشروع عن الوجود والحياة فأطفال الحجارة كبروا ونضجوا نتيجة المعاناة الطويلة لممارسة العدو الوحشية في تجويع البطون واستمرار الحصار وتجريف الأرض وتهديم البيوت على العجائز والنساء والأطفال ... لم يكن لهذا الطفل خيار إلا الدفاع عن وجوده وحياته ولا يضيره أن يموت في سبيلهما وعلى أرضه. فكذّب مقولة موشي دايان : الكبار يموتون والصغار ينسون وتنتهي قضية الشعب الفلسطيني ....

ومن ثم فكل طفل كان يتمنى أن يعيش طفولته كبقية أطفال العالم وأن يمارس حياته بهدوء وأمان، وأن يحظى بأقل التعليم والمعرفة دون قهر أو ذل أو قتل أو إغلاق لمدرسة ... لكن الصهاينة أعداء الطفولة والإنسانية لم يتركوا له شيئاً، حتى الحلم بوطن محدود قتلوه في نفسه وسرقوه من مخيلته ....

---

(1) *انظر مجلة الأسبوع الأدبي – عدد ٩٣٢-١٣/١١/٢٠٠٤م – ص ١ و ٥.*

فلو أحصينا ما قامت به إسرائيل، وفق العديد من الإحصاءات، ولا سيما إحصاءات الأمم المتحدة، وأقوال مبعوثها (تيري لرد لارسن) لرأينا – منذ بداية الانتفاضة – ما يأتي:[1]

أ- قتلت ما يزيد على (٣٧٠٠) فلسطيني فيهم (٦٥٢) طفلاً و(٢٤٢) امرأة منهن من سقطن شهيدات في أثناء الذهاب إلى المشفى ...

ب – جرحت ما يزيد على (٤٤٠٢٢) شخصاً، جراحات كثير منهم خطرة وأخرى عطلت حياة الجرحى الطبيعية ولا سيما أنها تستخدم الأسلحة المحرمة دولياً كما تستخدم طائراتها وصواريخها استخداماً غير قانوني ولا شرعي ...

ت – كما أسرت ما يزيد على (١٥٠٠٠) أسير في سجون لا تليق بالبشر مع التعذيب والعقوبات القاسية المحرمة دولياً كما في المادة الخامسة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لعام (١٩٤٨م) والمادة السابعة من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية لعام (١٩٩٦م) وغيرهما ...

ث – إنها قتلت (٣٠٠٠٠) من رؤوس البقر والأغنام والماعز ....

ج- إنها قلعت ما يزيد على (١٠٠٠٠) شجرة ....

ح – إنها دمرت (٥٧٠) منشأة فلسطينية ....

خ – صادرت (٢٠٨١٥) دونماً لصالح الجدار العنصري فقط، فضلاً عن مئات الآلاف المصادرة من قبل لبناء المستوطنات وغيرها[2].

د – إنها فصلت العمال الفلسطينيين، فأوجدت أزمة عطالة وبطالة زاد عدد العاطلين على (٢٦٠) ألفاً، فضلاً عن سياسة التهجير للعرب بأشكال شتى مرعبة[3].

فإسرائيل ظهرت بكل وضوح أنها دولة إرهابية إجرامية خارجة على القانون الدولي، والشرائع السماوية والإنسانية .... فهي لم تكتف بإيقاف التنمية

---

[1] *انظر مثلاً – المشروع الصهيوني ٤٥٤.*

[2] *انظر الاستيطان الاستيطاني [محاضرات في الاستيطان الصهيوني] -٣٧-٤٠ و ٥١ – ٥٨ و ٦٠ – ٧٤ و ٩٩ – ١٠٣ والمشروع الصهيوني ٤٦٥-٥٠٥ واليهود عقائد وتاريخ اجرامي ٥١٢-٥١٨.*

[3] *انظر المشروع الصهيوني ٢٠١-٢٠٥*

الفلسطينية حتى بلغت خسارتها ما يعادل (١٥) مليار دولار فتراجع القطاع الزراعي بنسبة (٧٥%) عما قبل والقطاع الصناعي بنسبة (٦٥%) فازداد عدد الفقراء حتى بلغوا مليوني نسمة لا يزيد إنفاق أفضل واحد فيهم علىدولار واحد باليوم ... وإنما عمدت بكل وحشية وهمجية إلى قتل بشع بحق الفلسطينيين .... إنها تمارس القتل المنهجي والاغتيال المنظم الفردي والجماعي، لأن ((القوة تأتي قبل الحق، وبغير القوة لا يقتلع شعب من أرضه)) كما قال هرتزل[1].

إن إسرائيل تمارس إرهاب الدولة مستعملة الآلة العسكرية الأمريكية كالسيارات المفخخة وطائرات الفانتوم والأباتشي والقذائف المسمارية و .... والجداول كثيرة وطويلة كلها تثبت جرائمها ومجازرها التي لم يسلم منها طفل ولا امرأة ولا ضعيف ولا عاجز فضلاً عن اغتيالات الموفدين الدوليين وغيرهم:[2].

أ- اغتيال المهندس يحيى عياش في مطلع عام (١٩٩٦م) بوساطة هاتفه النقال ....

ب - استهدفت الشيخ صلاح شحادة في (٢٠٠٢/٧/٢٣م) فقتلت (٢٨) شخصاً بريئاً غالبيتهم من النساء والأطفال والشيوخ.

ج - اغتيال ستة أشخاص منهم نضال فرحات (٢٠٠٣/٢/١٦م) عن طريق تفخيخ طائرة لاسلكية (لعبة أطفال) وتفجيرها عن بعد.

د - اغتيال محمد العبيدات في بيت لحم يوم (٢٠٠٢/١٠/١٣م) بوساطة تفجير هاتف عمومي.

هـ - قتل (١٧) قيادياً من منظمة حماس وجرح كثيرين آخرين معظمهم من الأطفال و النساء يوم (٢٠٠٣/٣/٢٠م) حين فجرت سيارة عند مدخل مخيم النصيرات.

و- محاولة اغتيال عدد من الفلسطينيين فكانت الحصيلة جرح أربعين شخصاً جراح بعضهم خطيرة في أيلول (٢٠٠٤م) في ميدان الياسين شرقي الشجاعية حين ضربته بالصواريخ من طائرات الأباتشي وغيرها ...

---

[1] *محاضرات في الصهيونية* ٦٦.

[2] *انظر مثلاً – اليهود عقائد وتاريخ اجرامي* ٣٠٦ – ٣١١ و ٣١٥-٣١٨.

ز- اغتيال محمود أبو طوالبة يوم (٢٠٠٤/٣/٢٣) حين وجهت طائرة اسرائيلية صواريخها إليه برفقة شيخ المجاهدين المرحوم أحمد الياسين.

ح- اغتيال شيخ المجاهدين أحمد الياسين وهو خارج من صلاة الفجر يوم (٢٠٠٣/١٠/٢٣م) حين وجهت الطائرات صواريخها إليه وهو مقعد في كرسيه.

ط - اغتيال الدكتور عبد العزيز الرنتيسي يوم (٢٠٠٤/٤/١٧م) حين قصفت الطائرات النفاثة الإسرائيلية منزله بالصواريخ الموجهة.

ي - اغتيال عز الدين الشيخ خليل وسط دمشق في حي الزاهرة بسيارة مفخخة فجرت عن بعد بوساطة العملاء والخونة يوم (٢٠٠٤/٩/٢٣م).

إن قائمة الإجرام طويلة وأسماء الشهداء كثيرة فقد حاولت اغتيال السيد خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحماس في الأردن سنة (١٩٩٧م) ولكن الله أمد بعمره، على حين اغتالت ما يزيد على (٤٠٠) شخصية قيادية بكل الوسائل التي تملكها وبشكل منظم ومخطط له دون أن يردعها قانون دولي، أو بقايا من ضمير إنساني فالقتل عند قادة إسرائيل يعادل وجودهم كما قالت غولدامائير ((أنا أقتل، فأنا موجودة))[١].

ويمكن أن نشير إلى أسماء آخرين من الشهداء الذين اغتالتهم إسرائيل ومنهم (جمال منصور وجمال سليم ومحمود أبو هنود ومهند الطاهر وابراهيم بني عودة ونصر جزار وأيمن حلاوة ومهند أبو حلاوة وياسر رزوق وحسين عبيات وثابت ثابت وأحمد ريحان ورائد نزال وناصر عويس وأبو علي مصطفى قائد الجبهة الشعبية).

إن قادة الحركة الصهيونية يتبارون في ارتكاب المجازر الوحشية الجماعية وكذلك هم أطفالهم الذين يتلذذون بقتل العرب إذ تقول تلميذة يهودية صغيرة ((تستبدّ بي رغبة جامحة لقتل العرب جميعاً))، ثم يُشَرِّعُ حاخاماتهم ذلك كله[٢].

وبناء على ذلك كله يتساءل المرء: لم تصر دولة الكيان الصهيوني المدعومة بقرار الفيتو الأمريكي وآلته العسكرية على ارتكاب إبادتها الجماعية بحق الفلسطينيين؟ والجواب لا يكمن -فقط- في التخلص من أكبر عدد،

---

[1] *محاضرات في الصهيونية ٦٦ انظر الإيديولوجية الصهيونية ١٢٨/٢.*

[2] *محاضرات في الصهيونية ٦٦ وانظر المشروع الصهيوني ٧٢ وما بعدها.*

وإرعابهم لإكراههم على الهجرة والاستيلاء على أملاكهم واستجلاب يهود العالم بدلاً منهم ... وإنما يكمن – أيضاً– في خلط الأوراق بين مفهوم الإرهاب والمقاومة وإيهام العالم بما تتبناه من مخططات القتل والشر بعد أن كشفت انتفاضة الأقصى زيف ما تقوله، وخداعها المستمر لكي تتنصل من كل قرار دولي فهي تتبنى سياسة القتل العشوائي لأهداف منها :

١– إظهار إسرائيل بصورة الدولة الشرعية المعتدى عليها مما تطلق عليه (الإرهاب) الفلسطيني والعربي والإسلامي مستغلة اعتراف الدول بها في هيئة الأمم المتحدة، بما فيها الدول العربية والإسلامية ولا سيما بعد قراري مجلس الأمن (٢٤٢) و (٣٣٨).

فهي تظهر للعالم أنها لا تمارس عملية القتل المنظم والتدمير المنهجي وإنما تقوم بتخليص العالم الحر من الإرهابيين وشرورهم لأنهم يهددون السلام العالمي والعالم الغربي المتمدن ... ولهذا وجب التخلص من هؤلاء الإرهابيين في إطار الدفاع عن الذات وعن السلام وقد نجح شارون المجرم في ربط محاربته للفلسطينيين تحت اسم الإرهاب بعد أحداث الحادي عشر من أيلول (٢٠٠١م) بمكافحة أمريكا للإرهاب في أفغانستان على الرغم من أنه من عتاة الإرهابيين كدولته الخارجة على القيم والشرائع والقوانين.

٢– إظهار القدرات العسكرية الفائضة عند الصهاينة لزرع الرعب والخوف في نفوس الشعب الفلسطيني وقادته ... فهذه الآلة العسكرية المتفوقة قدرة وتقانة يمكنها النيل من رموز المقاومة و الوصول إليها أينما كانت .... لهذا عمد الصهاينة إلى أمرين اثنين:

الأول : القيام بضربات وقائية واستباقية عسكرية بالطائرات النفاثة بطيار ومن دون طيار، وبطائرات الأباتشي، وبالصواريخ والقذائف المسمارية وغيرها ... ونفذت ذلك مسوغة إياها بالدفاع عن الذات، وفي إطار مظلة مكافحة الإرهاب الدولي، ... إنها تنفذ مجازرها الجماعية وإبادتها الوحشية تحت هذا الشعار ... وهذا ما تمارسه أمريكا في أفغانستان والعراق ... مستغلة هيمنتها على المحافل الدولية، وسيطرتها على الإعلام والاتصالات والفضائيات ....

الثاني: شراء ضعاف النفوس من الفلسطينيين والعرب ومن باعوا أنفسهم للشيطان وخانوا أوطانهم وعقيدتهم ... فجندت إسرائيل عدداً منهم فكانوا مرتزقة مخلصين ينفذون أوامرها في ظل مبدأ الترهيب والترغيب ...

واستطاعت أن تجند نحو (٦٠٠٠) عميل، وبهذا أحدثت شرخاً كبيراً وقاتلاً في بنية المجتمع الفلسطيني ثم العربي.

٣- المحافظة على الروح المعنوية للصهاينة، وتحريرهم من عقيدة الخوف والرعب والاضطراب والقلق والأمراض النفسية الأخرى التي استشرت فيهم وتعاظمت في أنماطهم السلوكية، ومن ثم قتل الروح المعنوية المتصاعدة التي بدأت تتعزز لدى الفلسطينيين والعرب وتدفعهم إلى الأمل والمستقبل.

٤- فرض الصيغ الأمنية الخاصة بها لإنجاز عملية السلام / التسوية أو ما يسمى بعملية وقف إطلاق النار للتنصل من القرارات الدولية، ولاسيما قرار حق العودة رقم (١٩٤) تاريخ (١٩٤٨/١٢/١١م) الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة والقاضي فيما تضمنه من قرارات بالسماح للاجئين بالعودة إلى ديارهم بعد انقضاء محنتهم ... وعدم تقسيم القدس وفق أي نظام بما فيه القرار رقم (١٨٦) تاريخ (١٩٤٨/٤/١٤م) القاضي بتعيين وسيط دولي لحماية المواقع المقدسة... وقبله القرار (١٨١) تاريخ (١٩٤٧/١١/٢٩م) الذي قضى في بنده الثالث بتقسيم القدس وفق نظام حكم دولي يرأسه مجلس وصاية علماً أن اليهود آنذاك لم يشكلوا نسبة سكانية تزيد على (٨%) ولا يملكون من الأرض إلا (٥%)[1].

وبهذا كانت إسرائيل تهدف من عملياتها الإجرامية، واغتيالاتها المنهجية إلى كسر التشبث بالأرض والعودة إليها. وهي في آن معاً تهدف إلى تفريغ فلسطين المحتلة من السكان حين تجبرهم وحشيتها على التهجير مرة أخرى إلى الأردن أو إلى أي مكان آخر، ومن ثم تنقلب على خارطة الطريق وهي الخديعة الكبرى لإدارة بوش الابن في الوقت الذي نتساءل: كيف يمكن لجائع، أو ذليل مقهور، أو إنسان استوى لديه الموت مع الحياة ألا يثور على جلاديه، ومغتصبي الحياة من أخوته أو أبنائه، أو أقربائه ؟.

---

(1) *انظر الموسوعة الفلسطينية ٥٥٢/١ و ٥٥٧ و ٣٥٩/٣- ٣٦٢ وحق العودة بين القرار ١٩٤ ووثيقة جنيف ٣٩-٤٤ والمشروع الصهيوني ١٩٧و ٢٠٦-٢١٠ وأزمة فلسطين ١٤٥-١٤٨.*

### ٣ ـ نتائج الانتفاضة:

في ضوء ما تقدم، وفي ضوء الواقع العربي والدولي، وفي ضوء معاناة الشعب الفلسطيني وقيمه ومبادئه ولا سيما المفاهيم الدينية – وهي أصل راسخ في نفسية الفلسطيني وثقافته – نرى أن انتفاضة الأقصى حققت نتائج باهرة في صميم معادلة الوجود والحياة والتفاؤل بنيل الحرية وهي نتائج تنبثق من الأبعاد السابقة وأبرزها:

١– أظهرت الانتفاضة أن الكيان الصهيوني دولة إجرامية إرهابية لا تقوم إلا على قتل الأغيار، والتلذذ بسفك دمائهم. فالصهاينة يرسمون خطط الاغتيال والقتل الجماعي والتهجير والتفريغ للفلسطينيين من أرضهم. ومن ثم فإن الانتفاضة أبرزتهم بأنهم أعداء السلام مهما تقولوا بأنهم لم يجدوا شريكاً للتفاوض معه في السلطة الفلسطينية ... لقد اتضح للعالم كله أن إسرائيل تريد تدمير البنية الاجتماعية والأسرية للشعب الفلسطيني ومن ثم تدمير البنية الوطنية والقومية، فلا يتذكر إلا الموت والقتل والتدمير والتصفية التي تمارسها آلة الدمار الوحشية ...

إنه التاريخ يكرر نفسه كما تصوره كتبهم لتعزيز الرعب في نفوس الناس وكما أظهروه في شخصية يوشع بن نون التي اصطنعوها مثلاً لهم في القتل والدمار والفساد فالصهاينة يزعمون أن فلسطين –ويسمونها يهودا – سقطت بالدم والنار وستنهض بالطريقة نفسها[1].

٢– أثبتت الانتفاضة أن وعي أطفال فلسطين في كل مكان قد ازداد عمقاً في هويتهم إذ تعلق الطفل بأرضه وخبر معالمها الجغرافية بكل تفاصيلها، هضاباً وجبالاً، سهولاً ووديانا، أنهاراً وطرقات، صحارى وغابات، قرى ومدناً ... غدا الطفل الفلسطيني مسكوناً بحب فلسطين و ما يجري على ثراها، فشرع يتمنى أن يكون أحد أبطالها المناضلين ولو كان طالباً جامعياً أو مهندساً أو محامياً أو .... أخذت أحلام العودة تكبر في نفسه ويرجو أن ينقل إلى ترابها ولو رفاتاً بعد أن كان هذا الحلم محصوراً بكبار السن من أبناء النكبة ...

٣– أثبتت الانتفاضة للعرب وللعالم كله أن المقاومة الشعبية المنظمة والموحدة هدفاً ووسيلة تعد السبيل الأمثل للتحرير مفيدة من تجارب الشعوب

---

[1] *انظر الإيديولوجية الصهيونية ٢/٦٩–٧٠ و ٩٤–٩٥ والمشروع الصهيوني ٦١–٧٢ والموسوعة الفلسطينية ٥٩٢/١ وما بعدها.*

المكافحة الأخرى. وحين تعلقت المقاومة الشعبية بالكفاح المسلح بكل أنماطه لم تهمل الأشكال الأخرى .... في الوقت الذي أدركت أن العمل الشعبي المقاوم إنما هو عمل تراكمي أساسه الإرادة والصبر والصدق والإخلاص، والتسلح بالعلم والمعرفة والتقنية وكل ما تحتاجه معركة التحرير.

٤- قضت الانتفاضة على عامل الرعب والخوف والقلق، والاضطراب وكل عجز تمكن في النفوس من آلة البطش الصهيونية ومجازرها الجماعية البشعة، ونقلته إلى نفوس الصهاينة وصفوفهم على الصعيد المدني والعسكري، فقد أدت روح الجهاد – على مستوى الكيان الصهيوني – ولا سيما العمليات الاستشهادية إلى نتائج مهمة منها:

أ – دفعت كثيراً من الصهاينة إلى التفكير مجدداً بحقيقة الهوية الصهيونية أهي حقيقية أم مزيفة ؟.

ب – ازدادت الهجرة المعاكسة من فلسطين المحتلة إلى الخارج، إذ وصل عدد الذين غادرها حتى منتصف عام (٢٠٠٤م) نحو مليون مهاجر [١] وبهذا لم يعد شعار (الوطن الآمن) أو (الدولة العبرية الآمنة) صحيحاً ولا حقيقياً، لأن الشعور بالأمن تراجع إلى حد كبير ... علماً أن الصهيوني الذي أتى إلى الأرض المحتلة تحت زعم التوراة بالأرض الموعودة كان يعتقد بأنه سيعيش بهدوء وطمأنينة لأنها من دون شعب[٢] ولهذا وحده – تجري محاولات الصهاينة الحثيثة للقضاء على الانتفاضة مستغلين الوضع الدولي والضعف العربي.

ج – ازدادت معدلات الجريمة ومحاولات الانتحار فضلاً عن انتشار الأمراض النفسية والاجتماعية ... فالمجتمع الصهيوني أصبح مأزوماً وغير قادر على مجابهة المشكلات اليومية التي خلقتها الانتفاضة له ... بل غدا الصهيوني – تحت مزاولة الإبادة الجماعية للشعب الفلسطيني – متبلد المشاعر، يمارس الإرهاب والجريمة على أبناء هويته بكل انتماءاتهم ... ولا سيما من يهود أفريقيا وآسيا ...

---

[1] *انظر الموسوعة الفلسطينية ٤/٥٢٣-٥٢٥ وأزمة فلسطين ١٤٥-١٩٨ وراجع ما تقدم ٩٢-٩٤.*

[2] *انظر الموسوعة الفلسطينية ١/١٨١-١٨٣ و ٤/٥١٦-٥٢٣ والمشروع الصهيوني ٢٧٣.*

د- ازداد عدد الفقراء والجوعى في المجتمع الإسرائيلي ولم يعد كثير من أبنائه قادرين على تغطية النفقات المنزلية والشهرية ... ففي عام (٢٠٠٣م) - مثلاً - لوحظ انخفاض متزايد في مستويات الحياة وظهر هذا على ألسنة الناس ... ولا سيما أن عملية التنمية قد تراجعت، فأصيب الاقتصاد الإسرائيلي بخسائر بلغت نحو (١٠ مليارات) دولار.

صحيح أن المقاومة لم يكن هدفها تهديد المنشآت الاقتصادية الإسرائيلية بيد أن استمرار الأزمات الداخلية سكانياً واجتماعياً وإصابة التنمية بهزات كثيرة ... قد أدى إلى زيادة عدد الجوعى والفقراء ...

هـ - أسقطت الانتفاضة مفهوم الأمن القومي، ومفهوم القوة الإسرائيلية المتوحشة التي لا تقهر ... فالعمليات الاستشهادية أعادت صياغة المفاهيم الأمنية بمثل ما أعادت صياغة الأنماط السلوكية الحياتية للصهاينة ... ثم ازداد الانقسام داخل المؤسسة العسكرية، فقد امتنع (٢٧) طياراً عن تنفيذ أوامر أرئيل شارون فضلاً عن امتناع كثير من الصهاينة عن الانخراط في الجيش أو الخدمة في الضفة الغربية وقطاع غزة ... إذا أهملنا الإشارة إلى فرار عدد من أفراد الجيش من الخدمة.

ولما زادت المشكلات المتنوعة في المؤسسة العسكرية زادت معدلات تدريب المستوطنين في الوقت الذي زادت الانتقادات الموجهة إلى شارون وإن لم يوجد منافس حقيقي له حتى الآن في الكيان الصهيوني بما في ذلك حزب العمل الذي سعى إلى الإئتلاف معه لتشكيل الحكومة لأهداف محددة ....

و- نقلت الانتفاضة المعركة إلى داخل البيت الصهيوني فالعمليات الاستشهادية جعلت ساحتها أرض فلسطين كلها بما فيها الأرض المحتلة منذ عام (١٩٤٨م) فلم يعد الكيان الصهيوني قادراً على منع المقاومة من الوصول إلى تل أبيب أو غيرها مما كان يظنه أنه بأمان وسلام ... ومن ثم لم يعد - أيضاً - يقرر موعد الهجوم أو تجنبه على ما يملكه من آلة همجية وتقنيات متقدمة ... فالمبادرة انتقلت إلى الاستشهادي فهو الذي يقرر زمان العملية ومكانها ...

هكذا أثبتت عمليات الاستشهاد بكل قوة واقتدار أن عملية الخوف والرعب صارت لصيقة بنفوس الصهاينة، ولا سيما حين شاركت المرأة الفلسطينية بعمليات استشهادية، أذهلت العدو وأرعبته، ووضعت الوطن الفلسطيني على

عتبات النصر مصداقاً لحديث الرسول الكريم (ρ) (( نصرت بالرعب مسيرة شهر ...))[1].

**ومن هؤلاء الشهيدات :**

١- وفاء ادريس عمرها ٢٦ سنة من مخيم الأمعري وهي أول من قام من النساء بعملية استشهادية في (٢٠٠١/١/٢٨م) أدت إلى قتل صهيوني واحد وجرح (١٤٠) آخرين ... فأحدثت عمليتها رعباً كبيراً في نفوس الإسرائيليين، بدليل زيادة التدابير الأمنية المشددة ....

٢- دارين أبو عيشة طالبة تدرس الأدب الإنكليزي وقد فجرت نفسها عند حاجز شرطة في الضفة الغربية يوم (٢٠٠٢/٢/٢٧م).

٣- آيات الأخرس عمرها ١٨سنة فجرت نفسها بالقدس الغربية فقتلت اثنين من الصهاينة في (٢٠٠٣/٣/٢٩م).

٤- عندليب طقاطقة فجرت نفسها في القدس الغربية فقتلت ستة من الصهاينة في (نيسان /٢٠٠٢م).

٥- نورا شلهوب استشهدت عند أحد الحواجز ولم تستطع تنفيذ العملية.

٦- هبة عازم دراغمة قتلت ثلاثة وجرحت العشرات في أحد الملاهي يوم (٢٠٠٣/٥/١٩م).

٧- المحامية هند جرادات قتلت اثنين وعشرين صهيونياً في (٢٠٠٣/١٠/٤م).

٨- ريم صالح الرياشي وهي أم لطفلين وأول استشهادية من غزة فجرت نفسها عند معبر (إيرنز) فقتلت أربعة صهاينة وجرحت العشرات يوم (٢٠٠٤/١/١٤م).

٩- زينب علي عيسى فجرت نفسها يوم (٢٠٠٤/٩/٢٢م) في مجموعة من الصهاينة ...

ولو قام أحد منا بعملية إحصائية لعدد من قتل من الصهاينة حتى مطلع (٢٠٠٤م) لوصل إلى (٩٧٩) قتيلاً و(١١٣٥٦) جريحاً مقابل (٤٣١٩) جريحاً من عام (١٩٤٧م) إلى عام (٢٠٠٠م).

---

[1] *لسان العرب – نصر.*

٥- طورت الانتفاضة خططها وأنظمتها الداخلية، في الوقت الذي طورت آليات العمليات الجهادية والأسلحة المحلية الفردية، فأنتجت قذائف القسام وابتكرت الأنفاق الملغمة .....

وبهذا كله تنوعت أشكال المقاومة ولا سيما العسكرية وهي أشكال لا تنفصل عن المقاومة السياسية والاقتصادية شعبياً وحزبياً ورسمياً محلياً وعربياً ودولياً ... ولا سيما ما يتعلق بالجدار العنصري الذي حكمت محكمة العدل الدولية في لاهاي ببطلانه.

٦ - ازداد دعم الجمعيات المحلية والعربية والإنسانية لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره واستقلاله وفق مبادئ الشرعية الدولية وقراري مجلس الأمن رقم (٢٤٢) تاريخ (١٩٦٧/١١/٢٢) ورقم (٣٣٨) تاريخ (١٩٧٣/١٠/٢٢م)[١].

وكذلك ازداد دعم الحكومات ولا سيما الغربية الأوربية لهذين القرارين وطفقت الجمعيات وبعض الحكومات تقدم المساعدات الغذائية والطبية والإسعافات والأدوات اللازمة للمستشفيات فضلاً عن الأطباء ...

ولعل فيما تقدم من نتائج التصعيد الفلسطيني والعربي وعلى صعيد الكيان الصهيوني فقد أثبتت مع الصحوة العربية قدرة فهم طبيعة الكيان الصهيوني العنصري من قبل أحرار العالم وارتباط هذا الكيان بتعاليم وعقائد شرعية شريرة مجسدة في التوراة والتلمود وكتاب (الكابلاه) وفتاوى الحاخامات: لعقة الدم الإنساني، فهذه العقائد عززت همجية الجنرالات وشهوتهم إلى الإبادة الجماعية وعمقت خبث الساسة وكراهيتهم للبشرية ...[٢] إن الكيان الصهيوني مجتمع مأزوم بالعنصرية وشرورها إنه حاقد على القيم والمبادئ والشعوب ....

وهاقد مضى على الصراع العربي الصهيوني ما يزيد على ٥٥ عاماً من المجابهة ولم يفلح العرب في تخطي الواقع الدولي المجسد بهيئة الأمم المتحدة التي أصدرت قراراتها معترفة بالكيان الصهيوني كما في القرار (٤٦) تاريخ (١٩٤٨/٤/١٧م) القاضي بوقف العمليات العسكرية والقرار السابق الصادر

---

[1] *انظر الموسوعة الفلسطينية ٣٢٠/١ - ٣٢١.*

[2] *انظر المشروع الصهيوني ٧٢-٧٤ واليهود عقائد وتاريخ اجرامي ٨٣ وما بعدها و ١٣٢ وما بعدها و ١٥٩ وما بعدها والموسوعة الفلسطينية ٣٤٦/٣-٣٥٥.*

أيضاً عن مجلس الأمن رقم (١٨١) تاريخ (١٩٤٧/١١/٢٩م) القاضي بتقسيم فلسطين والقدس بين الفلسطينيين واليهود ...

ولما تحولت حماية الصهاينة من الانتداب البريطاني ثم أوربا إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأخذ التحول الديمغرافي شكلاً مرعباً في توطين المهاجرين في فلسطين على حساب أصحابها ... وخاضت الدول العربية مع الكيان الصهيوني عدة حروب منها حرب (١٩٥٦م و ١٩٦٧م و ١٩٧٣م) فضلاً عن حرب (١٩٤٨م) وعن المقاومة المسلحة المستمرة للشعب الفلسطيني بانتفاضات متكررة منذ ثورة فلسطين (١٩٣٦م-١٩٣٩م) وتشكيل كتائب الجهاد المقدس في عام (١٩٤٧-١٩٤٨م) بقيادة عبد القادر الحسيني ثم انطلاق شرارة العمل الفدائي في (١٩٦٥/١/١م) ... نقول: لما كان ذلك كذلك لجأ عدد من الفلسطينيين والحكومات العربية إلى اعتماد سياسة المقاومة السلمية .... ثم أخذت تتشكل في نفوس كثير من الناس مفاهيم التفاضل بين المقاومة المسلحة والمقاومة السلمية .... ثم طفق كثير منهم في صميم مظاهر العجز العربي – يميل إلى المساومة وتبني استراتيجية السلام كخيار وحيد .... [١]

لهذا كله جاءت المؤتمرات العديدة، ابتداء بمدريد عام ١٩٩١م ومروراً باتفاقات أوسلو (١٩٩٣/٩/١٣م) واتفاقية وادي عربة عام (١٩٩٤م) وقبلها كلها اتفاقية كامب ديفيد في (١٩٧٩/٣/٢٦م)[٢] ملبية لتبني مفهوم السلام .

ولا مراء في أن انتفاضة الأقصى قد كشفت ألاعيب الكيان الصهيوني والتفافه على أي قرار دولي لإقامة السلام فخارطة الطريق التي تبنتها اللجنة الرباعية ممثلة بالأمم المتحدة والولايات المتحدة وأوروبا وروسيا تحولت إلى خطة شارون في فك الارتباط ومفهوم غزة أولاً وفق الانسحاب الأحادي من قبل إسرائيل عندما لم تستطع أن تحدث حرباً أهلية فلسطينية [٣].

ولا مراء أيضاً في أن الرئيس الفلسطيني الذي قتلته إسرائيل بالسم في يوم الجمعة (٢٩/ رمضان/ ١٤٢٥هـ /٢٠٠٤/١٠/١٢م) لأنه رفض التنازل النهائي عن القدس وقد وقع هو الآخر في فخ التسويات الإسرائيلية والجلوس

---

[1] *انظر الموسوعة الفلسطينية ١/١٥٠-٩٦ واليهود عقائد وتاريخ اجرامي ٣١٩-٣٧١.*

[2] *انظر الموسوعة الفلسطينية ٣/٦٢٥-٦٣٢ والمشروع الصهيوني ٣٧١.*

[3] *انظر حق العودة بين القرار ١٩٤ ووثيقة جنيف – ٢٨-٣٣ ولا سيما فيما يتعلق بخارطة الطريق.*

إلى طاولة المفاوضات برعاية الولايات المتحدة المنحازة إلى إسرائيل ... على الرغم من نجاح خططه بالانتقال من خارج الأرض المحتلة إلى داخلها ...

وبناء على ذلك بدأ سؤال كبير يراود كثيراً من الناس شرقاً وغرباً ولا سيما أهل الفكر والثقافة والسياسة: ما مصير انتفاضة الأقصى، وقد تسلم محمود عباس رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية وهو أحد مهندسي اتفاقات السلام مع زميله رئيس وزراء السلطة الفلسطينية أحمد قريع والواصف للمقاومين بالقتلة والإرهابيين [1]؟.

ما الآفاق التي ستنتهي إليها هذه الانتفاضة ومن ثم الشعب الفلسطيني والعربي برمته ؟! وما قدرتها على الاستمرار في ضوء ذلك كله وقد أخذت الأصوات تعلو هنا وهناك بإنهاء عسكرة الانتفاضة ؟! وما حقيقة هذا المصطلح؟!

**وهذا كله ينقلنا إلى الحديث عن الآفاق المستقبلية:**

**آفـاق الانتفاضة :**

ليس هناك عاقل يشك في أن انتفاضة الأقصى التي دخلت عامها الخامس في (٢٠٠٤/٩/٢٨م) قد لاقت عمليات إضعاف كثيرة من الداخل والخارج نتيجة ضغوط شتى ومزاعم عديدة ومتنوعة .... فجرت مساومات حثيثة لاسقاط مفهوم المجابهة العسكرية واللجوء إلى المجابهة السياسية ... لهذا بدأ عدد من قادة السلطة الفلسطينية يدعون بصراحة إلى إنهاء عسكرة الانتفاضة بحجة انجاح العمل السياسي.

ونعتقد بأن قيادات الانتفاضة بكل تياراتها قد تجاوزت ذلك كله حتى الآن بحنكة عالية وقدرة كبيرة على المناورة ولم تقع في أي شرخ داخلي .... وأظهرت أن أي عمل مقاوم ينبغي أن يظل إنجازاً وطنياً وقومياً، شعبياً وعربياً وانسانياً ... ولا سيما أن مقاومتها للاحتلال الاستيطاني الصهيوني دخل في صميم معادلة الوجود والحياة فضلاً عن مفاهيم العقيدة الدينية التي كفلت حق الدفاع عن الذات.....

---

*[1] انظر حق العودة بين القرار ١٩٤ ووثيقة جنيف ٣٣ في ما قاله محمود عباس في بيانه، وما قاله المؤتمرون في شرم الشيخ .... ثم استحضر التصريحات الكثيرة له حول انهاء عسكرة الانتفاضة ثم نزع سلاح المقاومة وفق ما بيناه للمرحلة الراهنة.*

لهذا فإن تاريخ المجابهة منذ الوعد المشؤوم لبلفور في (١٩١٧/١١/٢م) وثورة البراق في (١٩٢٩/٨/٢٣) وحتى انطلاق انتفاضة الأقصى (٢٠٠٠/٩/٢٨م) قد أكد استحالة عيش الضحية مع القاتل، وعزز عمليات الصمود والصبر والإرادة لاستنهاض القدرات والانتفاض على الجلاد الغازي الغاصب للأرض والحياة القائم على التعصب العنصري التلمودي الاستعماري الاستيطاني الوحشي[١].

ونرى أن انتفاضة الشعب الفلسطيني قد أصبحت طقساً تقليدياً على مر التاريخ ولهذا قد تخبو يوماً أو تتوقف ولكنها تغدو ناراً تحت الرماد تتأجج إلى أن يحين زمانها فتتوقد من جديد على أيدي المناضلين الشرفاء لهزيمة الشر الموجود في العالم والمتجسد بالكيان الصهيوني ... ولهم من سجلهم التاريخي المثل الأكبر منذ اليبوسيين – سكان القدس – وحتى اليوم ومنه :[٢].

١- لقي الإسكندر المقدوني الأكبر مقاومة مسلحة حين غزا منطقة غزة ثم عكا.
٢- اندحر الصليبيون على أسوار عكا بعد أن نزعت شوكتهم في معركة حطين بقيادة صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٨٣/هـ /١١٨٧م).
٣- انهزمت على أرض فلسطين / أرض الرباط والجهاد/ جيوش هولاكو الجرارة.
٤- انهزمت على أسوار عكا سنة (١٧٩٩م) مدافع نابليون ومكائده.

إنها سلسلة تاريخية طويلة من مقاومة الغزاة والطامعين التي انتهت بالاحتلال الأوربي للوطن العربي وديار الإسلام فكانت فلسطين والأردن ومصر والسعودية وغيرها من نصيب الانتداب البريطاني وذلك نتيجة اتفاق (سايكس بيكو) الذي تبودلت وثائقه في (٩-١٩١٦/٥/١٦م) بين بريطانيا وفرنسا وفيه أثر كبير للصهيونية[٣]

---

[1] *انظر الموسوعة الفلسطينية ١/٤١٥-٤١٨ و ٦١٤.*

[2] *انظر الموسوعة الفلسطينية ١/١٥٠-١٩٦ و ٢/٢٤٨-٢٥٠ و ٣/٢٩٠-٣٠٥ و ٣٦٨ و ٣٨٩ و ٣٩٨ و ٤/٦٠٩ و ٦١١ و ٦٢٥ واليهود عقائد وتاريخ إجرامي ٥٠٦-٥١٢ والصهيونية غير اليهودية ١٠٨.*

[3] *انظر الموسوعة الفلسطينية ٢/٥٣٤ والصهيونية غير اليهودية ١٦٩-١٧١.*

ثم حلت أوربا مشكلتها بوجود اليهود على حساب العرب الفلسطينيين وظهرت مساندتها لليهود بأنماط عديدة ... ومن ثم ظهرت المقاومة بأشكال شتى ... لأن مقاومة الاحتلال والغزو والاستلاب مشروع في السنن الكونية وفي الدساتير والتشريعات الدولية وقوانينها ... فإذا كان الوطن العربي يمثل قلب العالم فضلاً عما تختزنه أرضه من خيرات طبيعية وبشرية، فإن فلسطين تعد واسطة العقد لهذا القلب ... هذه الواسطة التي انفرد بها الوحش الصهيوني ليفتك بها بممارسات شاذة وهمجية، على حين طفق عدد من العرب والمسلمين يعمدون إلى التطبيع معه أو مهادنة رغباته.

من هنا يصبح التساؤل عن آفاق الانتفاضة وتجلياتها ضرورة حتمية لاستمرارها حتى تحقيق الأهداف المنشودة ويمكن أن تتجلى تلك الآفاق بما يأتي:

١- التمسك الثابت بالوجود والأرض باعتبارهما حقاً شرعياً إلهياً ودينياً .... ورفض الاعتراف بأي قانون دولي يتعارض مع الحق الإلهي في الوجود أو ينال من قدسية الرجوع إلى أرض الأجداد في سياق وطن حر وكريم لا يرضخ للابتزاز والاستسلام.

فإذا كانت نصوص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان – المادة الثالثة – قد كفلت لكل فرد حق الحرية والأمان الشخصي في إطار حق الحياة، فتطابقت مع الحق الإلهي فإن من حق الشعب الفلسطيني والأمة العربية والإسلامية الدفاع عن وجودها، ومقاومة أي شكل من أشكال الاعتداء والاحتلال ومقاومة كل أنماط التطبيع الثقافي والاقتصادي[1].

فالقوانين الدولية التي تجسدت خلال تاريخ البشرية تفرض ضمان حياة الشعوب في العيش الحر الكريم، وإقامة التوازن الحيوي المعبر عن العدل والحق الإلهي في العيش لئلا تطغى دولة على أخرى بما تمتلكه من قوة فائضة ... وعلى الأمم المتحدة والهيئات الاقليمية ألا تصبح أدوات تسخر بأيدي الدول القوية للسيطرة على الدول الصغيرة والشعوب المستضعفة وهي التي نصت قوانينها على حق تقرير المصير ومشروعية النضال الوطني للشعوب المحتلة

---

[1] *انظر الموسوعة الفلسطينية ٢/٢٥٠-٢٦٢.*

كما في قرارات الجمعية العامة كالقرار رقم (٢٦٢٥) والقرار (٣٣١٤) و(٣٢٣٦)[1].

٢- التربية الوطنية القومية وربطها بالعمق الإسلامي والإنساني وتجسيد انتفاضة الأقصى بها ، أي محاولة تطبيق مفهوم المثل العربي القائل: خيامنا منفصلة وقلوبنا متحدة ... وتبدأ عملية التوحيد من الداخل بالالتفاف حول المقاومة وتطوير آلياتها وأدواتها وأنماطها فكل ما في الوطن يبرز عملية التجميع لا التفريق ... وبهذا ينزع الإسفين الذي دقه الصهاينة وأمريكا بين المسلمين والمسيحيين من عرب فلسطين ... ومن ثم تتعمق الصلة بالعرب والمسلمين خارجها، وقد أدركت – منذ وقت مبكر– منظمة المؤتمر الإسلامي هذا الاتجاه منذ نشأتها في (٢٢-١٩٦٩/٩/٢٥م) نتيجة إحراق المسجد الأقصى من قبل غلاة الإجرام الصهيوني في (١٩٦٩/٨/٢١م).

فقد اجتمعت في الرباط بدولة المغرب (٢٥) دولة عربية وإسلامية في أول دورة لها للتشاور والتعاون والتنسيق والتوحد وتلاحم المواقف لصيانة المقدسات وحماية القيم الروحية والخلقية من السقوط ...

ثم أرست الدورة الثالثة في (٢٥-١٩٨١/١/٢٨م) في مكة المكرمة بالسعودية أول استراتيجية كاملة للعمل الاسلامي والحفاظ على مقدسات القدس وعدم تمزيقها وجاءت الدورة الرابعة في (١٦-١٩٨٤/١/١٩م) لتدعم القضية الفلسطينية باعتبارها جوهر الصراع العربي الصهيوني وتنفيذ قرارات لجنة القدس ... ثم أكدت الدورة الخامسة في الكويت (٢٦-٢٩/ك١٩٨٧/١م) دعم القرارات الشرعية الدولية وقضية القدس والسلام العادل والشامل وعقدت تحت عنوان (دورة التضامن الأسيوي) ...

أما الدورة التاسعة (١٢-٢٠٠٠/١٠/١٣م) فقد عقدت تحت شعار (انتفاضة الأقصى الشريف) فأدانت جرائم الصهيونية إدانة شاملة واسعة ...[2].

ثم إن التربية الوطنية القومية الإسلامية الإنسانية تعني الثقة بكل موقف للآخر في إطار الانتماء وعدم الاتهام والتخوين، فالوحدة الداخلية وتعميق صلتها بالوحدة العربية والإسلامية ثم أحرار العالم الشرفاء أساس آفاق العمل المستقبلي للانتفاضة ... فالحاجة إلى التوحد ودعم المقاومة أينما وجدت –

---

[1] *انظر الموسوعة الفلسطينية* ٥٥٣/١-٥٥٥.
[2] *انظر السابق* ٣٣٣/٤-٣٣٦.

وبكل الأشكال والوسائل – واجب ديني وإنساني يستند إلى الحق الإلهي والتشريعات والقوانين الدولية في حق الحياة والوجود ... وهذا يتطلب الاستمرار بالحوار الحر والديمقراطي بين أبناء الوطن لإيجاد علاقة عضوية صحيحة بينهم، ثم بينهم وبين البعد العربي.

٣- الوعي والخبرة والحنكة في التعامل مع الشرعية الدولية وقوانينها سواء أكان ذلك في قرارات الأمم المتحدة ومنظماتها أم في قرارات المنظمات الاقليمية وعلى المستويات كلها دولاً وجمعيات وأحزاباً ... فما زلنا نعاني حتى اليوم من تفسير كلمة واحدة في القرار (٢٤٢). ثم إن القوانين الدولية كاتفاقية (جنيف) لعام (١٩٤٩م) –مثلاً– تلزم مادتها رقم (١٣٦) باتخاذ عقوبات جزائية على كل من يأمر أو يشارك في التصفيات الجسدية أو الإعدام خارج القانون ... ويلزم كل طرف متعاقد بملاحقة المتهمين وتقديمهم للمحاكم مهما كانت جنسياتهم ... فإذا ما تحلى الشعب الفلسطيني والعربي بالوعي والخبرة والحنكة حصن نفسه من القوانين التي يتلاعب فيها الصهاينة والامبراليون كما يشاؤون.

لذا من حق الشعب الفلسطيني والأمة العربية والإسلامية أن تقاضي الدول المعتدية والأفراد المتوحشين وفق القوانين الدولية، فمثلاً جاء في بروتوكول جنيف المؤرخ في (مايو/أيار/٩٨٩م) وفي المادة العاشرة مقاضاة أولئك وحق الدفاع عن الوجود والحياة من قبل المعتدى عليه[1].

ولما كانت الأمم المتحدة مرجعية دولية لحل النزاعات الدولية وفق قراري الجمعية العامة (٢٦٢٥) و (٣٣١٤) كان على العرب والمسلمين استغلال ذلك أحسن استغلال بكل حنكة ووعي ودراية، ولاسيما أن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي أُنشئت بقرار من هيئة الأمم المتحدة ثم غدت الدولة الوحيدة الخارجة عن قراراتها وقوانينها بما فيها قرار التقسيم في (٢٩/١١/١٩٤٧م) ووعد بلفور المشؤوم في (٢/١١/١٩١٧م)

٤- دراسة آليات التعامل مع الغرب وأمريكا ودول العالم وفهم اللغة والأساليب التي تمارسها كل دولة إزاء الصراع العربي الصهيوني ... ويحتاج هذا إلى قيام القيادات العربية والمثقفين والمناضلين بحملة مدروسة موثقة بالأدلة التاريخية والقانونية والعلمية والموضوعية لكشف المغالطات التاريخية التي وقعت فيها هذه الدول ... ولا سيما حين ربطت الولايات المتحدة الأمريكية

---

[1] *السابق* ٢/٢٥٠-٢٦١.

وبعض الدول الأخرى إثر أحداث (١١/٩/٢٠٠١م) بين العرب والإسلام من جهة وبين الإرهاب من جهة أخرى ... وقد أطّرت إدارة بوش الابن /هذه الادارة اليمينية المتصهينة كثيراً من دول العالم في هذا الاتجاه مستغلة أوضاعها الداخلية كما هي حرب الشيشان في روسيا.

ولهذا فإن هناك عدواً واحداً – كما تزعم – قد ظهر بعد سقوط ما عرف بالاتحاد السوفييتي. وهو يتجلى بالإرهاب الدولي الذي تلصقه تلك الإدارة بالعرب والمسلمين ــ خاصة ــ زاعمة أنهم ينالون من العالم الحر والديمقراطية والتقدم ...

وحين استمالت إدارة بوش بعض الحكومات العربية، منصاعة لموقفها درءاً لدفع تهمة الارهاب عنها فإن أرئيل شارون قد نجح في تضليل كثير من دول العالم حين ربط المقاومة الفلسطينية بمفاهيم الارهاب الدولي الذي يقف العالم كله ضده ... فادعى أن الفلسطينيين مسؤولون عن الارهاب الذي يوجهونه نحو الدولة الديمقراطية الوحيدة في المنطقة إذ قال لبوش الابن في زيارة لواشنطن : ((إن ما حصل للولايات المتحدة تعيشه إسرائيل يومياً ... إنها معركة واحدة ضد الارهاب تجمع بين إسرائيل وأمريكا والعالم الحر )) ... وكان إيهود باراك قد قال من قبل لإذاعة (B.B.C) (( الدين الإسلامي دين ارهاب))[١].

ولهذا كله يستوجب على العرب والمسلمين والشرفاء في العالم أفراداً ودولاً وأحزاباً مواصلة دعم المقاومة الفلسطينية والعمل الفوري على إيقاف التطبيع الذي يجري باتجاهات متنوعة مع الصهاينة وتفعيل المقاطعة الشاملة لإسرائيل وأمريكا وكل دولة تعادي القضايا العربية.

٥– استثمار الانجازات العديدة التي قدمتها انتفاضة الأقصى لكشف ما تتبناه دولة الكيان الصهيوني من مبادئ وسياسات إبادة وحشية جماعية منظمة ... مثل:

أ – تعرية مقولة ربط المقاومة بالإرهاب ولا سيما الارهاب الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة ومن ثم كشف زيف ما تقوم به إدارة بوش المتغطرسة والمتصهينة، التي تريد السيطرة على العالم تحت اسم (النظام العالمي الجديد – العولمة)[٢] ، ومحاربة الديكتاتورية والتخلف في المنطقة العربية والإسلامية وإشاعة الحرية والديمقراطية فيها...

---

(1) *انظر دوائر الخراب : الاستشراق والعنصرية الصهيونية ٢٦٤.*

(2) *انظر الموسوعة الفلسطينية ١/١٨٣-١٩٢ والمثقف العربي وآفاق الواقع ٥٢ وما بعدها، والثقافة القومية وتداعيات العولمة ٧٨-٨٢.*

ب – الرد على خرافة المقولة التاريخية حول الأرض الفلسطينية الخالية من الشعب وأرض الميعاد، فالشعب الفلسطيني ثابت الجذور تاريخياً وواقعياً في فلسطين، على حين أن الصهاينة مجموعات غازية طارئة عليها، فعلى الرغم من تدفق الهجرات اليهودية إلى فلسطين حتى عام (١٩٤٨م) لم يزد عدد اليهود الصهاينة على (٦٥٠٠٠) ألف يهودي على حين كان تعداد الفلسطينيين (١٤١٥٠٠٠) ثم جاءت نكسة حزيران (١٩٦٧/٦/٥م) فطردت إسرائيل (٤٦٥) ألف فلسطيني من الضفة والقطاع ... لكنها لم تستطع أن تمنع ازدياد عدد السكان الفلسطينيين الأصليين داخل الأرض المحتلة عام (١٩٤٨م) وإن فرضت عليهم الجنسية الإسرائيلية أو تمنع ازدياد سكان الضفة والقطاع إذ أصبح عددهم عام (١٩٦٧م) نحو (١٤٠٠٠٠٠) ثم بلغ عام (٢٠٠٢م) (٣,٥) مليون، وفي الجزء الشرقي من القدس وحده (٢٢٠) ألف فلسطيني فضلاً عن أن إسرائيل أبعدت (١,٥) مليون فلسطيني بين عام (١٩٦٧-٢٠٠٤م) منهم (٢٦٥) ألف شاب[1]. وبهذا كله كانت المرأة الفلسطينية تمثل القنبلة الديمغرافية السكانية في وجه الصهاينة لكشف زيف الأرض الخالية فدولة الكيان الصهيوني سعت جاهدة إلى تغيير الخارطة السكانية لفلسطين بل لبنان أيضاً وقد خطط لذلك كله، إذ كتب ديفيد بن غوريون في (١٩٤٨/٥/٢١م) في يومياته عن لبنان: ((إن تفوق المسلمين في هذا البلد مصطنع ويمكن أن يقلب بسهولة على أن تقام في هذا البلد دولة مسيحية سيكون نهر الليطاني حدها الجنوبي))[2].

إن خطط الصهاينة واضحة في احتلال جنوب لبنان وتغيير الخارطة الديمغرافية على حين كانوا واثقين من تغييرها بفلسطين المحتلة مستندين إلى الهجرات المتتالية لليهود إلى فلسطين وممارسة الإبادة الجماعية الوحشية للفلسطينيين، وهو ما يمارسه شارون يومياً ... ضد سكان الضفة

---

[1] *أنظر الموسوعة الفلسطينية* ١/١٨١-١٨٣ و ٢٣٩-٢٤١ و ٥٨٣-٥٨٧ و ٥٩١-٥٩٩ و ٤/٥١٦-٥٢٣ و*أبعاد القضية الفلسطينية* ١٧-١٩ و ٣٥ و*أزمة فلسطين* ١٨٢-١٨٩و ٢٠٨-٢٠٩ و*الإيديولوجية الصهيونية* ٢/٧٠-٧١ و*الصهيونية غير اليهودية* ٢٧٠ و*الاستيطان الصهيوني* ٩٠-٩٢ و*أسطورة هرمجدون* ١٧٠و*اليهود عقائد وتاريخ إجرامي* ٢٩١ وما بعدها و٤٨٩-٤٩٢.

[2] *أزمة فلسطين* ١٢٩.

الذين بلغوا (٢٣٠٠٠٠٠) عام (٢٠٠٢م) كما بلغ عدد سكان غزة ما يزيد على (١٢٠٠٠٠٠) فلسطيني فيكون المجموع كما قلنا (٣,٥) مليون فإذا كان الاستيطان مخططاً له منذ عهد بعيد بمشاريع كثيرة ومدروسة[١] فإن الواقع الفلسطيني قد نال منه.

ج – الرد على خرافة (شعب الله المختار) على اعتبار أن اليهود المتصهينين إنما يجسدون قمة النزعة العنصرية نحو البشرية ... وعلى الرغم من أن الجمعية العامة ألغت قرارها (٣٣٧٩) تاريخ ١٩٧٥/١١/١٠ الذي عد الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية، فإن عنصرية بني صهيون متأصلة، وهي تعد خطراً على البشرية كلها، لأنها تمثل قمة التمييز العنصري فضلاً عن كونها عقيدة استعمارية توسعية. ما جعل الدارسين يربطون بينها وبين النازية الهتلرية خاصة[٢]. فخطرها لن ينحصر في المنطقة العربية إذا حققت أطماعها فيها بل سينال العالم كله.

د– استغلال الجرائم الصهيونية البشعة في ارتكاب الإبادة الجماعية الوحشية ومصادرة الأراضي وجرف المزروعات بحجج أمنية واهية – كما هو الحال في إقامة الجدار العنصري الذي سبقت الإشارة إليه وإلى جرائم الصهيونية – لفضح كل ما تقوم به إسرائيل من ممارسات همجية منظمة باعتبارها دولة خارجة عن القانون والشرعية الدولية.

هـ – فضح كذبة بناء هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى ولا سيما ما يتعلق بخرافة حائط المبكى (طوله ثلاثون متراً) وهو جزء لا يتجزأ من الجدار الغربي للحرم القدسي الشريف (طوله مئة متر وعلوه عشرون) وهو المعروف بحائط البراق...[٣].

وقد أكدت حفريات اليهود أنفسهم بطلان مزاعمهم حتى صرح العالم الإسرائيلي في الآثار (إسرائيل فلنكشتاين) في (آب) لعام (٢٠٠٤م) بأنه لا صلة لليهود بالجدار وأن الهيكل خرافة توراتية وكان عالم الآثار اليهودي

---

(1) *انظر الموسوعة الفلسطينية ٢١٩/١–٢٣٥ والاستيطان الصهيوني ٨١–٩٨ والصهيونية غير اليهودية ٢٦٧–٢٧٢ وأسطورة هرمجدون ١١٦–١٢٣.*

(2) *انظر الموسوعة الفلسطينية ٢١٩/١–٢٣٥ والاستيطان الصهيوني ٨١–٩٨ والصهيونية غير اليهودية ٢٦٧–٢٧٢ وأسطورة هرمجدون ١١٦–١٢٣.*

(3) *انظر الموسوعة الفلسطينية ٢١٩/١–٢٢٢ و ١٣٦/٢ وأسطورة هرمجدون ١٢٨ وراجع حاشية (٢) ص ٩٠.*

(بنيامين مازار) قد كتب مثل ذلك في تقرير له أصدرته الجمعية الأثرية الإسرائيلية سنة (١٩٧١م)[١].

و – القيام بحملة واسعة ومدروسة لوضع حد لاستغلال مفهوم العداء للسامية وكشف المغالطات السياسية والدينية للربط بين المسيحية واليهودية[٢] وكشف عملية استغلال مفهوم الحرية والديمقراطية. فقد راج استعمال هذا المفهوم للسيطرة على الآخرين، على الرغم من أنه لا يمثّل إلا ديمقراطية الذئاب[٣].

٦– السعي الجاد لتأصيل الثقافة العربية والإسلامية في إطار الحداثة الإنسانية وكشف الأضاليل الكبرى حول التراث العربي والإسلامي ولا سيما ما يتعلق بالجهاد، أو المقاومة ... فالتراث ممتد فينا وجزء لا يتجزأ من دورة الحضارة الإنسانية في الماضي والحاضر والمستقبل ... وعلينا ألا نخضع تحت أي تصور معاد لعملية تغيير تمارس قسراً على ثقافتنا ومناهجنا وعاداتنا .... فتراثنا لم يكن يوماً منغلقاً على الآخر، ولم يمارس عليه عمليات القهر والتبعية والاستلاب كما يحدث لنا مع الغرب اليوم....

وهذا كله يدعونا إلى الإعداد الثقافي الكافي لأبناء الأمة وربطه بالحق الإلهي والطبيعي في الدفاع عن الوجود والحياة مهما طال الزمن ... إن المخطط الصهيوني الامبريالي الغربي والأمريكي ليس وليد اللحظة الراهنة في القضاء على كل ما هو عربي وإسلامي، إنه نتيجة جهود تاريخية وفكرية واجتماعية وسياسية وعسكرية طويلة ومستمرة ومركزة ... لأن العرب والمسلمين وحدهم من يملكون نظرية متكاملة الثقافة، ومتوازنة بين الرغبات المادية والروحية ... ولهذا كله فإن الحضارة الغربية برمتها– وإن أحرزت انتصارات شتى في مجالات متعددة، مادية غالباً– حضارة مادية جسدية تعلي من قيمة الإنسان الأرضي المتفوق، وهو ما تتبناه الصهيونية عينه، على حين تدهورت القيم الروحية والخلقية بشكل لا نظير له ... داخل الكيان الصهيوني بمثل تدهورها في المجتمع الغربي الذي يشجع المنحرفين فيه، كما فيه ولاية كاليفورنيا –مثلاً– التي كثر فيها الشواذ ...

---

[1] *انظر مجلة فلسطين المسلمة – مقال (محمد جمال القدسي) – عدد أيلول ٢٠٠٤م.*

[2] *انظر الموسوعة الفلسطينية ٥٣١/٢ والإيديولوجية الصهيونية١٣٢/٢–١٣٣ وأسطورة هرمجدون ٣٧–٦٦ والصهيونية غير اليهودية ٦٠–٦٤ و ١١٦ و ١٤٦ و ١٦٩ و ٢٤٤.*

[3] *انظر المشروع الصهيوني ٨٠.*

٧- إيلاء الإعلام والتقنيات المتقدمة والفضائيات العناية القصوى وتسخيرها لكشف أضاليل اليهود والإمبريالية، وما تمارسه على شعبنا داخل الأرض المحتلة ... وألا يصبح مشهد الدماء مشهداً مألوفاً تتبلد عنده المشاعر والأذهان ....

إن محاولة كسب الرأي العام الدولي لا يتم إلا بالقيام بعمل إعلامي فكري منظم وفاعل في المحافل كلها مستفيداً من كل نظم المعلومات المستحدثة ... فالعرب أصحاب حق، على حين أن المحتل الصهيوني غاصب ومعتد ... في الوقت الذي ينبغي أن تمارس فيه أجهزة الإعلام والصحافة والمنابر الحرة في المؤتمرات والندوات كشف المشاريع الاستسلامية التي تؤدي إلى ضياع الأوطان والثروات والكرامة والحرية ...

٨- اتخاذ القدوة الحسنة في القيادة: إن القيادة الحكيمة والواعية والصادقة والمناضلة المتشبثة بالثوابت الوطنية والقومية دون احتكار لسلطات القيادة في المقاومة وغيرها تغدو قيادة شعبية ودولية ولا سيما إذا كانت ممثلة لمؤسسات الحرية والديمقراطية ... وفي إطار دورات تشريعية تكفل تنمية الكوادر القيادية والمنافسة المستمرة فيما بينها لتظل القدوة الحسنة مستمرة ....

إن مثل هذه القيادة التي تنفتح بتوازن فاعل على الحوار الداخلي والخارجي، وعلى قيادات النضال التحرري تعد القدوة الحسنة للمقاومة ... هذا يعني أن الانشغال بالرموز التاريخية للقادة قد ذهب إلى غير رجعة، وذهب معه التنازع على سلطتها وصلاحياتها وقيادتها لعملية البناء والتحرير والمقاومة ... فالوطن والأمة ينبغي أن يعزز مفهوم القدوة الحسنة، في الوقت الذي يدفعان أبناءهما إلى الاحتذاء بها وتمثّلها....

إن سد الخلل في الوحدة الوطنية الداخلية باتخاذ القدوة الحسنة يقوي النزوع الإنساني الحر لدى المقاومين والمواطنين على السواء ويعمق صلتهم بمحيطهم العربي والإسلامي والدولي ... ويمنع من نفوسهم دوافع انقضاض أحدهم على الآخر.

ولهذا لا يضير هذه القدوة أن تمارس بصدق مفهوم الديمقراطية والحرية في الانتخابات المباشرة من قبل الشعب، لأن تاريخها النضالي وسلوكها القويم سيجعلها أبداً القدوة المرجوة على أن ينظم الدستور سنوات عملها في إطار المنافسة الحرة النزيهة على القدوة الحسنة لخير الوطن والمقاومة.

ومن ثم تنتهي – وإلى الأبد– مزاعم فقد العرب للديمقراطية ... وهذا هو الدافع للغرب عامة وأمريكا خاصة للقيام بمهمة إرساء الديمقراطية للشعوب المغلوبة على أمرها، كما هو حاصل في العراق، وكما حصل في أفغانستان ودول أخرى كثيرة من قبل ... إذ تدخلت أمريكا مباشرة في شؤونها وقلبت حكوماتها ... وأخذت تمارس مفاهيم الحرية و الديمقراطية التي تعزز مصالحها وتضمن ولاء الحكومات التي تنتجها ....

٩– اتخاذ الحركات المناضلة للاحتلال، وكذلك الأحزاب والشعوب في كل مكان وزمان رمزاً وقدوة للسير على طريقها في التحرر من المحتل الغاصب سواء أكانت حركات سلمية كما فعل غاندي، أم حركات مسلحة وهي كثيرة وآخرها ما قامت به المقاومة الوطنية في لبنان بقيادة (حزب الله) ...

وهذا يفرض على الشعب الفلسطيني خاصة والعربي عامة التحلي بالإرادة والصبر والعزيمة التي لا تلين أمام جبروت القهر و الظلم والفتك الوحشي للآلة العسكرية القاتلة ...

وأخيراً نقول: إن ممارسة النضال التحرري لا تكون بنت ليلة وضحاها، فدرب الكفاح الوطني والإنساني درب طويل وشائك ومليء بالألغام والتضحيات ... وما شعب فلسطين ببعيد عن هذا السبيل ... فهو الذي توارث النضال جيلاً إثر جيل، فإذا صارت الانتفاضة عنده طقساً عقيدياً، فلأنه مازال يدافع عن وجوده .... وكان المسيري قد قال : ((وبما أن الهجمة الصهيونية على الفلسطينيين كانت بهذه الشراسة فالمقاومة العربية أخذت أشكالاً واضحة أيضاً ... فالفلسطينيون لم يكن أمامهم سوى رد الهجوم الذي شن عليهم دفاعاً عن أراضيهم وحقوقهم القومية ضد المستعمرين الصهاينة. ومثل هذه المقاومة الحقيقية والعميقة لها – بلا شك – أبعادها الأخلاقية المطلقة، حيث إنها في النهاية تأكيد لكرامة الإنسان ولإرادته في مواجهة العنف والقهر المادي، إلا أنها – مع هذا – ليست غيبية. فهي تضرب بجذورها في الواقع الاجتماعي والتاريخي، وتعبر عن نفسها من خلال أشكال سياسية وعسكرية مألوفة[1].

وستظل أرض الجهاد والرباط خزاناً لانتفاضات جديدة فيما لوخمد أوار انتفاضة الشعب الفلسطيني لأمر ما، ولا سيما بعد موت الرئيس ياسر عرفات، ومجيء محمود عباس ... الذي أصَرَّ على إنهاء مفهوم عسكرة الانتفاضة

---

[1] *الإيديولوجية الصهيونية ١٣٢/٢.*

ونزع سلاح المقاومة وإيلاء التسوية السلمية مكانتها الدولية، على حين يتلاعب الصهاينة بكل عملية للسلام. ولهذا نرى أن أي مقاومة للشعب الفلسطيني إنما هي صرخة مدوية للدفاع عن الكرامة والوجود والمقدسات ورفض ملموس للقهر وحياة القيد والذل والتجويع والتهجير والتشريد، والقتل الوحشي ....

وستظل انتفاضة الأقصى وكل مقاومة أتت بعدها معجزة الشعب الفلسطيني البطل الصامد باعتبارها غدت طقساً يتعبده إلى أن يحقق انتصاره في الحرية والحياة تحت الشمس ... مصداقاً لقوله تعالى : « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله .... ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز » (الحج / ٢٢/٤٠).

وهذا يعني أن ثقافة المقاومة إنما هي ثقافة وجود ودفاع عن الكرامة الإنسانية، والسيادة الوطنية والقومية، وهي تتخذ أساليب شتى، لتصل إلى تحقيق الأمن والطمأنينة للبشرية.

ومن هنا يتساءل أحدنا: أين تقع ثقافة السلام من ثقافة المقاومة؟ وما الفرق بينها وبين ظواهر الاستسلام؟ هذا ما يتناوله الفصل الرابع والأخير.

⊥⊥⊥

# الفصل الرابع:

## ثقافة المقاومة بين السلام والاستسلام

١ ـ كلمة لابد منها.

٢ ـ تاريخ عملية السلام.

٣ ـ مفهوم السلام والاستسلام بين ثقافة المقاومة والعولمة.

٤ ـ سقوط الأسطورة واحتضار الخرافة.

# ثقافة المقاومة
# بين السلام والاستسلام

**١ ـ كلمة لابد منها:**

ليس للثقافة تعريف واحد عند الدارسين قديماً وحديثاً، ولكن أي تعريف لها كان يشتمل على دلالة الحذق والمهارة والفهم. ولعل أشهر تعريف سار بين الناس تعريف (تايلور) ومفاده أن الثقافة مجموع المعارف والعلوم والآداب والفنون والخبرات والتكيفات والمهارات والعادات والأخلاق والقوانين التي يكتسبها المرء..[(١)]

وباختصار نرى أنها كل مدخلات الذهن البشري وتحويلها إلى سلوك؛على اعتبار أنها نمط مستمر من الأنساق في الذاكرة البشرية.

وللثقافة أنواع وتجليات باعتبارها أنساقاً من القيمة والتقنيات عند الشعوب[(٢)]، فمن أنواعها الثقافة الوطنية والقومية والإنسانية؛ والفنية والأدبية والعلمية، والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والثقافة التراثية والحديثة، والرجعية والتقدمية، و... وثقافة الاحتراف والمهنة و...

---

[(1)] *انظر المعجم الأدبي ــ جبور عبد النور ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ ١٩٨٤ ــ ط ٢ ــ ص ٨١.*

[(2)] *انظر قاموس مصطلحات الأنثولوجيا والفولكلور ــ إيكه هولتكرانس ــ ترجمة د. محمد الجوهري ود. حسن الشامي ــ دار المعارف ــ ط ٢ ــ ص ١٤٩ ــ ١٥٣).*

وفي هذا المقام وضعنا ثقافة السلام في مفهوم الوعي التاريخي الفردي والجماعي لإدراك التمثل الثقافي. لذا لم ننسَ لحظة واحدة الدعوات المتكررة للمؤتمرات الثقافية العربية التي وصلت إلى نتائج طيبة في البحث عن سياسة عربية ثقافية موحدة تجمع شتات أبناء الأمة من أجل مواجهة التحديات والأخطار التي تحيق بثقافة الأمة وهويتها مثل (مؤتمر عمان ١٩٦٧م) و(طرابلس الغرب ١٩٧٩م) و(بغداد ١٩٨١) و(الجزائر ١٩٨٣) و(تونس ١٩٨٥م).

ولعل مقومات التغيير التي كونت الخلفيات التاريخية السياسية في كل قطر عربي كانت وراء عدم التجانس في معالجة عدد من القضايا الفكرية والثقافية والسياسية، و... وفي مقدمتها ما يتعلق بمفهومي السلام والاستسلام باعتبارهما أصبحا متداولين في عملية السلام المتعثرة بين العرب والكيان الصهيوني منذ وقوع النكبة سنة (١٩٤٨م). ولكي يتضح لنا ذلك كله لابد من كلمة تؤرخ لعملية السلام التي تعثرت في المنطقة لأن أوراق هذه العملية قد اختلطت في الأذهان عند العرب وعند رعاتها بظاهرة الاستسلام إما عمداً وفق ما أثبتته الأحداث وإما جهلاً بحقيقتها.

**٢ ـ تاريخ عملية السلام:**

يزعم عدد من الحكام العرب والمثقفين والسياسيين أن الولايات المتحدة الأمريكية ما تزال راعية لعملية السلام الحقيقي وفق الخطة التي تضعها الإدارات الأمريكية، ولا سيما إدارة بوش الابن التي أعلنت عن إقامة التسوية السياسية في إطار الدولتين، علماً بأنها أكثر دول العالم تأثيراً في المنطقة؛ فلا عجب أن يمتثلوا لكل ما تصدره، فمنهم من يرى فيها أنها ما زالت ترغب في ذلك وفق قانون العرض والطلب، ما يجعلهم يترقبون منها كل جديد أو تغيير؛ ومنهم قسم آخر يرى أنها لا تريد إلا أن تشيع في المنطقة روح الاستسلام والذل والخنوع ودوام التخلف والتجزئة فهي تجيد سياسة التهدئة والخداع، وتعمل على صياغة الأفكار المبتذلة، والتأكيدات القابلة للتفسيرات العديدة والمصبوغة بصبغة المجاملة حتى اختلط مفهوم السلام بالاستسلام؛ بدليل تراجعها عن خارطة الطريق التي دعت إليها ودعمتها؛ وهاهو ذا موقفها يتطابق مع موقف الكيان الصهيوني في إبقاء المستوطنات الصهيونية في الضفة الغربية، التي يقطعها /٥٠٠/ حاجز، فضلاً عن الثكنات العسكرية. ثم إن الإدارات الأمريكية المتعاقبة تدير شؤونها السياسية والثقافية والاقتصادية و..

في إطار مصالحها مع غيرها. وهي تلجأ إلى المهادنة والمراوغة تبعاً لما يفرضه الموقف المستجد مع هذه الدولة أو تلك وفي كل موقف كانت تسعى إلى إضعاف إرادة أي دولة، وتجعلها تستجيب للمنطق الأمريكي المتطابق مع المنطق الصهيوني. ولعل هذا المنطق هو الذي جعل الإدارة الأمريكية تسعى إلى سياسة الاحتواء لبعض الدول العربية ولاسيما مصر، فتقدم لها المساعدات المالية. وكان جمال عبد الناصر قد رفض تلك المساعدات وفق تلك السياسة، ما أدى إلى حدوث العدوان الثلاثي المشهور ضد مصر عام (١٩٥٦م).

ثم أعلنت الولايات المتحدة (نظرية الفراغ) التي أنتجت مبدأ (آيزنهاور) عام (١٩٥٧م) وهي تركز على تقديم المساعدات لدول المنطقة، وتبيح لنفسها التدخل العسكري المباشر في المنطقة لمواجهة الخطر الشيوعي، كما زعمت.

وأيّاً ما يكن رأينا في هذا الشأن فعلينا أن نسترجع تاريخ عملية السلام وما قدمته الإدارات الأمريكية لها، فما من أحد ينسى قرار مجلس الأمن (٢٤٢) تاريخ (٢٢/١١/١٩٦٧م) الذي ينص على الآتي: " إقرار مبادئ سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط. إن مجلس الأمن، إذ يعرب عن قلقه المتواصل بشأن الوضع الخطر في الشرق الوسط، وإذ يؤكد عدم القبول بالاستيلاء على أراض بواسطة الحرب، والحاجة إلى العمل من أجل سلام دائم وعادل تستطيع كل دولة في المنطقة أن تعيش فيه بأمن، وإذ يؤكد أيضاً أن جميع الدول الأعضاء بقبولها ميثاق الأمم المتحدة قد التزمت بالعمل وفقاً للمادة ٢ من الميثاق.

١ ــ يؤكد أن تحقيق مبادئ الميثاق يتطلب إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط ويستوجب تطبيق كلا المبدأين التاليين:

أ ــ سحب القوات المسلحة الإسرائيلية من أراض احتلتها[١] في النزاع الأخير.

ب ــ إنهاء جميع ادعاءات أو حالات الحرب واحترام واعتراف بسيادة ووحدة أراضي كل دولة في المنطقة، واستقلالها السياسي وحقها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها وحرة من التهديد أو أعمال القوة.

٢ ــ يؤكد أيضاً الحاجة إلى:

أ ــ ضمان حرية الملاحة في الممرات المائية الدولية في المنطقة.

---

[1] النص الفرنسي يقول من الأراضي المحتلة des Territores Occpués.

ب ــ تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين.

ج ــ ضمان المناعة الإقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة عن طريق إجراءات بينها إقامة مناطق مجردة من السلاح.

٣ ــ يطلب من الأمين العام تعيين ممثل خاص للذهاب إلى الشرق الأوسط كي يقيم ويجري اتصالات مع الدول المعنية بغية إيجاد اتفاق، ومساعدة الجهود لتحقيق تسوية سلمية ومقبولة وفقاً لنصوص ولمبادئ هذا القرار.

٤ ــ يطلب من الأمين العام أن يرفع تقريراً إلى مجلس الأمن حول تقدم جهود الممثل الخاص في أقرب وقت ممكن.

تبنى المجلس هذا القرار، في جلسته رقم ١٣٨٢، بإجماع الأصوات".

ولا يختلف عنه القرار رقم (٣٣٨) لعام (١٩٧٣م) وفيه نقرأ ما يأتي : " يدعو مجلس الأمن جميع الأطراف في القتال الدائر، إلى وقف كافة أنواع إطلاق النيران والانتهاء الفوري لكل نشاط عسكري في مدة لا تتجاوز ١٢ ساعة بعد لحظة إقرار المجلس لهذا القرار وذلك في المواقع التي يحتلونها الآن.

ويدعو مجلس الأمن كل الأطراف المعنية إلى البدء فوراً، بعد وقف إطلاق النار. في تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ (١٩٦٧) بجميع أجزائه.

يقرر مجلس الأمن أن تبدأ المفاوضات فوراً، وفي وقت واحد مع وقف إطلاق النار، بين الأطراف المعنية تحت الإشراف الملائم، بهدف إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط". ولكن الصهاينة لم ينفذوا منهما شيئاً، بل سارعوا إلى تأسيس جمعية خاصة باسم ( من أجل السلام في الشرق الأوسط) عام (١٩٦٨م) بغية تنفيذ رؤيتهم التي تحقق مصالحهم. ثم راحت الأحزاب الصهيونية تقدم مشروعاتها التي تبتلع الأرض المحتلة عام (١٩٦٧م) وتزيد مساحتها، كما تؤكده وثيقة (حزب العمل) الصادرة عام (١٩٧٠م) وتشدّد على إقامة اتحاد بين (دولة الكيان الصهيوني وفلسطين ولبنان والأردن) على غرار اتحاد (البينلوكس) الذي ضمّ (هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ)، مركزة على أهمية تحقيق السلام للشرق الأوسط.

ثم جاءت حرب السادس من تشرين الأول لعام (١٩٧٣) لتنتشل النفس العربية من آثار هزيمة حزيران، ولتؤكد أن الولايات المتحدة بإداراتها المتعددة ــ منذ إدارة جيمي كارتر إلى إدارة ريغان وجورج بوش الأب ثم إدارة بيل

كلنتون وأخيراً جورج بوش الابن ــ قد حمَت الكيان الصهيوني وأنقذته من هزيمة محققة في حرب تشرين، ووقفت حارسة لهذا الكيان ضد انتفاضة الحجارة الأولى في (١٩٨٧م) والثانية (٢٠٠٠م) ودعمته في غزو لبنان غير مرة آخرها العدوان الهمجي عليه في (١٢/ ٧/ ٢٠٠٦م). وهي ما تزال تلعب على المصالح والامتيازات والاستحقاقات القادمة. لذلك وعَدت العرب بحل مشكلة الشعب الفلسطيني، وإقامة سلام عادل وشامل في المنطقة. ولمّا كانت غير صادقة في أي وعد قطعته على نفسها لأن هذه الوعود لا تمثل شيئاً في ميزان الحياد والنزاهة المبدئية الراسخة، ولا تقع في إطار الرغبة التلقائية للإنسان الحر على اعتبار أن أي عملية تسوية سياسية لا تطابق الأجندة الصهيونية غير مقبولة فإنها أغرت الرئيس المصري السابق أنور السادات بوعود شتى وشجعته على عقد اتفاقية (كامب ديفيد) سنة (١٩٧٩م) مع الكيان الصهيوني برعاية الرئيس الأمريكي الأسبق (جيمي كارتر). فكان لها ما أرادت ولا سيما حين كسر المقاطعة العربية لهذا الكيان بزيارته المشؤومة إلى القدس التي ما تزال أسرارها غامضة حتى الساعة، على الرغم من النصائح التي وجهت له بعدم إنفاذها.

فالإدارة الأمريكية لم تهدف بهذه الاتفاقية إلى القضاء على منجزات حرب تشرين فقط وإنما كانت تسعى من خلالها إلى تصفية القضية الفلسطينية، وقتل عملية السلام الحقيقي فيها، وإدامة احتلال الكيان الصهيوني للأراضي العربية... وهذا كله ما دفع المفكر المرحوم إدوارد سعيد ــ الأمريكي الجنسية ــ إلى التصدي للإدارة الأمريكية باعتبارها إدارة منافقة مخادعة منحازة إلى القتلة، ومعادية للحق العربي، وللمعذبين في الأرض... ثم كانت تسعى إلى تفتيت أي نمط من أنماط الوحدة الوطنية والقومية وكانت تحمي الكيان الصهيوني المتمرد على القرارات الدولية مثل قرار مجلس الأمن رقم (٤٤٦) تاريخ (٢٢ /٣/ ١٩٧٩م) الذي نص على المطالبة بوقف بناء المستعمرات الاستيطانية، وعلى (إسرائيل) "أن تمتنع من اتخاذ أي عمل قد يؤدي إلى تغيير الوضع القانوني والطابع الجغرافي، أو أي عمل قد يؤدي إلى التأثير الملموس في التركيبة السكانية للأراضي العربية المحتلة سنة (١٩٦٧م) بما فيها القدس، وأن تمتنع بشكل خاص عن نقل مجموعات من سكانها المدنيين إلى الأراضي العربية".

وحين كانت قرارات الهيئات الدولية تطالب باحترام حق الشعب العربي الفلسطيني كان الكيان الصهيوني يمعن في عنصريته وغطرسته وتحديه للمجتمع الدولي.

وإذا كان الشعب العربي قد تنبَّه لمخاطر اتفاقية كامب ديفيد فقاومها بسبل شتى؛ وأولـــه الشعب المصري الشقيق، فإنه استطاع التمييز بين مفاهيم السلام ومفاهيم الاستسلام، فرفض سياسة الاستسلام للأمر الواقع وللقوة الأمريكية كما رفض مفاهيم التطبيع التي تبنَّتها تلك الاتفاقية وكذلك تنبهت الشعوب الإسلامية للمخاطر الصهيونية، وفي طليعتها الشعب الإيراني، الذي حضن الثورة الإسلامية الإيرانية يوم (١١/٢/١٩٧٩م) بقيادة الإمام الخميني (رحمه الله)، ومن ثم طردت السفارة الصهيونية وأحلّت مكانها سفارة لفلسطين وتبنّت يوم الجمعة الأخيرة من رمضان يوماً عالمياً للقدس. ولم تكن فاعلية بعض الشعوب الإسلامية بأقل من فاعلية الشعب الإيراني في مواجهة الخطط الصهيونية ــ الأمريكية.

ولعلّ هذه التطورات دفعت بالإدارتين الأمريكية والصهيونية إلى تغيير سياستهما واعتمادها سياسة الحرب الوقائية بشن هجمات عدوانية استباقية، كما نراه حين اندفع الجيش الصهيوني إلى غزو لبنان سنة (١٩٨٢م) على حين شجعت الإدارة الأمريكية ــ من قبل ــ الرئيس العراقي السابق صدام حسين على غزو إيران تحت ذرائع منع تصدير مفاهيم الثورة الإسلامية إلى دول الخليج. لذلك كله قدّمت لصدام كل ما يحتاجه من سلاح مدمّر وفتّاك؛ في الوقت الذي تجاهلت مظالمه في العراق. وجعلت دول الخليج تقف دعماً له سياسياً ومادياً؛ إذ خططت جيداً لكي تدفع تلك الدول فاتورة الحرب بين العراق وإيران.

وشغلت الحرب التي دامت (٨) سنوات (١٩٨٠ ــ ١٩٨٨م) العالم كله حتى أبعدته عن القضية الفلسطينية؛ بل كاد ينسى عملية السلام برمتها. ولمّا أرادت الإدارة الأمريكية الإجهاز على السلاح الذي قدمته لصدام، وتنفيذ الأجندة الصهيونية بالسيطرة على المنطقة من خلال مشروع الشرق الأوسط الجديد الذي بدأت ملامحه تتضح اليوم للعالم كله شرعت تعزز في نفس صدام حسين فكرة غزو الكويت، بعد أن تضخّمت نفسه في ذاته ومثّل السياسي المهني الذي جعل الثقافة السياسية حرفة تحقق غايات محددة. وأكل الطُعم فغزا

الكويت سنة (١٩٩٠م) وتدحرجت الكرة التي انتهت بدخول الجيش الأمريكي وحلفائه إلى الخليج العربي. ثم ألقي طُعْم آخر إلى الدول العربية التي شاركت في إخراج القوات العراقية من الكويت، إذ وُعِدَتْ بتحقيق سلام عادل وشامل في المنطقة؛ ما جعلها تشارك في إخراج الجيش العراقي من الكويت مثقلاً بالجراح والهزيمة سنة (١٩٩٠م). ثم عُقد مؤتمر (مدريد) للسلام بين ٣٠/١٠-١/٢ -١٩٩١م) برعاية الاتحاد الأوربي وروسيا والولايات المتحدة والأمم المتحدة، وتفاعل العرب بهذا المؤتمر، ولكنهم تبينوا أن الإدارة الأمريكية كانت تلعب بعيداً عنهم، إذ كانت تراقب ــ بالخفاء ــ ما يجري في (أوسلو) من محادثات بين السلطة الفلسطينية والكيان الصهيوني، وهي التي تمخضت عن اتفاقيات (أوسلو) في (١٣/٩/١٩٩٣م) في الوقت الذي كانت قد شجّعت فيه الحكومة الأردنية على عقد اتفاقية وادي (عربة) بينها وبين الصهاينة في السنة نفسها.

ثم أيقن العالم أن عملية السلام دخلت في غيبوبة؛ ثم ماتت التسوية السياسية موتاً سريرياً وصارت تنقل من زمن إلى زمن ومن مؤتمر إلى مؤتمر، على حين كان بعض الحكام العرب متعلّقين بأمل غائب في مكان ما يسمى (واشنطن)، وبخاصة حين كان عدد منهم يذهب إلى أن أوراق الحل ما زالت بيد الإدارة الأمريكية وبنسبة (٩٩%) كما صرّح به ذات يوم الرئيس المصري السابق أنور السادات؛ وإن لم تكن كذلك فهي أقرب إليها. فصدقية الموقف الأمريكي لم تتزعزع في نفوس بعض الحكام الذين جعلونا نبكي على أجنحة الغياب الذي حمل إلينا كل أشكال الهزيمة النفسية والفكرية والعسكرية والتقنية، إذ تبيَّن لنا أنه لم يبق بين أيدي العرب إلا لفافات بيضاء وقع عليها رؤساء للولايات المتحدة وبعض زعماء العرب، وزعماء الصهيونية في تل أبيب؛ بل إن هذه الأوراق نفسها أصبحت تتناقض مع التوجهات الجديدة للإدارة الأمريكية والصهيونية، وقد تناسوا جميعاً أنهم أنشبوا أظفارهم المتوحشة في جسد أبناء العروبة في فلسطين ولبنان والعراق وشوهوا ثقافة السلام لحساب ظواهر الاستسلام والقبول بالأمر الواقع... كانت تلك الأوراق مسوّدة بحبر التوقيع المذل، فزادت آلام الأمة، وألهبت سياط نتائج الاتفاقات المشؤومة أجساد أبناء الوطن، بينما اختنقت أصوات الموقعين عليها؛ وهي ترى آثار رائحة الاستسلام التي زكمت الأنوف من وراء الشاشات والفضائيات، وبخاصة حين كانت تظهر الباكيات المتسلبات العاريات أمام حقيقة التوحش الصهيوني الذي

دمَّر الحياة في النفوس. وإذا كان فعل بعض الحكام كذلك فإنه لم يدمر ثقة بعض المثقفين الأحرار بوجود هامات وطنية حرّة حملت على عاتقها همَّ قضية الشعب العربي وفق ثقافة المقاومة الشريفة فواصلت الصراع العنيد في وجه المشاريع الأمريكية والصهيونية. وحينما صمد كثير من أصحاب هذه الهامات بوجه الكيان الصهيوني والدوائر الغربية؛ ودعموا تشبث الشعب العربي الفلسطيني بأرضه، وطفقوا يساندون جذور الانتفاضة الفلسطينية المتأججة فإنهم رفضوا كل أشكال التطبيع ثقافياً وسياسياً واقتصادياً و..... كان أمثال هذه الهامات من الساسة والمثقفين يمثلون ضمير الأمة ولم تتزعزع لديهم الثوابت الوطنية والقومية التي أكدت انتماءهم الشريف إلى الأرض والتاريخ والتراث، فحملوا أمانة الجهاد والنضال حتى تساوى لديهم عشق الحياة والوطن بعشق التضحية في سبيله، علماً بأن هذه الثوابت لم تتزعزع في نفوس كثير من أبناء الشعب العربي والإسلامي وناصرهم عدد غير قليل من شعوب العالم وأحراره وفي طليعته الشعب الفنزويلي بقيادة هوغو تشافيز.

هكذا تسارعت الأحداث في المنطقة فجاء انتصار المقاومة الوطنية اللبنانية على الكيان الصهيوني مدوياً في (٢٥/٥/٢٠٠٠م)، بيد أن الإدارتين الأمريكية والصهيونية قد نسيتا ذلك كلّه وطفق كل منهما ــ وعلى طريقتها ــ تشوهان معالمه، ولاسيما حين وقعت أحداث (١١/٩/٢٠٠١م) التي غيَّرت وجه العالم. وتعاطفت شعوب الأرض مع مأساة الشعب الأمريكي وأدانت الإرهاب الذي تعرضت لــه نيويورك، وغيرها، وأدان العرب قبل غيرهم ذلك الإرهاب، وظنّوا أن الإدارة الأمريكية ستستفيد من هذه التجربة لتحقيق العدالة لقضاياهم الكبرى، ولاسيما القضية الفلسطينية التي تدور حولها عملية السلام، غير أن العرب والمسلمين لم يدركوا أنهم سيكونون الهدف القادم للقوة الأمريكية الفائضة.

فكان احتلال أفغانستان في مطلع (٢٠٠٢م) ثم اندفعت تلك الإدارة وراء أسباب كاذبة إلى احتلال العراق في (٩/٤/٢٠٠٣م)، وقد أرادت منه بقيادة جورج بوش الابن أن تجعله انطلاقة إلى تنفيذ مشروعها للشرق الأوسط الجديد في تجزئة الوطن العربي وسرقة خيراته، ومن ثمة يكون مكاناً آمناً للكيان الصهيوني بعد أن تستمر سياسة التطبيع العربي معه في كل الاتجاهات. لهذا استمرت الإدارة الأمريكية في تشكيل الحكومات العراقية المتوافقة مع أهدافها، وأمعنت في إشعال حرب أهلية مناطقية عرقية ومذهبية، ولم تأبه لحمامات الدم

التي امتلأت بها شوارع المدن العراقية، ولم تتورع أيضاً لفقد ما يزيد على (٣٢٠٠) جندي من جنودها حتى (٢٠٠٧/٣/١م)، ولم تُعر بالاً للرأي العام الأمريكي الرافض لسياسة تلك الإدارة في استمرار احتلال العراق؛ ثم ضربت ما توصلت إليه لجنة بيكر ــ هاملتون بعرض الحائط حين تقدمت إليها بتقريرها حول العراق يوم (٢٠٠٦/١٢/٦م)، على الرغم من أن هذه اللجنة كانت حريصة على إنقاذ هيبة أمريكا من استمرار السقوط في المستنقع العراقي، وساعية إلى الحفاظ على حياة الجنود الأمريكيين. ولعل من أهم ما أوصت به تلك اللجنة دعوة الإدارة الأمريكية إلى سحب قواتها، وأن تعلن تلك الإدارة بأنها لا تريد السيطرة على نفط العراق وغيره، وطلبت إليها فتح باب المفاوضات مع سورية، من أجل دفع عملية التسوية في هضبة الجولان قدماً إلى الأمام... بيد أن إدارة بوش ما زالت تسد أذنيها عن سماع أي نصيحة مهما كانت، ما جعلها مصممة على تبني سياسة الفوضى الخلّاقة في العراق، متجاهلة ما توصلت إليه لجنة بيكر ــ هاملتون وما صرَّح به (ريتشارد بيرل) أحد المحافظين الجدد الذي خطط للحرب على العراق ولمشروع الشرق الأوسط الجديد، إذ قال: "لو طلب مني اليوم أن أذهب إلى العراق لكنت قد أجبت بكلمة لا، وطالبت بانتهاج استراتيجية أخرى"[١]. فهناك تصميم مسبق ومعلن من قبل تلك الإدارة لتنفيذ المشروع المقترح للمنطقة خدمة للأجندة الصهيونية ما أدى بها إلى رفض أي دعوة للسلام، والانسحاب من العراق في الوقت الذي لم تجبر الكيان الصهيوني على التقدم خطوة واحدة نحو السلام وهي التي تدعي أنها راعية لـــه. ولهذا كله فإن عملية السلام تتراجع في فكر الإدارة الأمريكية في العراق قبل فلسطين، لأن هذه العملية لا تخدم الصهاينة؛ علماً بأن الصهاينة يرون أن الشرق الأوسط اليوم ليس هو الشرق الأوسط أيام مؤتمر مدريد؛ ما أدى بأحد الصهاينة إلى القول: "إن الحاجة الأمريكية للخلاص من عبء العراق ليست سبباً للانسحاب من المناطق التي احتلتها إسرائيل قبل (٤٠) سنة، الجمهور الإسرائيلي لن يتنازل عن هضبة الجولان"[٢]. فبعض الصهاينة وكل ما قام به قادة الكيان الصهيوني يؤكد أن كل من في الكيان الصهيوني يرفض

---

[1] *انظر مجلة جيش الشعب ــ العدد (١٩٦٥)، ومجلة الأرض العدد (٣) ــ آذار ٢٠٠٧ ــ ص ٤٢ ــ ٥٢.*

[2] *انظر مجلة الأرض ــ العدد (٣) ــ آذار ٢٠٠٧ ــ ص ٤٦ ــ ٤٧.*

السلام ويرى أنه جنون يطيح به، كما ورد على لسان البروفسور (يسرائيل أومان) الحائز على جائزة (نوبل) إذ قال: "اندفاعنا الجنوني إلى السلام انقلب لعنة علينا، فهو في الواقع يبعد السلام ويعرض وجودنا للخطر"[١].

هذا هو الموقف الصهيوني من عملية السلام، إنه موقف عدواني إلغائي، لا يملك أي ذرة من حسن النية والصدق، فهو قائم على التسويف والمماطلات مهما قَدَّم من الوعود الخلبية على حين أن العرب ما زالوا متمسكين بمبادرة السلام التي قدمها الملك السعودي (عبد الله) ــ وكان أميراً آنذاك ــ في إطار تقديم ضمانات أمريكية بالتوصل إلى سلام شامل وعادل مع الكيان الصهيوني، علماً بأن أمريكا لم توفر أي ضمانات لتحرير الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات حين حجزه الصهاينة في مقر رئاسته بأريحا بينما كانت القمة العربية منعقدة في بيروت (28/ ٣/ ٢٠٠٢م)

ويبدو أن هذه الضمانات التي أعطيت للسعودية كانت مقابل دعم الحرب ضد العراق آنذاك. ومن ثم فنحن لا يعنينا أن بنودها كانت بإيحاء من الصحفي الأمريكي الصهيوني (توماس فريدمان) وإنما الذي يعنينا أنها كانت ذراً للرماد في العيون؛ علماً بأن شارون قد دفنها منذ أن ظهرت. وهذا لا يغمض عيوننا عما كانت تقوم به إدارة بوش الابن؛ إذ كانت تلعب على وسيلة أخرى أكثر خبثاً، فقد أيَّدت (خارطة الطريق) التي دعمتها أوروبا وروسيا والأمم المتحدة... وصدَّقت السلطة الفلسطينية أن (خارطة الطريق) ستكون حلاً مقبولاً للقضية الفلسطينية من الأطراف كلها ولكنها سرعان ما فوجئت بالبديل عنها، إذ قدَّم (شارون) خطته الجديدة وساندتها إدارة بوش الابن بكل قوة ومازالت تساند خليفته (أولمرت) للقضاء نهائياً على كل أمل بالسلام. وهذا ما يؤكده الواقع الراهن إذ أصبحت هذه المبادرة تتناقض مع خطة بوش الابن للتسوية، فلم يعد مبدأ الأرض مقابل السلام موجوداً، بل صار الأصح منه السلام مقابل البقاء في الحكم، وربما سينتهي كما قال عزمي بشارة: السلام مقابل سلامتكم. فإدارة بوش ــ كما يبدو لنا ــ حريصة على تصفية القضية الفلسطينية، في الوقت الذي يعمل فيه الكيان الصهيوني على تمزيق أوصال الضفة الغربية بالجدار العازل، واستغلال الانقسام الحاصل بين الإخوة الفلسطينيين للقضاء نهائياً على مبدأ تقرير المصير.

---

[1] *مجلة الأرض ــ العدد ٣ ــ (٢٠٠٧م) ص ٣٣.*

هكذا كانت الإدارتان الأمريكية والصهيونية تعبث بالقرارات الدولية بمثل ما تعبث بجثمان عملية السلام التي أثقلت كاهل وزراء الخارجية العرب في كل مؤتمر عقدوه. ولعل مواقف الإدارة الأمريكية قد أثارت قلق الشعب العربي، ووصل هذا القلق إلى الأمين العام للجامعة الذي أعلن في الشهر العاشر من عام (٢٠٠٦م) وفاة تلك العملية نهائياً. وقد تجلى للمراقب المحايد أن بعض الدول العربية المعتدلة لم يَرُق لها إعلان الأمين العام للجامعة، وأرادت حجب الشمس بغربال، وصمَّمت على تشكيل لجنة عربية للذهاب إلى الولايات المتحدة بعد أن نُقل جثمان عملية السلام إلى الأمم المتحدة... ولكن جهودها باءت بالإخفاق ولاسيما حين صُفعت وصُفع العرب صفعة مهينة للكرامة يوم (١١/١١/٢٠٠٦م) إذ رُفع حق النقض الأمريكي في وجه قرار عربي لإدانة المجازر الوحشية التي ارتكبها الصهاينة في بيت حانون في حق أسرة الطفلة هدى غالية التي أبيدت أسرتها كاملة، وكان أعظمها في (١١/٨) إذ سقط فيه (١٨) شهيداً من الأطفال والنساء والشيوخ أصغرهم طفلة لا يزيد عمرها على (١٨) شهراً... وهنا نتذكر تلك الرؤى التي قَدَّمها رئيس الوزراء الصهيوني (أولمرت) لإقامة الدولة العبرية عام (٢٠١٠م)؛ إذ قال: "ستكون لنا عام (٢٠١٠م) دولة إسرائيل أخرى، ولن نكون في أماكن لا فائدة لنا من البقاء فيها".

ولهذا بدأ العمل في هذا الاتجاه، فلا بد من حد نسبة الفلسطينيين داخل الأرض المحتلة عام (١٩٤٨م)، وإقامة شرق أوسط جديد تكون فيه الدولة اللقيطة آمنة فيه وسيدة ومحركة لـــه وقائدة. وحين صوّبت الإدارة الأمريكية صواريخها نحو العراق، وجَّهت الكيان الصهيوني لإرسال طائراته لتدمير لبنان باعتباره مفتاحاً مكملاً لتحقيق مشروع الشرق الأوسط الجديد. ثم أشعلت نار الفتنة البغيضة بين الأخوة الفلسطينيين (فتح وحماس) فاقتتلوا قتالاً عنيفاً في غزة أشرسه في (١٠ــ١٦/٦/٢٠٠٧م). وهو الذي أدى إلى خفض التسوية السياسية، وتمزيق السلطة الفلسطينية وقتل الوحدة الوطنية للشعب الفلسطيني. وكانت الإدارة الأمريكية والصهيونية تنفذ المخطط الجديد، على حين أن الموقف الدولي ظل موقف المتفرج، أما الموقف العربي ــ وفي غياب التضامن الفاعل ــ فقد كان صامتاً؛ بل هناك تواطؤ غير معلن على ما يجري في غزة من بعض الحكام العرب للوصول إلى حالة إنهاء الصراع مع الكيان الصهيوني، علماً بأن الأخوة الفلسطينيين مارسوا تنفيذ المخططات الصهيونية دون أن يدروا؛علماً بأننا لاننكر لحظة واحدة وجود بعض الأيدي الملطخة بعار

الاقتتال في داخل الأمن الفلسطيني، ودون أن ننسى أن فكرة إيجاد السلطة الفلسطينية في الأصل كانت بغرض تدمير فكرة المقاومة، ما يعني أن أصحاب فكرة السلطة قد نجحوا في كل ما خططوا له؛ وهو الذي تنبه لـــه (حزب الله) في لبنان ــ كما يظهر لنا ــ فابتعد عن الانغماس في السلطة انغماساً كلياً، ما جعله يحتفظ بصفة الحزب المقاوم، حتى الآن.

وبناء على ما تقدم: من هم أعداء الحقيقة؟ ومن هم أعداء السلام في العالم كله وليس في منطقتنا؟ وما الترتيبات التي تعدُّ لها (كونداليزا رايس) في جولاتها المتعددة إلى المنطقة؟ وما طبيعة المبادرات التي تقدمها؟ هل تعدُّ ــ حقاً ــ لسلام فاعل وحقيقي أم أن هناك حرباً جديدة تعدُّ لضرب سورية أو إيران ولابدّ من الاتجار بعملية السلام من جديد؟

وفي ضوء هذه الأسئلة نرى أنه ما من أحد يفتح عينيه يومياً على بعض القنوات الفضائية إلا سيستمع إلى رزمة من الأقوال التي تدين سورية وتعمل على محاسبتها بحجة عدم تعاونها من أجل تحقيق السلام في فلسطين، وبحجة أنها ترسل مقاتلين للعراق؛ أو تقدم الأسلحة والمساعدة للمقاتلين فيه، أو أنها ما زالت تتدخل في الشأن اللبناني. فقد أرادت الإدارة الأمريكية الصهيونية عزل سورية عن محيطها العربي وجعلها ــ في أعين العالم ــ عدوة للحرية والديمقراطية والسلام المنشود في المنطقة لكي يسهل الانقضاض عليها، وإركاعها؛ وفرض تبعيتها لمشاريع التقسيم؛ بيد أن سورية صمدت في وجه عشاق الحروب، وكشفت وسائلهم الإجرامية التي تتوافق مع خارطة الدماء ومشاريع الهيمنة والتقسيم التي أعدّت للوطن العربي، وأثبتت أن أمريكا وإسرائيل هما من ترفضان السلام العادل، على حين أن مصلحة سورية تكمن ــ فقط ــ في تحقيق السلام. ومن ثم فالسلام عند (بنيامين نتن ياهو ــ رئيس حزب الليكود، ورئيس وزراء الكيان الأسبق) هو ضمان التفوق للصهاينة إذ يقول: "إن السلام بين إسرائيل وجاراتها هو سلام ردع، وإن احتمال تحقيقه يرتبط بصورة مباشرة على قدرة إسرائيل في الردع. فكلما بدت إسرائيل أقوى أبدى العرب موافقتهم على إبرام السلام معها" [(١)] ثم يقول "لا أمن باستثناء الأمن الذي يعتمد على ردع المعتدي، وهذا هو السلام الوحيد الممكن تحقيقه

---

[(1)] *مكان تحت الشمس ــ ترجمة محمد عودة الدويري ــ مراجعة وتصويب كلثوم السعدي ــ دار الجليل ــ عمان ــ ١٩٩٥م ــ ص ٢٨٨.*

حالياً بين إسرائيل والعرب، سلام مسلح وحذر يوفر لإسرائيل درجة كافية من القوة القادرة على ردع الجانب العربي"[١].

ومن ثم فالمشروع الصهيو ــ أمريكي حاول خداع العالم بأنه يسعى إلى إشاعة الحرية والديمقراطية في العراق، ولكن الحقيقة الناصعة التي تجلت للبشرية كلها أن أربابه هم من يديرون صناعة الحروب، ويرسمون الخرائط التي تدمر الشعوب وثقافتها من أجل مصالحهم، وهم الذين يشيعون الفتنة والاقتتال بين الفلسطينيين، أو اللبنانيين، ثم يحملون تبعات ذلك لسورية لإركاعها وجعلها تمشي في ركاب السياسة الأمريكية، علماً بأن دولاً عربية وأوربية ترحب بذلك، وهو الذي جعلها تحض ((إسرائيل على توجيه ضربات عسكرية إلى سورية خلال حرب تموز ٢٠٠٦م)).[٢] لذلك كله فهم من يتمردون على شرعة الأمم المتحدة، والمبادئ الإنسانية، ولذلك ــ أيضاً ــ نجدهم يتدخلون في الشؤون الداخلية للبنان والعراق والمنطقة برمتها، بل إنهم ينظمون الجريمة تلو الجريمة للوصول إلى أهدافهم للهيمنة على المنطقة وسرقة خيراتها. لقد أرادوا للجريمة الأخيرة الممثلة باغتيال بيير الجميل في أواخر تشرين الثاني (٢٠٠٦م) أن تفَجِّر الدم في الرؤوس ليطغى الانفعال على العقل، فينجر لبنان إلى حالة مزرية من الفوضى والاقتتال الذي يخدم الأجندة الصهيونية والأمريكية. وهي جريمة مدروسة بعناية توقيتاً وهدفاً ما يعني أن جريمة اغتيال بيير الجميل إنما هي جريمة سياسية بكل أبعادها؛ على اعتبار أنها تهدف إلى تقليل الضغط الشعبي الذي تقوده المعارضة ضد الحكومة اللبنانية الفاقدة للشرعية ــ في تصور أرباب المعارضة ــ وإلى جر الشارع اللبناني إلى الفتنة والاقتتال، وإلى إثارة موجة عداء جارف ضد سورية، لأنها المتهمة بالاغتيال، وإلى تعزيز الدور الأمريكي ــ الصهيوني في لبنان والمنطقة، ما يشي بأن القوات الموالية للحكومة هي التي تقف وراء الاغتيال المدعوم أمريكياً وصهيونياً. ومن هنا نرى أن هذه الجريمة تأتي في السياق نفسه الذي أتت فيه الجرائم التي سبقتها ولا سيما جريمة اغتيال (جبران تويني) في (١٢/١١/٢٠٠٥م) التي جاءت قبل يوم واحد من إعلان (رايس) لميلاد الشرق الأوسط الجديد، على حين جاءت الجريمة الجديدة حين عجزت إدارة

---

[1] *المرجع السابق ص ٢٩١.*

[2] *انظر نشرة الصحف الناطقة بالعربية ــ وزارة الخارجية ــ دمشق ــ (٢٨/٦/٢٠٠٧م).*

بوش عن الوصول إلى غرضها في تطويع المعارضة اللبنانية. ومن ثم فقد أُريد ــ عمداً ــ أن تطمس أي ملامح مادية تكشف عن مرتكبي هذه الجريمة البشعة، ما أدّى ببعض الضالعين في مخططها إلى تحويل الأنظار عن أولئك الجناة وتوجيه الاتهام إلى سورية وحلفائها في لبنان ومثل هذا يفعلونه اليوم بعد أن اغتالوا النائب والقاضي (وليد عيدو) وابنه بشارع المنارة ببيروت في (١٠/ ٦/ ٢٠٠٧م).

ثم نتساءل ــ مرة أخرى ــ: من هم أعداء السلام؟ هل هم الذين يدينون تلك الجرائم ويسعون إلى كشف الأيدي الآثمة التي تلطخت بها أم صُنَّاع الشر الذين أغرقوا لبنان والعراق وفلسطين بحمامات الدم وبالجرائم الجماعية المخيفة؟ فالنصوص التوراتية تمتلئ بالروح العدوانية التي تدفع أصحابها إلى القتل والخراب كما جاء في (سفر تثنية الاشتراع ــ الإصحاح ١٣ /آية ١٥ ــ ١٦) وفيهما ورد ما يأتي: ﴿فاضرب أهل تلك المدينة بحدّ السيف وأسلبها بجميع ما فيها حتى بهائمها بحدّ السيف. وجميع سلبها اجمعها إلى وسط ساحتها، واحرق بالنار تلك المدينة﴾. إذاً، وفي نص آخر من (سفر العدد ــ الآية ٧ وما بعدها) نقرأ ﴿فقاتلوا مَدْين كما أمر الرب موسى.. وسبى بنو إسرائيل نساء مدين وأطفالهم وجميع بهائمهم ومواشيهم وأثاثهم غنموها. وجميع مدنهم مع مساكنهم وقصورهم أحرقوها بالنار﴾. مَنْ هم أعداء الحقيقة وأعداء السلام؟ هل هم أولئك الذين وقفوا مع ثقافة السلام الحقيقية ونشؤوا على قيمها الروحية والأخلاقية والإنسانية وفق المبادئ الأصيلة وربوا أبناءهم عليها في حياتهم وأدبهم وعلومهم، أم أولئك الذين زرعوا الدمار والقتل في الوطن العربي وأصروا على التوسع في أراضيه لتجزئتها وسرقة خيراتها، وهاهم يسعون إلى الانتقام من صمود أبنائها في وجه حمامات الدم التي تمارس على أرضهم؟. من هم أعداء السلام؟ هل هم أولئك الذين يتبنون ثقافة المحبة والتسامح أو أولئك الذين يحملون عقلية عنصرية توراتية تقوم على قتل الآخر واقتلاعه من أرضه؟ فالثقافة الصهيونية ثقافة عنصرية استئصالية استعلائية وفق نظرية (شعب الله المختار)، ثقافة تفرض على أبنائها مفهوم (الغيتو) الذي يحرم على اليهود الاندماج مع الآخرين وتؤكد نصوص العهد القديم هذا التوجه العنصري كما في (سفرتثنية الاشتراع ــ الإصحاح ٧ / آية ٦) ومنه ﴿لأنك شعب مقدس للرب إلهك، وإياك اصطفى الرب إلهك أن تكون له أمة خاصة من جميع الأمم التي على الأرض﴾ وهذا ما يؤكده (آرثر كيستلر) في حديثه عن يهود الخزر

الذين يشكّلون القسم الأعظم من اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين؛ إذ قال: "ولكن في الوقت نفسه نمت فيه ديانتهم المقصورة عليهم، والميل إلى الإنطواء على أنفسهم، وإلى العزلة عن غيرهم، وأن يتماسكوا معاً، وأن يقيموا مجتمعاتهم الخاصة بهم، وفيها أماكن عبادتهم ومدارسهم وأحيائهم السكنية وحاراتهم الخاصة بهم وحدهم (الغيتو GHITTO) وقد فرضوها هم أصلاً على أنفسهم في أية مدينة أو بلد استوطنوا فيه" [1]. وهذا ـــ أيضاً ما نجده في الأدبيات الصهيونية كما في قصيدة (الأريكة) للشاعر اليهودي (شاؤول تشرنخوفسكي) التي كتبها في (أوديسا) عام (١٨٩٧م) ـــ وهو التاريخ الذي انعقد فيه المؤتمر الصهيوني الأول، ومنها:[2]

***ـــ يهودي أنت يا بني، في هذا سعادتك***
***وأيضاً نكبتك***
***فرع سلالة شعب عريق***
***تفوق عظمتك الشعوب***
***ما زلت صبياً.. سوف تكبر وتعرف***
***الأمجاد التي صنعها شعبك***
***سوف تكون رجلاً.. يد القسوة***
***ستحل بك.. ستصعقك يا صغيري***
***ستتيه في الأرض***
***لكن موطنك واحد.. ومعجزتك صهيون***
***وإن هويت للقاع.. وإن تأخر يوم الخلاص***
***لا تيأس يا أسير الأمل***
***ستشرق شمسنا***
***هنالك يعسكر العرب***

---

[1] *القبيلة الثالثة عشرة ويهود العالم ـــ ترجمة أحمد نجيب هاشم الهيئة المصرية العامة للكتاب ـــ القاهرة ـــ ١٩٩١م ـــ ص ١٤٠.*

[2] *انظر ثقافة المقاومة ـــ جامعة فيلادلفيا ـــ كلية الآداب والفنون ـــ ص ٢٥٥ ـــ ٢٥٦.*

*على الأرض وفي الشارون.*

*ستكون لنا هذه الأرض.*

فأي تربية عنصرية عدائية حاقدة أعظم من هذه التربية التي يفوح بها النص؛ فهي تربية إرهابية للقتل واستئصال الآخر. وكذلك فإن هذا الشاعر يقول في قصيدة له بعنوان (أهزوجة لي):[1]

*فالأردن لك، ولبنان لك، والسهل والجبل*

*من نهر الفرات وحتى حماة والصحراء العربية*

*الحدود التي رسمتها يد الله، تراها عين السحاب*

*واحتلوا أرضاً بقوة الذراع ولتمسكوها.*

ولعل هذه الأسئلة تنقلنا إلى تكثيف الحديث عن دلالة السلام والاستسلام بين ثقافة المقاومة وثقافة العولمة.

**٣ ـ مفهوم السلام والاستسلام بين ثقافة المقاومة والعولمة**

إننا نرى أن الحرب بكل أشكالها إنما هي تنفيذ للمفاهيم التي ينشأ عليها مجتمع ما ولاسيما المفاهيم السياسية والثقافية والإعلامية والاجتماعية والاقتصادية التي غدت ــ اليوم ــ تتحكم بمنطق الأشياء لتحقيق مصالح خاصة.

وحين نفتش عن أسباب كل ما يجري في المنطقة يثبت لكل ناظر أن العدوان الذي تتعرض لــه الأمة العربية والإسلامية من قبل الدوائر الغربية والأمريكية والصهيونية لا يتوقف عند المظهر الاقتصادي والعسكري وإنما يمتد إلى الثقافة والسياسة، والعادات، بل إلى الجانب الروحي نفسه. وما المواقف والتصريحات التي تنطلق من المسؤولين والمراكز البحثية والفكرية والسياسية في تلك الدوائر إلا تأكيد لعدم رغبتها في السلام، والعمل على الإعداد لعدوان جديد. فلو أمعنا التفكير في كل ما يصدر عن المسؤولين الصهاينة ساسة وقادة وعسكريين ومثقفين لوجدناه يصبُّ في خانة التهيئة لعدوان جديد على لبنان وسورية، وربما مصر. وهذا ما يتضح لنا من مقال الكاتب الصهيوني (إيتان هابر) في افتتاحية لصحيفة (يديعوت) تاريخ (٢٢/٢/٢٠٠٧م) ومنه: "يجب أن يكون الدرس الأول من الحرب الأخيرة ــ

---

*[1] انظر ثقافة المقاومة ــ جامعة فيلادلفيا ــ كلية الآداب والفنون ــ ص ٢٥٥ ــ ٢٥٦.*

في الحقيقة ــ أنه لا يجوز لنا أن ندعهم يقوون ويطلقون النار علينا. ولكن على حسب هذا المبدأ يحسن بنا أن نبدأ بتوجيه النار ــ اليوم ــ إلى سورية ومصر اللتين تملآن مخازنهما بكميات ضخمة من السلاح".

فالدوائر الغربية تتحدث كثيراً عن السلام ولغة الحوار بين الدول والشعوب، ولكن الأحداث الواقعية أثبتت أنها استخدمت كل ما لديها من خبرة ومعارف وتقنيات متقدمة وأسلحة فتاكة، وعملاء خونة لمحاربتنا دينياً وثقافياً واقتصادياً وتقنياً وسياسياً واجتماعياً و... وللقضاء على كل ما نؤمن به من معطيات وطنية وقومية وإنسانية.... إنها تنفذ عملية تغيير مدروسة؛ إن لم نقل: إنها تتبنى عملية قتل منظمة وفق آليات ومناهج دقيقة لكي نحمل مفاهيم الإدارة الأمريكية ــ الصهيونية، ونصبح أدوات طيعة بيدها.

إن الخط البياني الدقيق لثقافتنا وموروثاتنا وعاداتنا و... يقدم لنا أننا أمة تعشق السلام وتدعو إليه، وتكره الاستسلام لأنه يزيد في الهوان والضَّعف والعنف والقتل. ومن ثم فإن العدو الغاصب يستمرئ استسلام الآخر، لأنه لا ينتج إلا الظلم والقهر والاستعباد والسرقة والغطرسة؛ بل إنه يزداد شراسة وعدوانية، ويزداد المستسلم تبعية وفقراً وتجزئة. لذلك كله فإن ثقافة السلام في المفاهيم الروحية والدينية والسياسية والثقافية واللغوية والأدبية والأخلاقية عند العرب والمسلمين إنما تجسد مفاهيم المقاومة الحرة الشريفة في أشكالها المتقدمة، ابتداء بالتربية الروحية والأخلاقية وانتهاء بالتربية الاجتماعية والمعرفية والعلمية والعسكرية و... لهذا علينا أن نعد المواطن المخلص للمبادئ الفاضلة وللأرض التي ينتسب إليها ويعرف بها لحراستها من أي أذى دون أن يفكر بالاعتداء على غيره. ومن ثم فهناك علاقة وطيدة بين ثقافة السلام وثقافة المقاومة الوطنية والقومية بينما ينتفي هذا اللقاء بينها وبين الاستسلام؛ وإن كانت الدوائر الغربية والأمريكية والصهيونية تريد أن تطابق بينهما.

ومن يستقص دلالة كلمتي (السلام) و(الاستسلام) في ثقافتنا وعقيدتنا وأدبنا وحياتنا يدرك البَون الشاسع في خصائصهما، دون أن ننسى أن كلمة (السلام) من أسماء الله وتحيتنا للآخر أياً كان موقعه وشأنه وجنسه (السلام) وهذا شيء والاستسلام شيء آخر كما نوضحه فيما يأتي:

١ ــ ثقافة السلام تعزز الانتماء الأصيل وتنميه وتشكل في نفوس الأباة الأحرار حصانة دافعة للهوية الوطنية والقومية، والإخلاص لذلك في كل شأن من شؤون الحياة والثقافة والأدب والفن. فثقافة السلام ــ وفق هذا التصور ــ

تدفع الموت عن الإنسان، بمثل ما تنتشل الوطن والأمة من الضياع، على اعتبار أنها جزء من ثقافة المقاومة في حال السلم؛ وهي تظهر على لسان المثقفين الوطنيين أينما كان موقعهم في المجال السياسي أم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والأدبي والفني. فتراهم يناضلون كل من موقعه ليبقى الوطن حُرَّاً وسيداً. وهذا يثبت أن خيارات الشعوب المكافحة والحريصة على كرامتها تختلف عن ضرورات الأنظمة السياسية. وقد أكد الشعب العربي الفلسطيني قدرته على مواجهة الحصار الأمريكي والأوربي والصهيوني، وظل مزروعاً في أرضه بالرغم من الجوع والقتل والتشريد، وأظهر للعالم كله أن الاستعمار الصهيوني الاستيطاني العنصري يفوق في وحشيته وهمجيته أي محتل مجرم عرفته الدول والشعوب. وحين كان الصهاينة يمارسون التصفية العرقية للفلسطينيين ويتفننون في تشريدهم وتجويعهم كان هؤلاء الفلسطينيون يثبتون أن أرضهم ممتلئة بهم ويكذبون ما زعمته غولدامائير ذات يوم في تصريح لها لصحيفة (صانداي تايمز) في (١٥ /٦/ ١٩٦٩م) إذا قالت: "ليس هناك شعب فلسطيني.. ولم يكن الأمر أننا جئنا وأخرجناهم من الديار واغتصبنا أرضهم، فلا وجود لهم أصلاً".

ومن ثم فثقافة السلام الجديدة ــ وفق الخطاب الأمريكي ــ الصهيوني المستند إلى مفاهيم العولمة ــ هي ثقافة الرضا والقبول بالأمر الواقع أي إنها تعزز روح الاستسلام، ما يوحي بإلغاء كل مفاهيم المقاومة أو تغييرها ضد أي محتل غاصب للأرض والعرض، وبمعنى آخر ؛ إن أي عمل مقاوم للخطاب الأمريكي إنما يقع تحت تصنيف الإرهاب، وعلى العرب إدانته. ولا شيء أدل على ذلك كله مما يجري في فلسطين والعراق، فمن يتعرض لطائرة صهيونية أو أمريكية، أو لجنودهما فإنما هو إرهابي، فالتحرر الوطني والقومي أصبح إرهاباً في منظور الخطاب الأمريكي، وهذا أسوأ ما وقع في تاريخ المفاهيم.

٢ ــ ثقافة السلام تعزز التآخي الإنساني بين العربي والآخر، فالعربي يبادر أي إنسان لـــه بكلمة السلام، ويعتمد معه مفهوم الحوار ولو كان معادياً لـــه، فهو يتعامل معه على أساس الندية والمساواة وفق ما تبنته لغتنا لدلالة كلمة السلام.

و لو رجع أحدنا إلى تراثنا اللغوي والديني لوجد أن كلمة (السلام) تدخل في جملة من المعاني المشتركة، منها الدخول في العهد، أي هي أمان الله في

الأرض، والبراءة من النقص والعيب والآفات، فضلاً عن معنى الصلح بعد الحرب، وإشاعة المحبة في الناس.

ومن ثم فإن التحية بلفظ (السلام) تعني ذلك كله ــ على الأغلب ــ كقوله تعالى: (فقل: سلام عليكم، كتب ربكم على نفسه الرحمة)(الأنعام ٦/٥٤) وقوله: (سلام عليكم بما صبرتم)(الرعد ١٣/٢٤)، وقال الرسول الكريم: [أفشوا السلام تسلموا] و[أفشو السلام تحابوا][١] ولا تقتصر التحية بالسلام على المؤمنين بل تشمل غيرهم لقوله تعالى: (لا تقولوا لمن ألقى السلام: لست مؤمناً)(النساء ٤/٩٤)، وقوله: (السلام على مَنْ اتبع الهدى)(طه ٢٠/٤٧). وتشمل تحية السلام مَنْ في القبور، كقول الشماخ في رثاء أمير المؤمنين عمر، منه:

**عليك السلام من أمير وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزَّقِ**

وقد سميت الجنة (دار السلام) لخلوّها من الآفات والمكاره، وتحيتنا من الله السلام (فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم، تحية من عند الله) (النور ٢٤/٦١).

ومن ثم فإن مصطلح (السلام) يماثل مصطلح (السّلْم) (بكسر السين وفتحها)؛ ومعناه (الصلح) وهو يذكر ويؤنث، وتسالم القوم: تصالحوا، والمسالمة: المصالحة وترك الحرب، أما الاستسلام فهو الانقياد؛ وفعله استسلم يستسلم واسم الفاعل مُسْتسلم.

وبذلك كله فإن الثقافة العربية القديمة والحديثة أكدت معنى الإخاء الإنساني، وهو ما تضمنته نصوص العقيدة الإسلامية كقوله تعالى: (إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) (سبأ ٣٤/٢٤) أو قوله: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) (التوبة ٩/٦).

فالنص القرآني شديد الوضوح في هذا الشأن، بل إنه يطلب من العربي والمسلم أن يجعل عمل الآخر أفضل وصفاً من عملهما كقوله تعالى: (لا تُسألون عما أجرمنا، ولا نسأل عما تعملون) (سبأ ٣٤/٢٥) وقوله تعالى: [وإن جنحوا للسَّلْم فاجنح لها] (الأنفال ٨/٦١). فالنصوص القرآنية تربي المسلم على السلام لا الاستسلام على اعتبار أن السلام يحقق الوجود الحر الكريم، ويرفض الإذعان والتبعية للآخر سواء كان من أبناء الوطن أم من الغرباء، بل إن القبول

---

[١] (الجامع الصغير ١/١٥٩ رقم ١٢٢٧ و١٢٤٨).

بالمحتل الغريب أمر مرفوض شكلاً ومضموناً، لأنه أقصى أنواع الاستسلام المذل ولابد من مقاومته بكل الأشكال وعلى كل مستوى.

والسنة النبوية تؤكد ذلك، كصك الحديبية وموقف الرسول والصحابة من كتابة ذلك الصلح حين لبى طلب سهيل بن عمرو، ومحا كلمة الرسول من الصك، ثم إن تاريخ الفتوحات الإسلامية يثبت جنوح العرب إلى السلام، كما يستدل من حكم القاضي المسلم الذي حكم بإخراج جيش قتيبة من مدينة سمرقند ــ والحادثة مشهورة ــ. فمفهوم ثقافة السلام يجسد الوعي التاريخي بحقيقة الكرامة الإنسانية ليبقيها حية في الذاكرة.

أما الاستسلام فما يجر أصحابه إلا إلى الذل والخيبة والتبعية والخضوع، والغربة الذاتية، والانتهاب النفسي والاجتماعي والفكري والعسكري ويسلّم للآخر بكل ما يريد. فهم لا يملكون غير التباكي والعويل تحت كنف السادة في النظام العالمي الجديد الذي أتقن حرفة القتل والسيطرة وسرقة خيرات الشعوب. وعليه فإن حالات الاستسلام لم تزرع في نفوس بعض العرب والمسلمين إلا ثقافة الخوف والمساومة والتطبيع، ولم تورثهم إلا البيوت المهدمة والبائسة والأرض المحروقة، وليست فلسطين والعراق وأفغانستان عنا ببعيد.

٣ ــ ثقافة السَّلام عندنا تزيد قدرة المثقفين على بناء الذات القوية والمتسلحة بإرادة المعرفة والدقة والإتقان وتعلم المنهج الصحيح في المعارف والفنون والآداب والحياة. فهي تعزز الوعي الخلاّق لدى أبناء المجتمع لإنتاج الإبداع تلو الإبداع في مختلف الميادين وتخلق الثقة بالنفس وتحرص على الانتماء الصادق في ضوء التربية الإبداعية التي تبدأ بتكوين الذات الحرة الكريمة منهجاً وحياة، وفق إطار المواطنة المؤسسة قانوناً ودستوراً، وهو مبدأ يحقق المثاقفة المعرفية الرفيعة داخلياً ويهيئ لاحترام الآخر وتبادل الخبرات والتجارب معه على اعتبار أن ثقافة السلام ثقافة مقاومة للتخلف والفقر والجهل والتبعية المطلقة لثقافة الآخر. فهي ثقافة تحمل من خصائص التميز والوجود ما يجعلها ثقافة حيَّة وملبية لطموح الإنسان في قيمه ومبادئه الإنسانية الكريمة المتساوقة مع أخلاقيات الشرائع السماوية وشرعة حقوق الإنسان التي أسستها القوانين الدولية، أما مفاهيم الاستسلام فتزيد الجهل والفقر والتبلد والتقليد والمحاكاة، فيتدنى الإنتاج، وتتخلف وسائله... لأنها تسلّم للآخر بأن أصحابها لا يملكون إلا ثقافة مأزومة ومهزومة عاجزة عن تلبية الحاجات ومتطلبات المعرفة والعلم...

٤ ـــ ثقافة السلام تقوم على احترام الآخر ثقافياً ووطنياً وإنسانياً، وتهيئ للتبادل المعرفي والعلمي بين أبنائها وبينه، ما يعني تعزيز الوحدة الوطنية والقومية وتعميقها ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وتقنياً دون أن تتخلى عن سماتها وخصائصها المعززة لمقاومة الاستلاب والإلغاء والإلحاق.. فالثقافة بهذا المعنى تأخذ من الثقافات الأخرى وتعطيها، تعير وتستعير وتصبح جزءاً لا يتجزأ من الكون الحضاري المعترف به؛ باعتبارها ثقافة وطنية وإنسانية تكرم البشرية جمعاء وتقاوم الذل والخضوع. إنها ثقافة تعزز الحرية والكرامة لأنها تقاوم أي اعتداء على الذات الثقافية والوطنية، بل هي ثقافة احترام الوجود نفسه. أما ظواهر الاستسلام فليست ممثلة لأي ثقافة حرة ولن تستطيع أن تصمد أمام القوة الجبارة للآخر وثقافته، ما يثبت أن الوطن لن يكون بمعزل عن التجزئة والهزيمة. وليس ما يجري اليوم على الساحة العربية إلا المثال الصارخ والصادق على ما نقوله، وفي طليعته ما انبثق عن قمة (شرم الشيخ) التي عقدت يوم الاثنين (٢٥/٦/٢٠٠٧م) بين (مصر والأردن والسلطة الفلسطينية بقيادة محمود عباس، والكيان الصهيوني بقيادة أولمرت). وما إن انتهت حتى تراجع أولمرت عما وعدها به، فلم يطلق سراح الأسرى، وسارع في اليوم التالي إلى شن غارات على غزة، واستقبل الرباعية الدولية في القدس ليقضي نهائياً على مشروع الدولة الفلسطينية المؤقتة.

ومن هنا فإن روح الاستسلام أسقط الثقافة العربية في المحتوى الاستلابي الذي جعل أبناءها مجرد تابعين في النشاط الثقافي والسياسي، بل النتاج الحضاري كله. ولا شيء أدل على ذلك كله من أن ظواهر الاستسلام هي التي جرّت العرب إلى سياسة التطبيع مع الكيان الصهيوني، والقبول باحتلال الأرض مقابل ما يسمى بالسلام المزعوم، حتى أذلت الإنسان العربي، ومن ثم تخلّى عن كل ما كان يؤمن به من مبادئ وشعارات وطنية، أقلها "قاطعوا البضائع الأمريكية". فقد صار أحدنا يتغنى بشراء هذه البضائع ويأنف من شراء البضائع الوطنية تحت حجج واهية، ما ألحق بالاقتصاد الوطني ضرراً كبيراً.. وهذا ما تسعى إليه ثقافة العولمة الأمريكية اليوم. فهي مستمرة في الاعتداء على ثقافات البشرية وفق سياسة الاستسلام، لا ثقافة السلام، لأن ثقافة السلام تملك كل عناصر القوة لمقاومة الذوبان في غيرها والاندماج بها، أو التبعية لها سياسياً واجتماعياً واقتصادياً و.... وقد مارست الثقافة العربية منذ القديم مقاومة كل صنوف الاعتداء والاستئصال ابتداء من الاستشراق

الاستعماري وثقافة الاستعمار الأوروبي وانتهاء بالعولمة التي تعني ثقافة الأمركة كما أكده (بريجنسكي في قوله: "يمارس النفوذ العالمي الأمريكي من خلال نظام عالمي مصمم أمريكياً وفق التجربة الأمريكية". وهذا كاف لتفسير مفهوم العولمة كما عرفه (رولاند وبرتون) بقوله: "تشكيل وبلورة العالم بوصفه موقفاً واحداً، وظهور حالة إنسانية".

وهنا يكمن الصدام الحضاري بين الثقافة العربية ــ الإسلامية باعتبارها ثقافة سلام، وبين ثقافة العولمة التي تُعدُّ ثقافة استعمارية واستعبادية وقاتلة، ومفككة لثقافة الآخر وقاتلة لها وحاضنة لروح الاستسلام والإحباط والخوف والمساومة ونشر الفساد والأمراض الاجتماعية الهدامة.

فثقافة العولمة ــ وإن زعم أصحابها بأنها ثقافة علمية ليبرالية ــ إنما هي ثقافة عدوانية وحشية عنصرية استعلائية تمثل مفهوم العصر الأمريكي المستبد الذي يريد السيطرة على العالم وفق مفهوم القوة الكونية للقرية الواحدة.

في مثل هذا المناخ المواتي سعى أقطاب فلسفة ثقافة العولمة إلى فرض مفاهيمها سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وإعلامياً، وعسكرياً لتعزيز المفاهيم الثقافية والقيم الغربية في إطار ما يسمى اليوم بمشروع الشرق الأوسط الجديد الذي رضي به عدد من الحكام العرب، في الوقت الذي بدؤوا يتنازلون فيه عن فلسطين وفق خطة اللجنة الرباعية، علماً أن هذا المشروع يتجاهل الوجود العربي شكلاً ومضموناً، لأنه يريد المنطقة برمتها ملحقة بالهيمنة الأمريكية ومشاريعها.

ومن ثم فإن الدوائر الغربية عامة والأمريكية خاصة تسعى إلى فرض نزوع الاستسلام وقيمه وفق ظاهرة الاستلاب الحاملة لطوابع الإصلاح والديمقراطية كما هي عليه في التصور الأمريكي. فالإدارة الأمريكية تجعل الآخر العربي يتبنى مفاهيم العولمة، ولابد له من أن ينفذها وفق سياسة قابلية الرضا بالأمر الواقع، وتعزيز مفاهيم الدولة القطرية وتجذيرها على حساب الدولة القومية. لهذا تقوم تلك الدوائر بدعم ثقافة العولمة بأساليب متعددة وعجيبة، على اعتبار مفهومها المعروف للقاصي والداني؛ ومنها:

١ ــ فرض الأجندة الأمريكية ــ الصهيونية وفق مفهوم الدمج والإلحاق والإلغاء علمياً وثقافياً، ونفسياً واجتماعياً و.. ما يعني رفض الدعوات العربية للسلام، والسعي إلى فرض فهم الغرب للسلام وتطبيقه على أبناء المنطقة في إطار فلسفته الخاصة. وقد سخّر لذلك كله برامج سياسية وثقافية وإعلامية أعد

لها كل الأدوات الكفيلة بنجاحها. فلم يبق شبر واحد على الأرض دون تغطية من وسائل الإعلام فضلاً عن الشابكة (الإنترنت) والفضائيات وجولات المسؤولين والباحثين وغيرها. فهناك ضَخٌّ إعلامي مستمر ومنظم لغسل الأدمغة العربية من مفاهيم ثقافة المقاومة بكل أركانها، وطنياً وقومياً وإنسانياً، حتى صدّق عدد غير قليل منا بأن العرب ــ أو بعضهم ــ قد أصبحوا إرهابيين وقتلة، وعليهم الوقوف مع نظام العولمة الجديد الذي تقوده إدارة بوش للتخلص من هؤلاء الإرهابيين، وإلا أصبح كثير من العرب أعداء للديمقراطية والحرية، فأي عالم ظالم نعيش فيه؟!!.

٢ ــ القيام بحروب استباقية وتبني مفاهيم الفوضى الخلاقة لإسقاط ثقافة المقاومة بكل خصائصها الإنسانية، وإشاعة مفاهيم الاستسلام. فتلك الدوائر تستند إلى جعل الرافعة السياسية والعسكرية وسيلة للقضاء على ثقافة المقاومة التي أخذت تشيع في الوطن العربي. وقد استفادت هذه الدوائر من بعض تجار السياسة أو بعض الحكام العرب الذين يوصفون بأنهم معتدلون؛ في الوقت الذي بدأنا نجد فيه تراجعاً لمفهوم المد القومي العروبي؛ إذ أخذ بعض أبناء العروبة يستهجن المفاهيم القومية.

٣ ــ اللعب على المصالح الخاصة، واتباع الإغراء المناسب والترهيب المطلوب ــ كالبنك الدولي ــ ومنظمة التجارة العالمية (الكات). فالشركات الاحتكارية الكبرى والمالكة لرأس المال هي التي توظف إمكاناتها المالية الهائلة والمركزية لخدمة الدوائر الغربية عامة والأمريكية خاصة، وهي التي صممت على أن تجعل ثقافتها مسيطرة على غيرها وفق المبدأ الاقتصادي (وحّد تسُدّ)، بموازاة مبدأ (فرّق تسد)، ما يعني سيطرة مفاهيم ثقافة العولمة المساوية لمفهوم الأمركة.

فعملية الدعم الاقتصادي والعلمي والتقني والمالي قد تحقق إنجازات عدَّة لتلك الدوائر لا تستطيع القوة أن تحققها، ما يعني أن الثقافة الجديدة التي ينبغي أن تتبناها الشعوب إنما هي ثقافة التنافس الجدي بين الفقير والغني، بين الضعيف والقوي، بين المتخلف والمتقدم، بين المسحوق والمظلوم والمتكبر الظالم و... وهل يتوافقان حقاً؟ ولهذا نتساءل: ما النتيجة التي آلت إليها ثقافة المقاومة التي وقفت سداً منيعاً في وجه ثقافة الأمركة؟ هذا ما يمكن أن يتضح لنا فيما يأتي:

**٤ ـ سقوط الأسطورة واحتضار الخرافة**

لم يكن المترددون ــ يوماً ــ أصحاب مواقف قوية في أثناء الأزمات الكبرى التي تتعرض لها لأوطان، ولم تكن الأيدي المرتجفة ــ يوماً ــ قادرة على حمل البندقية وتصويبها بدقة إلى صدور الأعداء. وحينما يقال: إن المواقف العظيمة تصنع الرجال فإننا نؤمن أيضاً بأن الرجال العظماء يصنعون تاريخاً عظيماً في مواجهة المشروع الصهيوني ــ الأمريكي الساعي إلى تهويد فلسطين، والهيمنة على الأرض العربية المجاورة ولا سيما تلك الغنية بالمياه، كهضبة الجولان، وجنوب لبنان. فالمشروع الصهيوني حاول أن يؤكد وجوده في إطار مشروع الشرق الأوسط الجديد الذي تقوده الإدارة الأمريكية المحافظة بقيادة بوش الابن، في الوقت الذي يسعى إلى إدارة المنطقة وقيادتها وفق رغبات الحركة الصهيونية، مستنداً إلى ما تأسس بعد هزيمة (٥/ ٦/ ١٩٦٧م) حول جيشه بأنه الجيش الذي لا يقهر...

ولهذا حاول الإفادة من الوضع الدولي، والهزائم التي لحقت بالعرب، واستثمار سيطرة الولايات المتحدة على العالم بعد سقوط الاتحاد السوفييتي عام (١٩٩١م) لعقد اتفاقيات الاستسلام مثل (اتفاقية أوسلو) وما لحقها من صكوك التسليم، وكذلك كانت اتفاقية (وادي عربة) لعام (١٩٩٤م) وغيرها...

ثم أقدم الكيان الصهيوني من جديد على غزو لبنان إثر عملية (الوعد الصادق) التي نفذها (حزب الله) وأسر فيها جنديين صهيونيين من ساحة المعركة، فما ترك هذا الكيان نوعاً من الأسلحة الفتاكة، والمدمرة والمحرمة دولياً إلا ألقى بها على لبنان أرضاً وشعباً. لقد استخدم صواريخ (بوباي لايت، وهاف لايت) والقنابل العنقودية، والانزلاقية والفراغية، والوقودية و... وأي قنبلة من هذه كانت أعظم بكثير من تلك التي استخدمت في حرب الخليج (١٩٩١م) وفي غزو العراق (٢٠/٣/ ٢٠٠٣م)... دون أن ننسى قذائف المدفعية المنضّدة بالفوسفور الأبيض، علماً بأن طائرات العدو قد نفّذت (٨٧٠٠) طلعة جوية كما أعلنه (صوت إسرائيل) في (٦/ ٨/ ٢٠٠٦م). وبهذا أخفق سلاح الجو الصهيوني من تحقيق أهدافه، اللهم ما عدا تدمير البنى التحتية التي أراد من ورائها أن ينقلب الشعب على مقاومته، ولكنه خسئ وانكسر.

من هنا يصبح للموقف البطولي الشريف الذي اتخذه قائد المقاومة حسن نصر الله؛ وللأبطال المجاهدين في لبنان قيمة خاصة متفردة ومطلقة ليس ــ فقط ــ في صهر الرجال الأشداء وتمييزهم من الضعفاء الجبناء، ولكن في إحياء روح الانتماء إلى الأرض والعقيدة بكل صدق وإخلاص، وفي إثبات أن هذا الانتماء لا يصان إلا ببذل النفوس رخيصة في سبيله، وإيجاد موقف موحد

بين المقاومين من جهة وبينهم وبين حركات النضال الوطني والقومي والدولي كما تجلى في تنسيق الجهود بين المقاومة وسورية وإيران. فالوطن ليس كلمة تلاك في الأفواه، والعقيدة ليست طقوساً تمارس في المكان وإنما هما فعل إرادي مقاوم لكل أشكال الظلم والقهر والتخلف والتمزق والعدوان والضعف والهوان.

ونحن ــ اليوم ــ لن نتحدث عن الدور الوطني والقومي لسورية ولا عن تضحيات الضاحية الجنوبية في بيروت وصمودها في وجه خفافيش الليل، وطائرات القتل والدمار، ولن نتحدث عن البقاع الصامد الذي أعلن للعالم كله أن أرضه العطرة إنما أخذت حُمرتها من دم الشهداء القاني، ولن نتحدث عن الصمود الخَلاق لقرى الجنوب ومدنه وهي تتعرض لتدمير منهجي ومجازر وحشية جماعية لا نظير لها في التاريخ الإنساني من مدينة صور إلى بلدة قانا وعيترون وعيتا الشعب ومارون الراس وصريفة والطيبة والخيام وبنت جبيل ــ وعفواً إذا ضاق المجال عن ذكر صمود البلدات كلها من البقاع إلى القاع وطرابلس في الشرق والشمال؛ نقول: لن نتحدث عن ذلك كله وإنما سنثبت أن تجربة المقاومة الوطنية اللبنانية التي استمرت /٣٣/ يوماً بدءاً من الساعة التاسعة والنصف صباح الأربعاء (١٢/٧/٢٠٠٦م) قد أكدت لنا أنها مقاومة وطنية لكل فئات الشعب اللبناني، وإن كان حزب الله وحركة أمل يمثلان رأس حربة لها، ما يعني أن نضال أيّ منهما لم يكن لمذهب أو طائفة وإنما كان للوطن والأمة. هكذا كان في عام (١٩٨٢م) وهكذا استمر في مواجهة العدوان الوحشي الأمريكي الصهيوني الأخير في تموز(٢٠٠٦م). ولعل هذا يدعونا إلى تذكر المجموعات اللبنانية التي شكلت نسيجاً وطنياً لبنانياً وعربياً منذ مطلع الثمانينيات من القرن العشرين. فمن منا ينسى أحمد الرحيل الذي قاد طليعة مناضلة في (٧/٦/١٩٨٢م) قرب صور بين قرية (البازورية) وقرية (البرج الشمالي) ومخيم البرج الشمالي الفلسطيني. وقد كمنت هذه الكوكبة المؤلفة من أربعة عشر مقاتلاً للواء الصهيوني المتقدم نحو صور فعالجته بقذائف (الآر بي جي) وغيرها من القذاف الصاروخية فدمّرت (٢٦) آلية وأسرت نحو (١٩) جندياً وضابطاً صهيونياً منهم قائد اللواء.

في تلك المعركة استشهد أحمد الرحيل بعد أن قام بواجب المقاومة والتصدي للغزاة. ومن منا ينسى أولئك الشباب من الحزب القومي الاجتماعي بقيادة (سمير حمدان) الذين تصدوا للعدوان الصهيوني في منطقة عرمون

فكبدوا العدو خسائر فادحة؟ ومثل ذلك قاد الشهيد رشيد حمزة مجموعة من الشباب في (دير الراهبات) حين دمروا سيارة جيب صهيونية؟

فالدم العربي الفلسطيني امتزج بالدم الوطني اللبناني في العديد من المواقع في (عين عنوب) و(دير قوبل) و(وادي الزينة) و(الناقورة) و(جنوب صور).. وهو الدم الذي امتزج في حرب تموز ليعلن للدنيا كلها أن النضال الوطني لحزب الله وحركة أمل كان من أجل لبنان والأمة وهو الذي أكد وحدة المصير والموقف.

وبهذا كله أكد لنا حزب الله والمقاومة الوطنية اللبنانية أن القوة العسكرية الصهيونية المدعومة بأعتى قوة على وجه الأرض في عصرنا الحديث، وأعظم الدول تقدماً في التقنيات المدنية والعسكرية، وفي الاتصالات والعلوم، والفضائيات، وأكثرها أتباعاً في الإعلام، إذا استثنينا الخونة والجواسيس، قد عجزت عن فك شفرة الخطط التي أعدها حزب الله واختراق بنيته؛ والانتصار عليه على الرغم من أنها قد خططت لعدوانها قبل أربعة أشهر؛ إذ اعترف رئيس وزراء الكيان الصهيوني (إيهود أولمرت) بأن قرار الحرب على لبنان قد اتخذ في (آذار/٢٠٠٦)، أي قبل أسر الجنديين الصهيونيين على الحدود اللبنانية. ولم يكن هذا الاعتراف تصريحاً منه للصحافة ولكنه شهادة أمام لجنة بدأت تحقيقاتها في (١٨/ ٩/ ٢٠٠٦م) حول حرب تموز، إذ ذهب إلى أن هناك خططاً مُعَدَّة لمواجهة حزب الله في جنوب لبنان. ثم أثبتت هذه اللجنة عجز الجيش الصهيوني عن النيل من المقاومة الوطنية اللبنانية، أو تشويه صورتها بأنها مقاومة شيعية؛ لطائفة محدودة من الشعب اللبناني؛ أو بأنها تحاول السيطرة على لبنان لتصبح لها الكلمة الأولى والأخيرة... فالكيان الصهيوني المدعوم بالإدارة الأمريكية المحافظة جهد في تخويف اللبنانيين من المقاومة الوطنية بقيادة حزب الله؛ علماً بأن هذا الحزب لم يوجه في يوم من الأيام بندقيته إلى الداخل اللبناني، ولا طمع في مكاسب سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية على حساب أحد من اللبنانيين منذ أن أطلق مقاومته الأولى في عام (١٩٨٣م). كانت مقاومته في سبيل تحرير لبنان، والحفاظ على وحدته في إطار مفهوم العيش المشترك، فضلاً عن أن كثيراً من المقاومين اللبنانيين قد شاركوا في مقاومة العدوان الجديد، وهم ينتمون إلى مذاهب فكرية ودينية لا علاقة لها بحزب الله كما جرى في عام (١٩٨٣م).

هكذا سقطت القوة الرابعة في العالم بكل وحشيتها وجبروتها وبكل عنصريتها الصهيونية. وليس هذا فحسب بل انفجر العديد من الفضائح المخزية

لقادة الكيان وسياسييه ابتداء بالتحرّش الجنسي لرئيس الدولة ووزير العدل وانتهاء بالاتهامات العديدة لأولمرت وقادته العسكريين باعتبارهم مسؤولين عن سبب هزيمة الجيش وانكسار صورته[1] في نفوس الصهاينة فضلاً عن أنه عجز عن النيل من حزب الله، ما أدى ــ أيضاً ــ إلى سقوط هيبة هذا الجيش في نفوس العرب.

إذاً، أخذ التململ يتردد في جنبات الدولة اللقيطة ــ فالجيش الصهيوني راح يلعق هزائمه المرة واحدة تلو الأخرى سياسياً وعسكرياً واجتماعياً؛ إذ خسر من جنوده ما يزيد على (١٠٠) قتيل فضلاً عن قتلى آخرين من المدنيين، مقابل (١١٧) شهيداً من المقاومة الوطنية اللبنانية فازداد الاحتجاج الشعبي والعسكري وبرزت الأزمات العديدة على الرغم من زعم (أولمرت) بأنه أحرز نصراً استراتيجياً، وطفق القلق يراود الإدارة اليمينية المارقة بقيادة بوش الابن حول مصير ربيبتها (إسرائيل) بعد أن زودتها بكل آلات القتل والدمار والأسلحة المتطورة أرضاً وبحراً وجواً لقتل الحياة في لبنان وتدمير بنيته التحتية ولكن هذه الأسلحة في الجو والبر والبحر عجزت عن النيل من المقاومة، بل إن هذه المقاومة كانت تصطاد الدبابات الصهيونية في كمائن عدة، وأنزلت بها خسائر جسيمة كما في وادي (الحجير)، وصار الجنود ينتظرون الخروج من المأزق الذي أوقعهم به قادتهم... ومن ثم فإن هذه الأسلحة لم تصل بهم إلى أيّ الأهداف التي شنت الحرب من أجلها فلا (الجنديان الصهيونيان) الأسيران رجعا بقوة الوحشية الصهيونية، ولا سلاح حزب الله دمّر، ولا تنظيم حزب الله قد تخلخل أو ضعف او انفض الناس من حوله في لبنان وخارجه، بل اجتمع العرب والأحرار حوله... وازدادت الثقة بالمقاومة الوطنية اللبنانية وبقائدها الذي أحكم مع رفاقه المناضلين من كل الفئات قيادة المعركة يساندهم إعلام المقاومة في خطة نفسية مدروسة لنقل الخوف والرعب إلى قلوب الصهاينة، ولا سيما حين كان قائد المقاومة يظهر المرة تلو الأخرى على التلفاز ويطلق عباراته الشهيرة على التوالي: (سنضرب ما بعد حيفا، ثم ما بعد بعد حيفا)... وكان يفعل ما يقول ما أوقع الرعب في نفوس الصهاينة، وطفقوا يؤمنون بأن تصريحاته هي الصحيحة على حين أن تصريحات قادة العدو كانت كاذبة...

---

[1] *راجع ما تقدم (ص ٧٠) وما بعدها من الفصل الثاني.*

وفي ضوء سقوط الجيش الأسطورة وخرافة القوة التي لا تقهر فإن نظرية ( الأمن) التي تبجح بها الكيان الصهيوني قد سقطت؛ وكذلك سقطت كل مفاهيم (الحرب الاستباقية) أمام إرادة المقاومين الأبطال في جنوب لبنان، وبطولاتهم المعجزة التي اعتمدت أسلوب المفاجأة والردع بالمثل، واتخاذ طريقة الخطوة خطوة والمجموعات القليلة في القتال، فضلاً عن استثمار الأنفاق والتمويه والاختفاء في الوقت المناسب أحسن استثمار.

ثم تفتقت عبقرية الإدارة الأمريكية والرئاسة الفرنسية بقيادة (جاك شيراك)عن قرار مجلس الأمن الجائر (١٧٠١) الذي جَهد العالم في تعديل بنوده بكل ما احتوت عليه من ظلم لقهر لبنان ومقاومته الباسلة إذ خططت تلك الإرادة إلى قلب انتصار المقاومة الوطنية اللبنانية إلى خسارة مستفيدة من سيطرتها على مجلس الأمن، لتنفيذ قراره (١٥٥٩) بشأن نزع سلاح حزب الله ...

ثم ضُرب الحصار الصهيوني على لبنان على الرغم من صدور القرار المذكور ليؤكد أن قوى الظلم في العالم واحدة، وهي تتركز في القوة الأمريكية التي تعد أعتى قوة في العالم وبخاصة حين انفردت بالقرار الدولي، وطفق الأتباع في الخارج والداخل يصفقون لها... ولا سيما حين شرعنت وقف العدوان الصهيوني بالقرار (١٧٠١).

لهذا لم يعد هناك ما يقال عن استهزاء الإدارة الأمريكية بعملية السلام، وتسخير الأمم المتحدة لمصالحها بعد قرار مجلس الأمن المشار إليه والمتعلق بلبنان والقرار الآخر المتعلق بالسودان برقم (١٧٠٦) بيد أنه يمكننا القول: لقد اتضحت للعالم أكاذيب الإدارة الأمريكية، فهي لم تؤمن بالسلام يوماً، وإنما كانت تسعى إلى جعل لبنان بوابة أخرى للسيطرة على الوطن العربي وفرض ما يمكن أن يطلق عليه ثقافة الاستسلام والخوف على العرب والمسلمين وأحرار العالم. ثم إن أقنعتها قد سقطت بمثل ما سقطت معها الصهيونية الأسطورة، وفي الوقت نفسه سقطت هيئة الأمم المتحدة الخُرافة لأنها غدت ألعوبة بيد دولة مارقة فاقدة لقيم العدالة ما جعلها دولة عدوانية عنصرية استعلائية لا تقيم لحقوق الإنسان وزناً ولحقوق الشعوب قيمة، ولاسيما الشعب العربي.

وقبل أن أنهي حديثي عن سقوط خرافة الجيش الذي لا يقهر فإني أذكر بسقوط خرافة أخرى تتعلق بقوة الاستخبارات الصهيونية. وقد تجلى إخفاق الاستخبارات الصهيونية في العديد من مواقف الحرب، منها أسر الجنديين الصهيونيين من موقع عسكري قرب مستوطنة (أفيفيم) وقتل عدة جنود فيه،

وانسحاب مقاتلي حزب الله بسلاسة وأمان، ومنها ـــ أيضاً ـــ إخفاق العدو بالحصول على معلومات دقيقة عن وجود الأمين العام لحزب الله، وهو ما نتج عنه إنزال وحدة من الكوماندز في البقاع فباءت بالخذلان، ومثلها كانت المعلومات حول وجوده في الضاحية الجنوبية، وفضلاً عن ذلك كله فإن الاستخبارات الصهيونية أخفقت باختراق حزب الله. ومن ثم فلم يَعُد للموساد هذه القدرة التي سوّقها العدو لجهازه، على اعتبار أنه عجز ـــ حتى الآن ـــ عن معرفة مكان الجندي الصهيوني (جلعاد شاليط) الذي أسرته المقاومة الفلسطينية بعد إصابة دبابته ومقتل قائدها في (٢٥/٦/٢٠٠٦م) ولا مثيل لهذا السقوط المخزي إلا عجز الإدارة الأمريكية عن العثور على قادة القاعدة أسامة بن لادن والمُلاّ (عمر) في أفغانستان، علماً بأن تاريخ الحروب الأمريكية تؤكد أنها كانت تختار أهدافها الضعيفة لضربها كما رأينا في حرب فيتنام، وغرينادا ولبنان (١٩٨٣م) والبوسنة والهرسك، وأفغانستان والعراق... وليس لدينا شك في أن طائراتها وصواريخها المتطورة تستطيع تدمير الحياة على الأرض من مكان بعيد، لكن جنودها إذا وضعوا أقدامهم على الأرض العربية فإنها سرعان ما تغوص في القاع وينكشف ضعفهم، وتظهر خيبة إدارتهم. ولا شيء أدل على هذا ممّا يجري في العراق.

وبعدُ، فهل يعني كل ما أشرنا إليه أن الكيان الصهيوني الذي اعترف قادته راغمين بعدم قدرتهم على تحطيم قدرة حزب الله ونزع سلاحه سيصبح راغباً في السلام العادل والشامل؟! وهل استطاع وعي الدرس الأخير جيداً أم أنه ماض في ضلاله وأكاذيبه؟ الجواب يؤكده مؤتمر (هرتسليا) السابع الذي عقد في الفترة ما بين (٢١ ـــ ٢٤/ ١/ ٢٠٠٧م) والذي ينظمه سنوياً (معهد السياسة والاستراتيجية) و(مدرسة لاودر للحكم والدبلوماسية والاستراتيجية). وتعددت فيه الآراء والأبحاث، ولعل من أهمها أن مبدأ ((الأرض مقابل السلام)) لم يعد يلبي هدف الصهاينة، ولا بد لهم من تقوية المصطلحات الصهيونية الوطنية، وتعزيز المناعة القومية للصهاينة، و((على إسرائيل أن تتمترس وراء مواقفها [السياسية] إلا إذا اختارت شنَّ الحرب، كما يستدل من توصيات بعض المتحدثين))[1]

---

[1] *مجلة الأرض ـــ العدد ٣ ـــ ٢٠٠٧م ـــ ص ٣٨.*

أما (عمير بيرتس) وزير الدفاع الصهيوني في حرب تموز فقد ذهب إلى أن تحقيق السلام يوجب على الكيان الصهيوني أن يضرب المقاومة الوطنية اللبنانية والعربية (ضربة قاسية) لم يعرفوا نظيراً لها.[١].

ومن ثم فقد قَدَّم الموساد الصهيوني اقتراحات عديدة باغتيال حسن نصر الله ورفاقه، أو نفيهم إلى طهران،[٢] في الوقت الذي مازال يسعى إلى محاسبة سورية وعزلها ومعاقبتها لدعم المقاومة الوطنية اللبنانية. وعليه فإن المشروع الصهيوني العنصري يحاول أن يسترد قوّته الردعية ويعيد بناء قدراته البشرية والعسكرية... فقادته لم يؤمنوا يوماً بأن مشروعهم قد هُزم، بل هم يظنون أنه قادر على قلب الأوضاع ولا سيما إذا تحقق تحوّل نوعي في الإعداد الاستراتيجي من أجل معركة فاصلة مع سورية والمقاومة الوطنية اللبنانية بقيادة حزب الله في الوقت الذي تسعى إلى تمزيق مقاومة الشعب العربي في فلسطين والعراق وتأليب العالم عليها.

ومن ثم علينا تأسيس الإرادة الصلبة وتنمية الوعي بثقافة المقاومة ومفاهيمها وأساليبها وجعلها أصل بناء حياتنا وأوطاننا، مع الاندماج الحقيقي في النضال القومي والإنساني.

ولا بد لنا من الاستغلال الأمثل لمواردنا ووسائل التثقيف والإعلام في كل مجال؛ حتى يمكننا الصمود والنهوض الفكري والحياتي.

وفي ضوء ذلك كله تبين لنا الفرق الكبير بين ما نحن عليه من تنابذ وفرقة في المواقف والآراء، وبين ما هو عليه عدونا المتربص بنا وبأرضنا، ومن ثم علينا أن ندرك أن ثقافة السلام تعد جزءاً من ثقافة المقاومة، ولكنها ليست السبيل الوحيد للمقاومة، فهناك أنماط مادية عسكرية إعلامية ينبغي أن نوفرها لمجابهة عدونا وعلينا أن نفهم بأن سياسة الاستسلام تعد ثقافة مساومة ومذلة و.... وهي مرفوضة شكلاً ومضموناً.

وهذا كله ينقلنا إلى خاتمة توجز بعض النتائج التي توصلنا إليها وإن كان البحث قد ضمَّ عدداً كبيراً منها.

---

[1] انظر صحيفة (يد يعوت أحر ونوت ــ ١٤/ ٧/ ٢٠٠٦م ــ مقال لأليكس فيشمان.

[2] انظر صحيفة الخليج (٢٥/ ٧/ ٢٠٠٦م).

# الخاتمة

تعد الثقافة ــ قديماً وحديثاً ــ الوجه الأنصع للحضارة، ومن ثم فهي بمعناها الوجودي والأنثروبولوجي تتصدر حياة الأمم الحية، وتشغل بال كل فرد فيها... لأنها تمتلك في طبيعتها رؤية صنع الأحداث الجسام، وتوجيه المتغيرات الأساسية في حياة الناس على مختلف الصُعُد لبناء المستقبل الفاعل.

ولعلّ من أعظم التحولات الفكرية الوطنية والاجتماعية والإنسانية ما يتجلى بفكرة التحرر من الاستعمار، أو الدعوة إلى التحرر من التخلف والجهل والتبعية.... وهو ما أطلق عليه في تاريخنا الفكري والسياسي والأدبي والاجتماعي فكرة الجهاد بالنفس والمال... فما آل إليه التفكير العربي يبعث على الخوف... ليس ــ فقط ــ على اعتبار أننا أخذنا نحاكم تاريخنا النضالي القريب والبعيد، وفق الرؤى الإيديولوجية الجديدة، بل على اعتبار أننا أخذنا نؤمن بمفاهيم الآخر المناقض لنا في فلسفته، وتفسيراته لكل ما ورثناه من قيم ومبادئ، لأنه الأقوى عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وإعلامياً وتقنياً وعلمياً و.....

ومن هنا نرى أن فكرة الجهاد المقابلة للكفاح التحرري حملت كل تشوهات الفكر الغربي وثقافته وسلوكه فصارت تلتصق بمفهوم قتل الأبرياء، وإرهابهم، وترويع الآمنين المطمئنين... وكل من يدعو إليها فهو إرهابي لا يملك من الحضارة والأخلاق والإنسانية شيئاً... وما دام الإسلام يتبنى فكرة الجهاد في تعاليمه وعقيدته فهو قرين للإرهاب أو الرعب أو الهول ( Terror ism) ومن ثم صار المسلم أو العربي إرهابياً ناشراً للرعب (Terrorists).

ومهما قيل في هذا الشأن فإن العرب لا يختلفون عن بقية المجموعات البشرية في نهج سبيل المقاومة وبيان ماهيتها وجدواها في تخليص الذات الفردية والجماعية والأوطان من القهر والسيطرة والاحتلال واستغلال الموارد

البشرية لحساب الأقوى؛ علماً بأن المقاومة منذ قديم الزمان قد أخذت أنواعاً شملت كل جوانب الحياة مادية وروحية؛ ثقافية وسياسية، اقتصادية وتقنية، علمية وإعلامية و.. فردية وجماعية، داخلية وخارجية، باعتبارها دفاعاً عن الذات والوجود وهو ما نراه مثلاً في مقاومة الاحتلال الصهيوني في فلسطين، والأمريكي في العراق... ومن هنا ندرك أن المقاومة مقدسة عند الأمم المختلفة وفق ما وقع على أوربا من ظلم العدوان النازي وتدمير أجزاء كثيرة منها، ما فرض عليها مقاومته، مما جعل مصطلح المقاومة يدخل في المعاجم الفرنسية إبان الحرب العالمية الثانية على اعتباره مواجهة الاجتياح الألماني بقيادة هتلر والنازية، ثم غدت مقاومة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية. فالمقاومة عند الشعوب مشروع تحرري وطني مارسته بأشكال شتى، وكذا كانت عند الفيتناميين وغيرهم.

وهذا كله أكد لنا أن المشروع الأمريكي الصهيوني إنما هو مشروع احتلال وهيمنة ولا بد من مقاومته بكل الأساليب.

وفي ضوء ذلك حاولنا أن نقف عند المقاومة الوطنية اللبنانية ثم عند انتفاضة الأقصى التي جرت أقلام كثيرة بالحديث عنها واختلفت حول جدواها وأشكالها، ونتائجها ... وبخاصة بعد أن تخلصت إسرائيل – بالسم – من ياسر عرفات.

ونرى أنه ما من باحث في أي موضوع قد قال الكلمة الأخيرة، ولهذا فإن ما قدمه الآخرون في الحديث عن المقاومة الوطنية اللبنانية وعن الانتفاضة أصبح جزءاً لا يتجزأ من مادة كل بحث ومن ثم فقد أفاد بحثنا منها لكنه يطمح إلى أن يضيف كلمة أخرى في شأنها وإذا كانت هذا الرؤية تمثل مشروعية البحث العلمي فإن أي بحث يعالج القضايا الوطنية والقومية الكبرى يصبح ذا نكهة خاصة لأنها تمثل روح التعبير عن الوجود والانتماء ...

وقد استطاع كل من المقاومة الوطنية في فلسطين والعراق ولبنان أن يعمق هوية الإنسان العربي طفلاً أم شيخاً وأدرك أن المقاومة الشعبية النضالية وحدها من تحقق له تطلعاته ولذلك لا بد من التضحية. ومن ثم دخلت المرأة في عمق الصراع العربي الإسرائيلي، وطورت المقاومة أنظمتها وخططها، وأخذت ترسم آفاقها المستقبلية بخلق الوعي والخبرة والحنكة في التعامل مع الكيان

الصهيوني والدول الداعمة لـــه، ومن ثم تنمية آليات الحفاظ على الوجود والأرض بتربية وطنية ترتبط بالعمق العربي والإسلامي والإنساني، وتعرية طروحات الصهيونية حول أرض الميعاد والأرض الخالية، وخرافة شعب الله المختار، وفضح كذبة هيكل سليمان بعد أن أثبتت المكتشفات الأثرية اختلاقها.

ومن ثم انتهى كل من المقاومة الوطنية اللبنانية والعراقية، والانتفاضة إلى تحقيق وعي وخبرة وثقافة أصّلت لثقافة المقاومة الحرة كما أصّلت للثقافة العربية الإسلامية المتسامحة التي أكدت أنها ثقافة سلام ولم تكن يوماً ما ثقافة استسلام وخوف ... وأكدت في الوقت نفسه تضافر القوة المادية والخبرة العسكرية مع مفهوم الإسهام الحقيقي في تبني آليات إعلامية وتقنية فضائية لإيضاح حقيقة الكيان الصهيوني، مما أدى إلى كسب الرأي الدولي والوقوف من الآخر داخلياً وخارجياً موقف الواعي المنفتح على أفكاره دون اتهام أو محاباة.....

وهذا لا يعني أن الثقافة الوطنية أو القومية صارت قابلة للتسليع في سوق التداول والتفاوض، أي إن ثقافة السلام لا تماثل ظاهرة الاستسلام، وهي ليست كذلك. فثقافة السلام تعد منهجاً فعالاً لمواجهة ما يتعرض لـــه الإنسان ولهذا فإن ثقافة السلام تعد جزءاً أصيلاً في تشكيل الوعي الثقافي للفكر السياسي وتمكين ثقافة المقاومة والتحرر، فردياً وجماعياً، وطنياً وقومياً وإنسانياً، أياً كان الشكل الذي تتخذه أو الحقل الذي تتفاعل فيه، وعلى مُختلف الصعد السياسية والثقافية والاقتصادية والإعلامية، والأدبية، و ....

هكذا يتضح لدينا أن ثقافة السلام ثقافة مقاومة تتشبث بالأرض والحق ولم يكن أي عمل بطولي جهادي خيالاً أو تخيّلاً وهمياً فقد شهدناه حركات نضال على مستويات عدة، ابتداءً بالمفكرين والساسة الأبطال في ساحات فلسطين ولبنان والعراق والسودان والصومال وانتهاء بالأقلام الأدبية التي عبَّرت عن ذلك في القصة والرواية والأشعار والمسرحيات... أو في تلك اللوحات الفنية التي ظهرت بالألوان والإيقاعات الموسيقية التي تمجد البطولة وصمود الأحرار، على حين كانت سياسة الاستسلام تقوّي ازدواجية الولاء للوطن ولغيره، فيتمزق الانتماء ويسهل تدمير الكينونة الذاتية للفرد والمجتمع والوطن، إذ تنتقل الشخصية من انفصام إلى انفصام ذاتياً ووطنياً وقومياً و... في الوقت الذي تنتقل المفاخر الوهمية إلى ركام من القرارات المذلة التي

أرادت للشعب العربي أن يعيش على هامش الحياة، وهو يلعق مرارة اليأس والقلق والإحباط والخوف والهزيمة. فسياسة الاستسلام التي تُسوقها الدوائر الغربية باسم ثقافة السلام وفق الخطاب الأمريكي الصهيوني؛ إنما تنتهي إلى تجزئة مفهوم الوحدة الوطنية، ليصبح الوطن دولاً متعددة، بعد أن غدت القومية حلماً بعيداً أي لم يعد هناك حاجة إلى الدولة الوطنية الجامعة لأعراق عدة، ومذاهب دينية شتى. فالواقع الراهن ــ كما يرى هذا الخطاب ــ يفرض إقامة دويلات مذهبية أو عرقية تحت أي مسمًّى كان. فإذا كانت الدولة القطرية عقبة كأداء لتحقيق الدولة القومية، فإن كل ما قيل هو الخطر الذي هَدَّد تحقيق الدولة الوطنية والقومية باعتبارها مستندة إلى مفهوم العروبة ولهذا تبقى ثقافة المقاومة ضرورة وعي ووجود للحفاظ على الذات والوطن والأمة، وضمان للحرية الفردية والجماعية، وأصل للسيادة والاستقلال.

⊥⊥⊥

## المصادر والمراجع


١ ــ الآثار الكاملة لغسان كنفاني ــ مركز الدراسات ــ ١٩٦٨م ــ ط٨.

٢- أبعاد القضية الفلسطينية من المناورات الدولية إلى انتفاضة الأقصى – عبد الله خلف – دار الوطن للطباعة – الكويت – ط١ – ٢٠٠١م.

٣- أثر الانتفاضة في الهوية الجماعية في الضفة الغربية وقطاع غزة – محمود معياري – مجلة الدراسات الفلسطينية – بيروت – ربيع / ٢٠٠٤.

٤ ــ الاحتلال الإسرائيلي وشرعية المقاومة والعمليات الاستشهادية ــ د. غازي حسين ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق ــ ٢٠٠٧م.

٥ ــ الأدب الصهيوني وتضليل الرأي العام ــ فؤاد سليم أبو زريق ــ اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق ــ ٢٠٠٠م.

٦- أزمة فلسطين بين الحقائق والتزوير – مروان الماضي – الأهالي للطباعة والنشر – دمشق – ط١ – ٢٠٠١م.

٧ــ الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية ــ د. هيثم الكيلاني ــ مركز دراسات الوحدة العربية ــ بيروت ــ ط٦ ــ ١٩٩١م.

٨- الاستيطان الصهيوني (محاضرات في الاستيطان الصهيوني) – د.طلال ناجي – مؤسسة الرؤى للطباعة والنشر – بيروت – ط١-٢٠٠٤م.

٩- أسطورة هرمجدون والصهيونية المسيحية – عرض وتوثيق هشام آل قطيط – دار النمير للطباعة و النشر – دمشق – ط١- ٢٠٠٤م.

١٠ ــ الأصمعيات ــ للأصمعي ــ تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ــ دار المعارف بمصر ــ القاهرة ــ ط٤ ــ ١٩٧٦م.

١١ ــ أضواء على الفكر الصهيوني، سميح القاسم، دار القدس، بيروت، ١٩٧٨م.

١٢ ــ الاعتبار، أسامة بن منقذ، أخرجه فيليب حتّي، جامعة برنستون، ١٩٣٠.

**وقد رجعنا إلى طبعتين للكتاب وهما:**

أ ــ مراجعة الدكتور حسن الزين ــ دار الفكر الحديث ــ بيروت ــ ١٩٨٨م.

ب ــ تعليق الدكتور عبد الكريم الأشتر ــ المكتب الإسلامي ــ دمشق ــ ٢٠٠٣م ــ ط ٢.

* ــ الأعمال الكاملة ــ غسان كنفاني ــ الدراسات ــ ١٩٦٨م.

١٣ ــ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د/ت.

١٤- الاغتيالات الإسرائيلية – والتصفيات السياسية – عماد لبد – مجلة رؤية – السنة الأولى – العدد ١٢- أيلول /٢٠٠١م.

١٥- الاغتيال الانتقائي الإسرائيلي – آمال الخزامى – مجلة رؤية – السنة الثالثة – العدد ٢٨-آذار مارس ٢٠٠٤م.

١٦ ــ امبراطورية كل الأرض، أو خفايا (النظام العالمي الجديد) ــ ف. ي كرلوف ــ ترجمة م. منتخب يونس ــ منشورات دار علاء الدين ــ دمشق ــ ط١ ــ ٢٠٠٧م.

١٧- انتفاضة الأقصى – دروس وعبر – علاء الدين معصوم حسن – مجلة الأسبوع الأدبي – اتحاد الكتاب العرب – دمشق – العدد ٨٩٠-١٠/١/٢٠٠٤م.

١٨- الانتفاضتان الفلسطينيتان – أوجه الشبه والاختلاف – د. أسعد عبد الرحمن – جريدة الاتحاد – أبوظبي – الإمارات – تاريخ ١٩/٣/٢٠٠٤م.

١٩- انتفاضة الحجارة – عبد الجبار عدوان – جريدة الشرق الأوسط – ٣٠/١٢/١٩٩٠م.

٢٠ ــ الإيديولوجية الصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، ١٩٨٣م.

٢١ ــ بذور الفتنة الطائفية في لبنان ــ النظام السياسي اللبناني ــ د. محمد سعيد عكام، دار البراق ــ بيروت ــ ط١ ــ ٢٠٠٦م.

٢٢ ــ تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، محمد عزة دروزة، المكتب العصرية، بيروت، ط ٣، ١٩٧٠م.

٢٣- التطور الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين العربية – محمد يونس الحسيني- القدس -١٩٤٦م.

٢٤- الثقافة القومية وتداعيات العولمة – ماجد السامرائي – مجلة الفكر السياسي – السنة السابعة – العدد ٢٠- اتحاد الكتاب العرب – دمشق – خريف ٢٠٠٤م.

٢٥ ــ ثقافة المقاومة ــ مجموعة باحثين ــ كلية الآداب والفنون ــ جامعة فيلادفيا ــ عمان ــ الأردن ــ ٢٠٠٥م.

٢٦ ــ الجامع الصغير من حديث البشير النذير، للسيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار خدمات القرآن، القاهرة، د/ت.

٢٧- جدلية الإرهاب وحق الشعوب في المقاومة – نواف الزرو – مجلة رؤية السنة الثانية – العدد ١٦/شباط ٢٠٠٢م.

٢٨- جذور القضية الفلسطينية – إميل توما – دار الجيل – بيروت.

٢٩ ــ جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، دار الحداثة، بيروت، ط ١، ١٩٨٥م.

٣٠- الجهاد الاحصائي الفلسطيني (WWW.pnic. Gov. Ps).

٣١- جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن – أبو بصير صالح مسعود – دار الفتح للنشر – بيروت – ط٣ – ١٩٧٠م.

٣٢- حائط البراق بين الملكية الإسلامية والانتحال اليهودي – مجلة المتحف العربي – الكويت – عدد ٣.

٣٣ ــ حضارة العرب ــ غوستاف لوبون ــ ترجمة عادل زعيتر ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ــ ط٢ ــ ٢٠٠٠م.

٣٤- حق العودة بين القرار ١٩٤ ووثيقة جنيف – د. علي عقلة عرسان – انظر رقم (١٣) مما تقدم.

٣٥ ــ الحيوان في الشعر الجاهلي، تأليف: د. حسين جمعة، دار دانية، دمشق، ط ١، ١٩٨٩م.

٣٦- دوائر الخراب : الاستشراق والعنصرية الصهيونية – سمير صالح – دار النمير – دمشق – ٢٠٠٢م.

٣٧ ــ ديوان الأعشى الكبير، تحقيق د. محمد أحمد قاسم، المكتب الإسلامي، دمشق/ بيروت، ١٩٩٤م.

٣٨ ــ ديوان البحتري، شرح د. محمد التونجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٩م.

٣٩ ــ ديوان دريد بن الصمة، تحقيق عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.

٤٠ ــ ديوان الشنفرى، تحقيق د. إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩١م.

٤١ ــ ديوان طفيل الغنوي، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٨م.

٤٢ ــ ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، صححه مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، د/ت؟

٤٣ ــ ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق د. علي أبو زيد، دار سعد الدين، دمشق، ط١، ١٩٩١م.

٤٤ ــ ديوان الهذليين، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

٤٥ ــ الرثاء في الجاهلية والإسلام، د. حسين جمعة، دار معد، دمشق/ط١، ١٩٩١م.

٤٦ ــ رجال من فلسطين المحتلة – عجاج نويهض – بيروت – ١٩٦٨م.

٤٧ ــ الروضتين في أخبار الدولتين، لأبي شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م.

٤٨ ــ السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق صححه مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث، بيروت، د/ت.

٤٩– سيف الانتفاضة ورقبة الاقتصاد الإسرائيلي – د. علي أسعد عبد الرحمن – جريدة الاتحاد – أبو ظبي – الإمارات – ٢٥/٨/٢٠٠٤م.

٥٠ ــ شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبد الستار فراج،راجعه محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٥م.

٥١ ــ شرح ديوان أبي تمام، تقديم راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٨م.

٥٢ ــ الشرق أوسطية من المصطلح إلى المشروع السياسي ــ د. مجيدة بدور ــ مجلة المعلم العربي ــ دمشق ــ وزارة التربية ــ العدد (١ +٢) السنة (٥٨) عام ٢٠٠٥م.

٥٣ ــ شعر زهير بن أبي سلمى ــ للأعلم الشنتمري، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة ــ بيروت، ط ٣، ١٩٨٠م.

٥٤ ــ شعر ابن القيسراني، تحقيق د. عادل جابر، الوكالة العربية للتوزيع، الزرقاء، الأردن، ١٩٩١م.

٥٥ ــ صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د/ت.

٥٦ ــ صدام الحضارات ــ صموئيل هنتنغتون ــ ترجمة طلعت الاشيب ــ بيروت ط٢ ــ ١٩٩٩م.

٥٧ ــ صفحات من الجهاد والكفاح المغربي ضد الاستعمار ــ الدكتور محمد علي داهش ــ دار الشؤون الثقافية العامة ــ بغداد ــ ط١ ــ ٢٠٠٢م.

٥٨– الصهيونية غير اليهودية – ريجينا الشريف – ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز – سلسلة عالم المعرفة – الكويت رقم ٩٦–١٩٨٥م.

٥٩ – الصهيونية والعنف – عبد الوهاب المسيري– دار الشروق – بيروت – ط١– ٢٠٠١م.

٦٠ – صورة إحصائية عن الأوضاع الفلسطينية في الوطن والشتات – أحمد يونس – مجلة الأرض للدراسات الفلسطينية – دمشق – عدد ١١/٢٠٠١م.

٦١ ــ صورة العربي في الأدب العبري ــ إيهود بن عيزر ــ ترجمة د. أحمد حماد ــ دار الحمراء للطباعة ــ بيروت ــ ط ١. ٢٠٠١م.

٦٢ ــ صورة العربي في كتاب (رحلة من باريس إلى القدس، لشاتوبريان) وكتاب (مراسلات) لفلوبير؛ فصل: رحلة إلى الشرق) د. أميرة مصطفى عيسى، بحث

مقدم لندوة (الأدب وحوار الحضارات) قسم اللغة العربية بجامعة دمشق، ١٢ ــ ١٤، تشرين الأول/٢٠٠٢م.

٦٣ ــ صورة المسلم في قصص الأطفال الأسبانية (حكايات أسبانيا) للكاتبة: (أ. خيمينييث لاندي) أنموذجاً، إعداد: د. يونس شنوان، بحث مقدم للندوة المشار إليها في المصدر السابق.

٦٤ ــ ظاهرة الإسلاموفوبيا ــ قراءة تحليلية ــ خالد سليمان ــ مجلة ثقافتنا ــ طهران ــ مجلد ٣ ــ عدد ١٢ ــ خريف ٢٠٠٦م.

٦٥ ــ عيون الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، لأبي شامة المقدسي، تحقيق أحمد البيسومي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م.

٦٦ ــ الفتح القسي في الفتح القدسي، للعماد الأصفهاني، تحقيق محمود محمد صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د/ت.

٦٧ ــ فتوح الشام للواقدي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة، ط ٤، ١٩٦٦م.

٦٨ – الفلسطينيون بين الهوية القومية والهوية الدينية – موسى البديري – مجلة الدراسات الفلسطينية – العدد ٢١– شتاء /١٩٩٥م.

٦٩ ــ في أصول الشريعة ــ لأبي اسحق الشاطي ــ تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي ــ المكتبة العربية ــ صيدا ــ لبنان ــ ٢٠٠٤م.

٧٠ ــ قاموس مصطلحات الأنثولوجيا والفلوكلور ــ إيكة هولتكرانس ــ ترجمة محمد الجوهري و د. حسن الشامي ــ دار المعارف ــ مصر ــ ط٢.

٧١ – القانون الدولي المتعلق بسير العمليات الفدائية – (مجموعة اتفاقيات لاهاي وبعض المعاهدات الأخرى )– صادر عن لجنة الصليب الأحمر الدولية – جنيف –١٩٩٦م.

٧٢ ــ القبيلة الثالثة عشر ويهود العالم ــ ترجمة أحمد نجيب هاشم ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ــ ١٩٩١م.

٧٣ ــ القرارات الصهيونية بحق القدس – أحمد الأشبري – دار الحق – بيروت – ٢٠٠٢م.

٧٤ ــ قصيدة الرثاء، جذور وأطوار، د. حسين جمعة، دار النمير، دمشق، ط ١، ١٩٩٨م.

٧٥ ــ كتاب الردة للواقدي، تحقيق د. يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م.

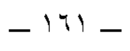
٧٦ ــ الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في العالم العربي، ١٩٨٠م.

٧٧- لسان العرب – ابن منظور – دار صادر – بيروت – ١٩٥٥ – ١٩٥٦م.
٧٨- المثقف العربي وآفاق الواقع – د. حسين جمعة – انظر قم (١٣) مما تقدم.
٧٩- مجلة فلسطين المسلمة – محمد جمال القدسي – أيلول – ٢٠٠٤م.
٨٠ ـــ مجلة الكفاح العربي، بيروت، عدد ٨١٥.
٨١ ـــ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمعها محمد حميد الله، دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.
٨٢- محاضرات في الصهيونية – د. طلال ناجي.
٨٣ ـــ المرأة الصليبية، دراسة في تاريخ المجتمع الفرنجي في بلاد الشام، طه، الطراونة، مؤتة للبحوث والدراسات، جامعة مؤتة، الأردن، مج ٨، عدد ١، ١٩٩٣م.
٨٤ ـــ المرأة والطفل الفلسطيني في الذكرى الرابعة للانتفاضة – نبيل السهلي – صحيفة اللواء اللبنانية – ٣٠/٩/٢٠٠٤م.
٨٥ ـــ مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى – د. أمين عبد الله محمود – سلسلة عالم المعرفة – الكويت – رقم ٧٤-١٩٨٤م.
٨٦ ـــ المشروع الصهيوني والسلام الإسرائيلي – حقائق ووثائق – عدنان مصطفى بيلونة – يبرود للطباعة – دمشق – ٢٠٠٠م.
٨٧ ـــ مشروع القومية العربية إلى أين ـــ د. حسين جمعة ـــ دار الفرقد ـــ دمشق ـــ ٢٠٠٦م.
٨٨ ـــ معالم المشاركة الاجتماعية لانتفاضة الأقصى – غازي خلف – مجلة الوحدة الإسلامية – السنة الثالثة – العدد ٢٩- نيسان /ابريل ٢٠٠٤م.
٨٩ ـــ المعجم الأدبي ـــ جبور عبد النور ـــ دار العلم للملايين ـــ بيروت ط٢ ـــ ١٩٨٤م.
٩٠ ـــ معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت.
٩١ ـــ المعمرون والوصايا، لأبي حاتم السجستاني، تحقق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د/ت.
٩٢ ـــ المفضليات، للمفضل الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط ٥، ١٩٧٦م.
٩٣ ـــ مكان تحت الشمس ـــ فتن يامو ـــ ترجمة محمد عودة الدويري ـــ مراجعة كلثوم السعدي ـــ دار الجليل ـــ عمان ـــ ١٩٩٥م.

٩٤ ــ الموجز في تاريخ فلسطين منذ فجر التاريخ حتى عام ١٩٤٩- د. الياس شوفاني – مؤسسة الدراسات الفلسطينية – بيروت – ١٩٩٦م.
٩٥ ــ الموسوعة الفلسطينية – اصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية – في أربعة مجلدات – دمشق ط١- ١٩٨٤م.
٩٦ ــ موقع مركز الإعلام الفلسطيني بعد أوسلو : دراسة تحليلية نقدية – مؤسسة الدراسات الفلسطينية – بيروت.
٩٧ ــ النظام السياسي الفلسطيني بعد أوسلو : دراسة تحليلية نقدية – مؤسسة الدراسات الفلسطينية – بيروت.
٩٨ ــ النموذج الانتفاضي والأزمة الصهيونية – عبد الوهاب المسيري – جريدة الاتحاد – أبو ظبي – الإمارات – ١٩٩٧/٤/١١م.
٩٩ ــ نهاية التاريخ والإنسان الأخير ــ فرنسيس فوكوياما ــ مركز الإنماء العربي ــ بيروت ١٩٩٣م.
١٠٠- الواقع السكاني والاقتصادي في الضفة والقطاع – نبيل محمود السهلي – مجلة فلسطين المسلمة – العدد العاشر – تشرين الأول / اكتوبر – ٢٠٠٢م.
١٠١- وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية (١٩١٨-١٩٣٩) أوراق أكرم زعيتر – مؤسسة الدراسات الفلسطينية – بيروت – ١٩٧٩م.
١٠٢- اليهود : عقائد وتاريخ إجرامي – نافذ كاسر سويد – مؤسسة سندباد – دمشق – ط١- ٢٠٠٣م.

**دوريات أخرى :**

١- جريدة الأسبوع الأدبي – اتحاد الكتاب العرب – دمشق – عدد ٩٣٢- ٢٠٠٤/١١/١٣م.
٢- صحيفة تشرين – دمشق – سورية – ٢٠٠٤/٩/١٧م.
٣- صحيفة المستقبل – بيروت – لبنان – ٢٠٠٤/٩/٣٠.
٤ جريدة الوحدوي ــ دمشق ــ العدد ٢٤٩ ــ ٢٠٠٧/٤/١٥م.
٥ ــ مجلة جيش الشعب ــ دمشق ــ العدد (١٩٦٥م) ــ ٢٠٠٧م.
٦ ــ مجلة الأرض ــ دمشق ــ العدد (٣) آذار ــ ٢٠٠٧م.



# المحتوى